



رابطة الجامعات الإسلامية

سلسلة فكر المواجهة

(١٦)

الإسلام والحفاظ على البيئة

إشراف

الدكتور/ جعفر عبد السلام

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م

obeikandi.com

تقديم

أ.د/ جعفر عبد السلام

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن
والاه... وبعد..

فقد بدأ الاهتمام بدراسات البيئة بعناصرها الثلاثة منذ وقت طويل، وإن ظلت هذه
الدراسات موزعة بين علوم كثيرة، مثل: علوم الطبيعة، والنبات، والحيوان، والاقتصاد.
ولم تُجمع فى إطار دراسات مكتملة عن البيئة إلا منذ وقت قصير نسبياً لا يتجاوز
الخمسين سنة.

وقد بدأ هذا الاهتمام الحديث بدراسات البيئة، بعد التلوث الكبير الذى تعرضت له
البيئة فى شتى أنحاء العالم، سواء فى الماء، أو فى الأرض أو فى الهواء، حتى إن الإنسان
ليصحو على شروور واسعة تسبب هو أولاً فى إحداثها بالبيئة، كما ينم كذلك على
أضرار جمّة تنتج من تلوثها.

وقد اهتم رجال القانون باستحداث دراسات تتصل بقانون البيئة، سواء فى النطاق
الدولى أو المحلى، وكما هو معلوم، فإن القانون يعنى بتنظيم العلاقات الاجتماعية،
وبالظواهر التى يمكن أن تضر الإنسان؛ ليمنع الضرر، وليحد من الآثار السيشة على
الإنسان، وعلى المحيط الذى يعيش فيه. وهذا القانون يجد مصادره فى اتفاقات دولية
عُقدت فى أروقة الأمم المتحدة أو فى خارجها، تستهدف مكافحة التلوث وكل ما يسبب
الضرر، وهى قوانين تحافظ على البيئة، وتعاقب على مخالفة قواعد الحماية التى تضعها
بالعقاب الجنائى والمدنى على السواء.

ومن المعلوم أن فقهاء المسلمين قد تعرضوا للمستجدات التى تحدث فى حياتهم، وأنزلوا
عليها القواعد والأدلة؛ ليصلوا إلى الحكم الشرعى لها بناء على «مسطرة علم الأصول».

إننا في رابطة الجامعات الإسلامية نهتم بدراسة مشكلات الأمة الإسلامية، لاسيما ما يخص البيئة، وطرح الرؤى والأفكار لبلورة أطر نظرية وموضوعية، ووضع الخطط والبرامج التي تكفل تضييق المسافة بين الواقع والمأمول، حيث قمنا بإصدار كتاب عن التحديات المتعلقة بالبيئة، أوضحنا فيه العديد من المشكلات البيئية المختلفة، وطرحنا فيه الرؤية الإسلامية الصحيحة لعلاج تلك المشكلات، وفي المؤتمر العام السابع للرابطة، والذي عُقد في شهر إبريل ٢٠٠٤م بمدينة بيروت، أصدرنا الميثاق الإسلامي للبيئة.

ووفاءً بوعدنا، نقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب، الذي يُعد حلقة في سلسلة متصلة لما تقوم به الرابطة لعلاج المشكلات البيئية المختلفة. وقد شارك في إعداد هذا المؤلف نخبة من علماء رابطة الجامعات الإسلامية، من مصر والجزائر، والأردن، والمملكة العربية السعودية.

إن قضايا البيئة المختلفة تطرح نفسها على علماء الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر لمناقشتها؛ لأسباب يأتي في مقدمتها سرعة التغييرات التي تحدث في الكون وفي أحوال الناس. كما أن علماء المسلمين في الوقت الحاضر تناولوا المشكلات المستحدثة في الحياة، وعرضوها على أحكام الشريعة الإسلامية ومصادرها وأدلتها، التي اتفق عليها علماء أصول الفقه، وخلصوا إلى أحكامها الشرعية عن طريق الاجتهاد، وهكذا فإننا نطالب بعقد المزيد من المؤتمرات في مجال الاجتهاد، حتى نستطيع مواكبة المستجدات على الساحة العالمية ومعالجتها من المنظور الإسلامي.

والواقع إن هذه البحوث كشفت عن آراء ومبادئ، بل وقواعد راسخة، تناولتها متون الكتب والمراجع العلمية الإسلامية (القديمة والحديثة) في آن واحد، فقد تجلى عطاء الإسلام الحضاري في حرصه على أن يغتسل الإنسان خمس مرات في اليوم ليزيل الأدران الظاهرة والباطنة، فضلاً عن وضع ضوابط دقيقة في الطهارة تكفل للمسلم

نظافته، ومثال ذلك أن رسول الله ﷺ مر على قبر، وبيّن لأصحابه أن صاحبه يُعذّب وما يُعذّب في كيّير. «..كان لا يستبرأ من بوله». كما عنى الفقه الإسلامى عناية كبيرة بالطهارة سواء بالماء أم بالحجارة، فالمهم إزالة النجاسة، ويشترط لصحة الصلاة طهارة الجسم والثوب ومكان الصلاة، وهى شروط توضح كيف اهتم الإسلام بأن يعلم الناس ضرورة الاهتمام بنظافة البيئة بمختلف عناصرها: الأرض (طهارة المكان)، والإنسان (طهارة الجسم والثوب)، ثم الماء أداة الطهارة والنظافة. وتظهر كتب الفقه كيف عنى الإسلام بهذا العنصر، وكيف ميز الفقهاء بين أنواع المياه، وما يصلح منها للشرب والتطهر وما لا يصلح. كل هذا من أجل النظافة.

يسرنى أيضاً أن أقدم بحثاً موجزاً عن "حق الإنسان فى بيئة صحية مناسبة"، وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية والقانون الدولى فى بداية هذا المؤلف.

يسرنى أيضاً أن أقدم مجموعة بحوث عرّفت البيئة، وبيّنت ضرورة حمايتها وفقاً للمفهوم الإسلامى وهى: "المفهوم الإسلامى للبيئة" للأستاذ الدكتور/ على إبراهيم الزيات، "وواجب الحماية الدولية للبيئة الطبيعية" للدكتور/ محمود السيد داود. ثم أعرض لدراسة اجتهادية بعنوان: "قاعدة جلب المصالح ودرء المفساد وقصبيقتها فى المجال البيئى" للدكتور/ على بن عبد الله عسرى.

ويقدم لنا أ.د/ نبيل السمالوطى دراسة عن "إشكالية البيئة والتنمية فى العالم الإسلامى"، حيث يعرض لجوانب دولية تتعرض لمؤتمرات عقدت عن قمة الأرض وحماية البيئة، كما تعرض لجوانب اجتماعية مهمة فى هذه القضية، وفى هذا الإطار يقدم هذا الكتاب لقضية "تنمية البيئة وحمايتها من منظور إسلامى تريبوى" للأستاذ الدكتور/ مصطفى رجب.

ولما كان للبيئة الآن مفهومها الواسع، فإننى أقدم كذلك دراسة عن "الملوثات الضكرية للبيئة" للدكتور/ عمار جيدل، ودراسة عن "الماء" كعنصر للحياة على الأرض، وما ينبغى أن يحاط به من واجبات وتدابير للأستاذ/ أحمد على سليمان.

إن جوانب الدراسات البيئية كثيرة ومهمة الآن، وإن الرابطة ليسعدها أن تقدم هذه الدراسة عن البيئة، لكي تضاف إلى دراسة أخرى سبق لها أن أصدرتها منذ عدة سنوات، كذلك يسعدني أن أنشر في هذا الكتاب 'الإعلان الإسلامي لحماية البيئة'، والصادر عن المؤتمر العام السابع لرابطة الجامعات الإسلامية. وأمل أن تنجح الرابطة في تقديم المزيد من الدراسات التي تهتم ببيان الحكم الشرعي للظواهر التي تستجد في حياتنا.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

حق الإنسان في بيئة صحية مناسبة

بقلم: أ.د. / جعفر عبد السلام (*)

مقدمة

تهتم الدول والمجتمعات الإسلامية عن طريق مؤسساتها الدينية بالاجتهاد؛ لإيجاد الأحكام الشرعية لما يحدث ويستجد للناس من أمور في مختلف شئون حياتهم، لذا لم يكن غريباً أن تعقد مؤتمرات وندوات تعالج قضايا التجديد في الفكر وفي الفقه الإسلامي، وأذكر منها مؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذي عقد في مايو ٢٠٠١م، ومؤتمر جامعة اليرموك الذي عقد في نفس العام، وكذا مؤتمراً عقد في دار الحديث الحسنية عن الاجتهاد في القضايا المستحدثة في نفس العام. ومن هذه المؤتمرات الثلاثة انبعثت فكرة هذا المؤتمر الهام. لقد كلفت رابطة الجامعات الإسلامية بتنظيم مؤتمر عن "الاجتهاد في قضايا الصحة والبيئة والعمران"؛ لمعالجة مخالف المستحدثات المتعلقة بالصحة والبيئة والعمران في العصر الحديث.

وها نحن نجتمع اليوم استجابة لهذا التكليف ولعل هذا المؤتمر يسد فراغاً في الفقه وفي تشريعات الدول الإسلامية.

ولقد اخترت الكتابة في موضوع يتصل بالاجتهاد في قضايا حماية البيئة من التلوث، ورأيت أن الأحكام والمبادئ الموجودة في القانونيين الدولي والداخلي، وكذلك في الشريعة الإسلامية، يمكن أن تبلور حقاً جديداً للإنسان في العيش في بيئة صحية مناسبة.

لقد قدمت الثورة الفرنسية للمجتمع الأوروبي في العصر الحديث، وعلى وجه التحديد في بداية القرن التاسع عشر، الطائفة الأولى لحقوق الإنسان والتي تبين أنها لا تتطلب من الدولة سوى السماح للفرد بحرية العمل وحرية التصرف دون تدخل منها يفسد التمتع بالحقوق الفردية و ممارستها. وبعد الحرب العالمية الثانية قدمت الأمم المتحدة للعالم العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية في نفس العام ١٩٦٦م والعهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. كما بذلت جهود كبيرة طوال القرن العشرين من قبل

(*) أستاذ القانون الدولي بجامعة الأزهر، الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية.

الأمم المتحدة والأجهزة واللجان العديدة التي شكلتها لبلورة حقوق الإنسان وإحالتها من مبادئ عامة إلى قواعد قانونية محددة تصلح للتطبيق، ويجازى من يخالف أحكامها. كما تقدمت جهود الأمم المتحدة في مجال التطبيق الفعلي للحقوق والحريات التي تضمنتها الوثيقة، وعلى وجه الخصوص في مجال تطبيق حق تقرير المصير على الأقاليم التي كانت مستعمرات سابقة، وتحررت العديد من الدول في آسيا وإفريقيا بفضل هذه الجهود.

على أن التطورات العديدة التي شهدتها الإنسانية على مدى هذا القرن قد غيرت الواقع وأثرت في أسلوب الحياة، وأوجدت حقائق جديدة لا يمكن تجاهلها بالنسبة لممارسة الحقوق التقليدية التي تضمنتها الوثائق والداستير الخاصة بمختلف الدول، ومن ثم كان الاهتمام بإيجاد جيل ثالث من أجيال حقوق الإنسان هي ما عرف اصطلاحاً بحقوق التضامن، تلك الحقوق التي لا يمكن أن تمارس إلا بشكل جماعي من ناحية، والتي لا يمكن لدولة واحدة من الدول النامية أن تمارسها بمفردها وإنما تتطلب تضامن الدول في المجتمع الدولي لكفالة تلك الحقوق لجميع الشعوب، وقد أعلن الميثاق الأفريقي لحقوق الإنسان هذه الحقوق، وفي مقدمتها: حق الشعوب في السلام، وحقها في التنمية وحقها في بيئة صحية مناسبة.

وسوف نقسم دراستنا إلى قسمين: نتناول في القسم الأول، حق الإنسان في بيئة صحية مناسبة من منظور قانوني. ونعالج في القسم الثاني ذلك الحق من منظور الشريعة الإسلامية.

ولا شك أن الشريعة الإسلامية الغراء قد سبقت إلى تقرير هذه الحقوق للإنسان، حيث تضمنت النصوص الصريحة في القرآن والسنة مجمل منظومة الحقوق والواجبات التي نعالجها الآن، ويمكن أن نظورها ونفصلها بالاستنباط من النصوص الصريحة ومن الممارسات العملية التي تضمنتها كتب السير والمغازي والتاريخ الإسلامي بشكل عام.

ولابد أن نعترف بأنه قد مضى وقت طويل لم يتناول فيه الفقه الإسلامي القضايا الجديدة، ومنها قضايا الصحة والبيئة والعمران وهي مجالات مهمة لحياة الإنسان وربما لم تكن ملحة مثل الآن.

ولعل الجمع بين ثلاث مؤسسات مهمة تهتم جميعها بشؤون المسلمين وبالاجتهاد في قضاياهم المعاصرة يسد فراغاً ملموساً في الفقه الإسلامي وهذه المؤسسات هي المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة 'الإيسيسكو' ورابطة الجامعات الإسلامية وجامعة اليرموك والتي بذلت جهوداً كبيرة في هذا المجال يكمله هذا المؤتمر إن شاء الله. والله ولي التوفيق،

القسم الأول حق الإنسان في بيئة صحية مناسبة من منظور قانوني

أولاً: حقوق التضامن

أعلنت العديد من المواثيق الدولية طائفة جديدة من حقوق الإنسان هي ما يعرف بحقوق التضامن على أساس أنها تمثل الجيل الثالث من أجيال حقوق الإنسان، باعتبار أن الجيل الأول يمثل الحقوق اللصيقة بشخصية الإنسان والتي لا يمكن أن يحيا حياة كريمة بدونها، وأول هذه الحقوق هو حق الإنسان في الحياة، ثم حقه في الحرية وحقه في سلامة شخصه، ثم حقه في التقاضي وما يتفرع عنه من حقوق أخرى تثبت للشخص عند اتهامه بجريمة معينة، أو عند لجوئه للقضاء، مثل حقه في أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة، واعتبار المتهم بريئاً حتى تثبت إدانته قانوناً عن طريق محاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع، إلى آخر هذه الطائفة الواسعة من الحقوق الإنسان. وقد ربط فريق من الفقه الفرنسي هذه الحقوق بالمبدأ الأول من مبادئ الثورة الفرنسية وهو "الحرية"، فهي حقوق لا تحتاج في قيامها لتدخل الدولة، بل العكس، إنها تحتاج إلى عدم تدخلها إلا لضبط ممارستها ومنع التعرض للأفراد في التمتع بها.

والجيل الثاني لحقوق الإنسان يمثل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، تلك الحقوق التي تحتاج إلى تدخل إيجابي من الدولة بهدف تقديم خدمات وتهيئة مناخ يتيح للأفراد أن يتمتعوا بهذه الحقوق، فالدولة تساعدهم بشكل جدي في التمتع بهذه الحقوق وممارستها. وأول هذه الحقوق هو حق العمل. وهو يعني "حق الدول الأطراف في العهد الحالي في العمل الذي يتضمن حق كل فرد في أن تكون أمامه فرصة كسب معيشته عن طريق العمل الذي يختاره أو يقبله بحرية. وتتخذ هذه الدول الخطوات المناسبة لتأمين هذا الحق"^(١).

ولا أدل من ضرورة التدخل الإيجابي للدولة لنيل هذا الحق مما ورد في الفقرة الثانية من المادة السادسة من العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، من أنه: "تشمّل

(١) راجع للمؤلف: القانون الدولي لحقوق الإنسان، الدار اللبنانية للطباعة والنشر - القاهرة - طبعة ٢٠٠٠ م ص ٤ وما بعدها.

الخطوات، التي تتخذها أى من الدول الأطراف في العهد الحالى للوصول إلى تحقيق كامل لهذا الحق، وبرامج وسياسات ووسائل للإرشاد والتدريب الفنى والمهنى من أجل تحقيق نمو اقتصادى واجتماعى وثقافى مطرد، وعمالة كاملة ومنتجة فى ظل شروط تؤمن للفرد حرياته السياسية والاقتصادية .

والحق الثانى فى هذه الطائفة من الحقوق هو حق الفرد فى الضمان الاجتماعى .

والحق الثالث هو حق الفرد فى مستوى معيشى مناسب لنفسه ولعائلته بما فى ذلك الغذاء المناسب والملبس والسكن .

ويدخل فى هذه الطائفة من الحقوق الحق فى التعليم وفى الثقافة، والحق فى الحياة فى ظل أسرة قومية، إلى غير ذلك من الحقوق التى نجد تفصيلا واسعا لها فى العهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٦٦م .

ويهمنا فى هذه الورقة أن نركز على الجيل الثالث من أجيال حقوق الإنسان أو ما يعرف بحقوق التضامن، وتميز هذه الحقوق بما يلى :

١- أنها تحتاج إلى التعاون بين مختلف الدول والشعوب لضمان قيامها ولكفالة تمتع الأفراد بها. وهكذا نرى أن جهود الدولة وحدها لا يمكن أن توفرها، بل يجب أن تتضافر الجهود الدولية لكفالتها. ونقصد بالجهود الدولية هنا جهود الدول والمنظمات الدولية، وعلى رأسها منظمة الأمم المتحدة والوكالات المتخصصة، بل والمنظمات الإقليمية كذلك.

٢- أنها تفترض تعاوننا كبيرا، ونوعاً من التكافل بين الأسرة الدولية، أى إنها تفترض تخلى الدول عن سلبيتها وعيش كل واحد منها داخل حدودها، وذلك يفرض تغييرا فى بناء القانون الدولى التقليدى وأهدافه، فلم يعد مقبولا أن يكون هدف القانون الدولى مجرد إبعاد الدول عن بعضها البعض حتى لا تتحارب، بل إن هدفه الآن هو تقريب الدول من بعضها البعض حتى تتعاون وتحقق المصالح المشتركة فيما بينها^(١).

(١) راجع للمؤلف، الإطار القانونى للتنمية الاقتصادية - مركز البحوث والتنمية، جامعة الملك عبد العزيز - جدة - طبعة ١٩٧٧م ص ١٠٣ وما بعدها.

٣- أن هذه الطائفة الجديدة من الحقوق تتطلب الاعتراف بالدول النامية أو دول العالم الثالث كأشخاص قانونية محتاج إلى حماية خاصة، ذلك أنها الآن الطرف الضعيف في العلاقات الدولية. وبالتالي لا يمكن إقرار قواعد عامة تطبق على كل الدول في المجالات التي تتعلق بحقوق التضامن.

ولشرح هذه المسألة نقول إن هناك هوة واسعة في الدخول بين مجموعة الدول المتقدمة ومجموعة الدول النامية. فالدول المتقدمة وعددها في العالم حوالي ١٨ تحصل تقريبا على ٨٠٪ من إجمالي الدخل العالمي، بينما باقى الدول وهي أكثر من ١٨٠ دولة تحصل على الباقي وهو ٢٠٪. ويصاحب الفقر المنتشر في الدول النامية أشد أعداء الإنسانية وهي الجهل والمرض. وبالتالي فهى محتاج إلى قواعد للتعامل تراعى ظروفها في العلاقات الدولية^(١).

وقد بدأت تتكون قواعد دولية في مجال توزيع التراث المشترك للإنسانية من ثروات أعالي البحار، تقرر امتيازات خاصة للدول النامية وحصولها على نصيب من الثروات غير الحية مثلا، ولو لم تكن لديها القدرات على الاستغلال الفنى لهذا التراث. كما بدأت توجد قواعد تميز لصالحها في التجارة الدولية بفرض حماية خاصة لأسعار المواد الأولية التي تخصص في إنتاجها وبتشجيعها على إقامة الاتحادات التجارية والتكتلات الاقتصادية لهذا الخصوص.

٤- أن هذه الحقوق محتاج إلى تقديم مساعدات من الدول الغنية إلى الدول الفقيرة. وهذه المساعدات يجب أن تشمل:

أ- تدفق نقدي من أموال الدول الغنية إلى الدول الفقيرة بما لا يقل عن ١٪ من دخل الدول الغنية، كما ورد في أكثر من توصية للجمعية العامة للأمم المتحدة.

ب- مساعدات فنية للدول النامية لإقامة مشروعات البنية الأساسية والإسراع بجهود التنمية فيها، حتى تستطيع أن تنتج الغذاء والكساء والدواء الذى محتاج إليه شعوبها.

(١) للمؤلف، المرجع السابق ص ٧٧ وما بعدها.

ج- مساعدات عن طريق التجارة وهي كثيرة، منها تسعير منتجاتها من المواد الأولية تسعيراً عادلاً، وإزالة القيود المفروضة على تصدير منتجاتها إلى الدول الغنية، وعدم إغراق أسواقها بمنتجات تنافس منتجاتها. وبالجملة يجب ألا تخضع الدول النامية لقواعد المساواة والمنافسة الحرة في المجال التجاري الدولي لأن المساواة هنا لا تكون بين متكافئين، وبالتالي تحمل الدول النامية مسئوليات لا تقدر على الوفاء بها.

ثانياً: الحق في بيئة صحية سليمة في منظومة حقوق التضامن

تضمن الميثاق الأفريقي لحقوق الإنسان والشعوب سبقاً عن المواثيق الدولية الأخرى فيما يتصل بحقوق التضامن، ربما لظروف القارة الأفريقية التي يسود فيها التخلف الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وما تفرضه هذه الظروف من الحاجة إلى التضامن والتعاون الدوليين لتنمية القارة الأفريقية، ولكفالة التمتع بمختلف الحقوق والحريات المقررة في المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، سواء الفردية أو الجماعية. ويتضح ذلك مما جاء في ديباجة " الميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان والشعوب ". فقد جاء به أن الدول الأعضاء في منظمة الوحدة الأفريقية إذ تؤكد مجدداً تعهداتها الرسمي الوارد في المادة (٢) من الميثاق بإزالة جميع أشكال الاستعمار من إفريقيا، وتنسيق وتكثيف تعاونها وجهودها لتوفير ظروف حياة أفضل لشعوب إفريقيا، وتنمية التعاون الدولي، آخذة في الحسبان ميثاق منظمة الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان.. وإذ تعرب عن اقتناعها بأنه قد أصبح من الضروري كفالة اهتمام خاص للحق في التنمية، وبأن الحقوق المدنية والسياسية لا يمكن فصلها عن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. وقد صاغ الميثاق حقوق التضامن على النحو الآتي:

مادة (٢٠):

١- لكل شعب الحق في الوجود، ولكل شعب حق مطلق وثابت في تقرير مصيره، وله أن يحدد بحرية وضعه السياسي، وأن يكفل تنميته الاقتصادية والاجتماعية، على النحو الذي يختاره بمحض إرادته.

٢- للشعوب المستعمرة المقهورة الحق في أن تحرر نفسها من أغلال السيطرة باللجوء إلى كافة الوسائل التي يعترف بها المجتمع الدولي.

٣- لجميع الشعوب الحق في الحصول على المساعدات من الدول الأطراف في هذا الميثاق، في نضالها التحرري ضد السيطرة الأجنبية، سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم ثقافية.

مادة (٢١):

١- تتصرف جميع الشعوب بحرية في ثرواتها ومواردها الطبيعية، ويمارس هذا الحق لمصلحة السكان وحدهم. ولا يجوز حرمان شعب من هذا الحق بأى حال من الأحوال.

٢- في حالة الاستيلاء على أموال الشعوب من الاستعمار، يكون للشعب الذي تم الاستيلاء على ممتلكاته الحق المشروع في استردادها وفي التعويض الملائم.

٣- يكون التصرف الحر في الثروات والموارد الطبيعية دون مساس بالالتزام بتنمية تعاون اقتصادي دولي قائم على أساس الاحترام المتبادل والتبادل المتكافئ ومبادئ القانون الدولي.

مادة (٢٢):

١- لكل شعب من الشعوب الحق في تنميته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، مع الاحترام التام لحرية الشعوب وذاتيتها والتمتع المتساوي بالتراث المشترك للجنس البشري.

٢- من واجب الدول بصورة منفردة أو بالتعاون مع الآخرين ضمان ممارسة حق التنمية.

مادة (٢٣):

١- للشعوب الحق في السلام والأمن على الصعيدين الوطني والدولي وتحكم العلاقات بين الدول ومبادئ التضامن والعلاقات الودية التي أكدها ضمناً ميثاق الأمم المتحدة، وأكدها مجدداً ميثاق منظمة الوحدة الأفريقية.

مادة (٢٤):

لكل الشعوب الحق في بيئة مَرْضِيَّة وشاملة وملائمة لتنميتها.

وهكذا بين الميثاق حقوق الشعوب أو حقوق التضامن ويهمنا منها ما جاء في المادة ٣/٢٠ من تقرير حق الشعوب في الحصول على المساعدات من الدول الأطراف في الميثاق، وحقها في الكفاح ضد السيطرة الأجنبية سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية، وحقها في السيادة الدائمة على مواردها الطبيعية وفي استرداد ما سلبه الاستعمار منها والتعويض عنه. كذلك قرر الميثاق حقين هامين هما الحق في التنمية، والحق في بيئة مرضية شاملة وملائمة لتنميتها.

وقد أقرت الأمم المتحدة في العديد من إعلاناتها ومؤتمراتها الحق في بيئة صحية سليمة ومناسبة، وكذلك سائر حقوق التضامن. وقد أوردنا هذا الحق في الإطار العام الذي جاء فيه حيث تم الربط بينه وبين حقوق الشعوب في حياة كريمة بشكل عام، وفي التنمية الاقتصادية والاجتماعية وفي العيش في سلام تام والتحرر من الاستعمار والهيمنة الاقتصادية^(١).

ثالثاً: الأساس القانوني للحق في بيئة صحية

نستطيع أن نجد أن أساس هذا الحق الجديد، في العديد من الحقوق التي أقرتها القوانين والعهود والمواثيق الدولية. فهناك إجماع على كفالة حق الفرد في الحياة وفي سلامة بدنه وجسده، ولا يمكن للإنسان التمتع بهذا الحق إلا إذا عاش في بيئة صحية سليمة، إذ أن تلوث البيئة بصورة المختلفة وعناصره التي تنال من سلامة الهواء أو الماء أو الطعام بشكل عام، لا يمكن الإنسان من ممارسة حقه في الحياة وفي سلامة بدنه على الوجه الأكمل، وذلك يجعل سلامة البيئة مسألة ضرورية للتمتع بالحق في الحياة وفي سلامة الجسد. وكذلك نجد أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والعهدين الدوليين للحقوق الاقتصادية والاجتماعية وللحقوق المدنية والسياسية وهي وثائق تتمتع بقوة إلزام واضحة، تقرر مجموعة من الحقوق المتصلة بالبيئة الصحية، منها: حق الفرد في مستوى معيشي مناسب لنفسه ولعائلته بما في ذلك الغذاء المناسب والملبس والسكن،

(١) راجع للمؤلف، المنظمات الدولية، الطبعة السادسة ١٩٩٦م دار النهضة العربية، ص ٩٠ وما بعدها.

وكذلك حقه فى تحسين أحواله المعيشية بصفة مستمرة، ذلك ما نصت عليه (المادة ١١) من العهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. كذلك قررت هذه المادة فى فقرتها الثانية ما يلى:

١- تقر الدول الأطراف فى العهد الحالى بحق كل فرد فى مستوى معيشى مناسب لنفسه ولعائلته، بما فى ذلك الغذاء المناسب والملبس والمسكن، وكذلك له حق فى تحسين أحواله المعيشية بصفة مستمرة. وتقوم الدول الأطراف باتخاذ الخطوات المناسبة لضمان تحقيق هذا الحق، مع الإقرار بالأهمية الخاصة للتعاون الدولى القائم على الرضاء الحر فى هذا الشأن

٢- تقوم الدول الأطراف فى العهد الحالى، إقراراً منها بالحق الأساسى لكل فرد فى أن يكون متحرراً من الجوع، منفردة أو من خلال التعاون الدولى، باتخاذ الإجراءات بما فى ذلك البرامج المحددة والتي تعتبر ضرورية

(أ) من أجل تحسين وسائل الإنجاب وحفظ وتوزيع الأغذية، وذلك عن طريق الانتفاع الكلى من المعرفة التقنية والعلمية المعرفة بمبادئ التغذية وتنمية النظم الزراعية أو إصلاحها، بحيث يحقق ذلك أكبر قدر من الكفاءة فى التنمية والانتفاع من الموارد الطبيعية.

(ب) من أجل تأمين توزيع عادل للمؤن الغذائية فى العالم تبعاً للحاجة، مع الأخذ بعين الاعتبار مشاكل الأقطار المستوردة للأغذية والمصدرة لها.

والمادة (١٢) من هذا العهد ذات أهمية كبيرة فى شأن تقرير حق الإنسان فى الحياة وفى بيئة صحية مناسبة، فقد نصت على:

١- تقر الدول الأطراف فى العهد الحالى بحق كل فرد فى المجتمع فى الحصول على أعلى مستوى ممكن من الصحة البدنية والعقلية.

٢- تشمل الخطوات التى تتخذها الدول الأطراف فى العهد الحالى للوصول إلى تحقيق كلى لهذا الحق ما هو ضرورى من أجل:

(أ) العمل على خفض نسبة الوفيات في المواليد وفي وفيات الأطفال، من أجل التنمية الصحية للطفل.

(ب) تحسين شتى الجوانب البيئية والصناعية.

(ج) الوقاية من الأمراض المعدية والمتفشية والمهنية ومعالجتها.

(د) إتاحة المناخ والظروف التي تؤمن الخدمات والعناية الطبية في حالة المرض.

رابعاً: القانون الدولي للبيئة^(١)

إن التطورات التي جرت في الواقع في مجال البيئة وتلوثها، قد أظهرت بوضوح أهمية إقرار هذا الحق، حق الحياة في بيئة صحية مناسبة بشكل قوى، حتى إن فرعا جديدا من فروع القانون الدولي بدأ في التكوين الآن أطلق عليه مصطلح " القانون الدولي للبيئة " وهو يستهدف تبنى مجموعة من القواعد والمبادئ الملزمة للدول والأفراد لتجنب تلوث البيئة بعناصرها الثلاثة الأرض والهواء والمياه. وهي تنظر بعين الاعتبار إلى اتساع ثقب الأوزون بسبب الغازات التي تصل إليه من الاستخدامات الصناعية للغازات السامة، وبأسباب تلوث البحار بالزيت، ووضع مواد عضوية في المياه، وغير ذلك من وسائل التلوث.

ولسنا هنا في مجال التوسع في شرح هذا القانون، ويكفي أن نقول إن كل الدول الآن تضع في تشريعاتها نصوصا تحمي البيئة وتمنع الإنسان من تلوثها. كما أشير إلى أن لجنة القانون الدولي قد جعلت الإساءة إلى البيئة بأي شكل من قبيل الجرائم الدولية التي يجب أن تضافر جهود المجتمع الدولي، ليس لمنعها فحسب، بل للمعاقبة على القيام بها.

والحق كما هو معلوم مصلحة للشخص يحميها القانون. ومصلحة الإنسان في أن يعيش في بيئة صحية مناسبة من أقوى المصالح في القوانين الدولية والداخلية على حد سواء، وذلك للأسباب الآتية:

١- إنه لا يمكن أن يحافظ الإنسان على حياته سليما معافى إلا إذا قرر له هذا الحق، ومعلوم أن الحق في الحياة هو جوهر حقوق الإنسان، وقوام التمتع بها.

(١) راجع تفصيلات ذلك: الدكتور صلاح الدين عامر، القانون الدولي للبيئة، القاهرة - دار النهضة العربية طبعه ١٩٩٧م ص ٣ وما بعدها.

٢- إن الحق في بيئة صحية يستند إلى حق الإنسان في سلامة جسده وهو بدوره أحق الحقوق الرئيسية للعيش في أمان وارتياح.

٣- إن القوانين الدولية والداخلية تولى عناية فائقة بسلامة البيئة التي يعيش الإنسان فيها، ومن ثم فإن هذه القوانين قد أنتجت حقاً جديداً نسبياً للإنسان في أن تكون البيئة التي يعيش فيها بيئة صحية صالحة. ووردت تفصيلات واسعة لهذا الحق في الميثاق والإعلانات الدولية الحديثة الصادرة عن الأمم المتحدة وعن منظمة الصحة العالمية، وكذا عن الإعلانات العديدة التي صدرت في المؤتمرات التي تعالج شؤون الأرض والبيئة والصحة بشكل عام. لذا نستطيع أن نؤكد من الوجهة القانونية أننا بصدد حق يسانده القانون للإنسان في أن يعيش في بيئة صحية مناسبة.

ونحن نركز هنا على أن لكل حق بالضرورة وسائل لكفالة تحقيقه للإنسان ولحمايته من أي مساس به. وقد وجدنا قوانين عديدة للبيئة في داخل جميع الدول المتحضرة تنذر بالقانون الجنائي لتجريم المساس بالبيئة، مثل القانون الجنائي المصري، ونفس الوضع في القانون الدولي حيث اعتبر الاعتداء الجسيم على البيئة باستخدام أسلحة محظورة أو باستخدام الأسلحة التقليدية بشكل يسيء إلى البيئة من قبل الجرائم الإرهابية في تقنين لجنة القانون الدولي وكذلك في كافة الاتفاقيات الحديثة التي جرمت الإرهاب.

وهكذا يستطيع الشخص العادي "الإنسان" أن يلجأ إلى سلطة القانون كلما احتاج إلى حماية حقه في الحياة في بيئة صحية مناسبة، فيطلب من الدولة منع المساس بهذا الحق، ويطلب عقاب الممسء في نفس الوقت^(١).

(١) دكتور محمود العادلي، موسوعة حماية البيئة، دار الفكر الجامعي الإسكندرية ٢٠٠٣م ص ٢٣ ص ٣٠ وما بعدها. وراجع للدكتور محمد بركات، الإسلام والبيئة، طبعة ٢٠٠٣م ص ٥٠ وما بعدها.

القسم الثاني

حق الإنسان في بيئة صحية مناسبة في الشريعة الإسلامية

موقف الإسلام من البيئة:

حرصت الشريعة الإسلامية على أن يحيا الإنسان في بيئة صحية مناسبة، ووضعت العديد من القواعد والمبادئ التي تكفل سلامة البيئة وحمايتها من العبث.

(١) فمن ناحية خلق الله - سبحانه وتعالى - الإنسان في أحسن تقويم، وزوده بقدرات فائقة على الحياة السليمة، وكرمه على سائر المخلوقات.

ولاشك أن ذلك يقتضى من الإنسان الرشيد أن يحافظ على ما أعطاه الله حتى يعيش سليما معافى، قادراً على العمل وعلى الإنتاج، ومتمتعاً بما أعطاه الله له، ولن يتحقق له ذلك إلا بالحفاظ على البيئة التي يعيش فيها، وبوقاية نفسه من أية أضرار تحدث فيها، وكذا بالمسارعة بالعلاج كلما اقتضى الأمر ذلك. يقول الحق - سبحانه وتعالى -:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]

(٢) ومن ناحية أخرى أشار القرآن الكريم إلى التوازن البيئي، وإلى خلق الكون بشكل هندسى رائع وسليم، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فارجع البصر هل ترى من فطورٍ﴾ (٢) ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ [الملك:٤،٣]

ولأن البيئة هي المهد والفراش والموطن والسكن والحياة للإنسان، فقد سخرها الله له وزودها بكل مقومات الحياة الآمنة الصحية السليمة، ونرى أكثر من آية تشير إلى هذا التوازن الدقيق وإلى ما زود الله به الأرض من معاش لحياة الإنسان، وإلى ما أرشده لحمايتها والإبقاء على توازنها. وسنورد بعضاً من هذه الآيات: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ [البقرة:٢١، ٢٢].

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: ١٩، ٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: ٥٣، ٥٤]. [وغير هذا كثير.

وكل الآيات تؤكد ما خلقت عليه الأرض من توازن دقيق يجعلها صالحة تماما لحياة الإنسان، كما يحميها هي نفسها، ولصالح الإنسان والكائنات التي تعيش فيها، من فقدان اتزانها، فقد أرسى الله فيها الجبال أوتادا ثوابت تحفظ لها توازنها وتحمي مناخها الطبيعي ليستمر صالحا للحياة بما أنشأ الله سبحانه وتعالى فيها من نبات وغابات وحدائق تضخ الأوكسجين اللازم للتنفس، وتمتص ثاني أكسيد الكربون المدمر للحياة.

(٣) وقد نبهنا القرآن الكريم كذلك إلى أن الفساد سيعم الأرض بما كسبت أيدي الناس. يقول الحق تبارك وتعالى في سورة الروم ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]. ولعل ذكر هذه الآية في سورة الروم له دلالة في أن الغرب هو الذي سيحدث هذا الفساد، لذا طلب القرآن الكريم من البشر أن يمتنعوا عن إحداث الفساد حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

تنظيم الفقه الإسلامي لشئون البيئة

من المقرر أن الأحكام الشرعية ملزمة، باعتبارها خطاب الله تعالى المتعلق بأحكام المكلفين، على الأقل في الإيجاب والنهي. ونجد أن الشريعة الإسلامية تهتم اهتماما بالغاً بالعبادات وتجعل أحكامها ملزمة على وجه الإجمال.

وأول هذه العبادات هي الصلاة، وتعتبر من أهم العبادات التي أفردت لها كتابات واسعة في كل المذاهب الإسلامية، فكافة المذاهب تجعل أداء الصلوات الخمس في مواقيتها مستكملة الأركان والشروط هي الدعامة الأولى التي بنى عليها الإسلام: ' وكم في هذه العبادة ووسائلها من منافع للناس، ففي التزام العبد بطهارة بدنه وثوبه ومكانه، وفي تحرزه عن الأنجاس والأقذار تعويد له على النظافة، وهو وسيلة إلى سلامة حواسه^(١).

فالمسلم بمقتضى هذه العبادة يغتسل خمس مرات في اليوم، يغتسل من الذنوب ومن الأقذار، فهل يتبقى بعد ذلك من درنه شيء، كما يقول رسولنا، صلى الله عليه وسلم.

كتاب الطهارة

وإذا كانت عناصر البيئة هي المياه والهواء والأرض، فإن معالجة الإسلام للمياه لتدلنا على الأهمية البالغة للبيئة في الفكر والفقهاء الإسلامى على السواء. فالناس شركاء فيها وتلك الشراكة تقتضى أن يكون استخدامها للجميع دون أن يكون من حق أحد أن يحتكرها أو يمس منفعتها المقررة للكافة. وكذلك تمنع هذه الشراكة أى إساءة للمياه من قبل الفرد أو الجماعة.

وبالإضافة إلى ذلك وحرصا على صحة الإنسان وتحقيقا لنظافته الكاملة، نجد الفقهاء يتحدثون كثيرا عن المياه، من خلال كتاب الطهارة الذى نجد فيه مقدمة كافة كتب الفقه الإسلامى.

والطهارة عند الفقهاء قسمان: طهارة من الحدث وهي تختص بالبدن، وطهارة من الخبث وهي تتعلق بالبدن والثوب والمكان.

والطهارة من الحدث تكون بالغسل من ' الحدث الأكبر '، وبالوضوء من ' الحدث الأصغر '. والطهارة من الخبث قسمان: أصلية وهي القائمة بالأعيان الطاهرة بأصل خلفتها، وعارضة وهي التي تحصل باستعمال المطهرات المزيلات لحكم الخبث من ماء وغيره.

(١) راجع مقدمة الطبعة الأولى لكتاب الفقه على المذاهب الأربعة كتبها الشيخ عبد الوهاب خلاف - القاهرة ١٩٢٨م.

وهكذا نجد معالجة شاملة للبيئة الصحية للإنسان توجب عليه أن يكون نظيفاً في بدنه وفي ثوبه وفي المكان الذي يعيش فيه، وتلك القواعد الفقهية ملزمة وواضحة كما قلت في كل كتب الفقه الإسلامي.

وأداة التطهر هي المياه، وهناك أحكام تفصيلية تتصل بصيانتها والحفاظ عليها في كل كتب الفقه، بل نجد تفصيلات تتصل بما يغير المياه ويجعلها غير صالحة لنظافة الإنسان وتطهره وذلك لكي لا تكون المياه سبباً لإيذاء الإنسان في صحته وبدنه.

وهناك تفصيلات واسعة تتصل بالحفاظ على الماء ومنع تلويثه بالبول أو البراز أو ما شابهه، مثل منع ذلك في مصادر المياه أو في المياه الراكدة، وكذا في أماكن مرور الناس واستظلّالهم. وكذا في مقابلة مهب ريح لثلاث ترد عليه رشاش بوله فتنجسه. وهكذا نجد أحكاماً واضحة ومفصلة في وقاية البيئته من التلوث من ناحية، يمكن أن نقبس عليها أموراً أخرى مستجدة تسيء إلى المياه، كصرف مخلفات المصانع فيها.

غذاء الإنسان في الشريعة

يلحق بكتاب الطهارة عند الفقهاء أبواب الأضحية والذبائح، وما يحل من الطعام والشراب واللباس وما لا يحل. ورغم دخول هذه الأحكام في باب العبادات إلا أن الإسلام لم يحرم إلا ما يسيء إلى الإنسان والبيئة، وجعل الأصل في الأشياء الإباحة. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

لذلك فكل ما يسيء بطبيعته إلى صحة الإنسان من الأطعمة هو حرام بلا جدال، لأن الإسلام يمنع دائماً أي شيء يضر بالإنسان. وإذا كان الإسلام قد حرم الخمر بآيات من القرآن الكريم، فقد ثبت ضرره على صحة الإنسان خاصة الكبد. وقاس علماء المسلمين عليها المخدرات، وهي اجتهادات لها قيمتها في الوقت الحاضر الذي تثار فيه ما يستنبط من الأغذية والمشروبات من مضار، وتقلب وتركيز الدهون في بعض أنواع الجبن، وشراب الكولا ومشقاتها.

تلوث الهواء

المكون الثاني المهم للبيئة، هو مكون الهواء. وهو من العوامل الأساسية التي جعلها الله سبحانه وتعالى ضرورة لحياة الإنسان، إذ فيه الأكسوجين الذي يستنشقه ويدير دورته الدموية. وإذا لم يكن الهواء الذي يستنشقه الإنسان نقيا، فإنه يضره ضرراً بالغاً، ويؤثر على دورة حياته.

وللأسف أدى التقدم الصناعي إلى تلوث الهواء، إلى جانب تلوث الماء والتربة. ولاشك أن أخطر أنواع تلوث الهواء، هو ذلك التلوث الناتج عن الإشعاعات الذرية، وكذلك التلوث الناتج عن اتساع ثقب الأوزون، الذي نتج عن الاستخدامات السيئة لغازات معينة يستخدمها الإنسان.

وإذا كانت أحكام القانون الدولي غير حاسمة في منع جميع أنواع تلوث الهواء حتى الآن، إلا أن الشريعة الإسلامية تمنع هذا التلوث تماما، لسببين:

الأول: أنه إفساد في الأرض، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عنه، حيث يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

والثاني: الضرر المحقق عن هذا التلوث كما أوضحنا.

وقد استخدم الفقه الإسلامي هذه الوسائل لمنع تلوث الهواء، وتوجد كتابات في الفقه المالكي عن منع التلوث الذي ينتج من دخان الأفران إذا كان قريبا من الناس وتأذوا به، كما كان المحتسب يراقب مصادر الأدخنة التي تؤذي الناس ويقوم بمنعها^(١).

تلوث التربة

تعد التربة أحد العناصر الأساسية للبيئة، وقد قام الإنسان بتلويثها بشكل كبير. ومن صور الإساءة للبيئة التي يقوم بها الإنسان الآن، قطع أشجار الغابات وحرق الخشائش، ومن هنا فإن الكساء الخضري الطبيعي ينقرض ويتلاشى بالتدريج وتحمل محله نباتات مزروعة. ذلك إلى جانب وضع المبيدات الحشرية والكيماوية في الأرض، ونزول

(١) راجع مؤلف د. بركات محمد بركات عن الإسلام والبيئة - طبع دار القاهرة عام ٢٠٠٣م ص ٦٤ وما بعدها، وراجع محمد عبد القادر الفقي، حماية البيئة من التلوث ص ٢١ القاهرة ١٩٩٥م.

الأمطار الحمضية، وكل هذا يسيء للتربة، وينقل الأمراض للإنسان. وكل ما يسيء إلى التربة وإلى الإنسان يعد ضررا ممنوعا وفقا لقاعدة " لا ضرر ولا ضرار".

حق الإنسان في بيئة صحية مناسبة وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية:

وكما انتهينا إلى وجود حق للإنسان في البيئة الصحية في أحكام القانونين الدولي والداخلي، نجد هذا الحق واضحا تماما في الشريعة الإسلامية، للأسباب الآتية:

أولاً: أن الشريعة الإسلامية لا تعارض الإصلاح الذي يمكن أن تقود إليه أية قوانين لأنها تقوم على المصلحة، وحيث وجدت تلك المصلحة، فتم شرع الله.

" والمسلمون لا يقبلون أن ينظر إليهم على أنهم دوما في الصف المعارض للإعلانات والاتفاقات الدولية الهادفة إلى تحقيق العدل والسلام في العالم، بل يرون أن ينظر إليهم على أنهم يهدفون إلى إثراء العطاء الإنساني بالمزيد من البحث والدراسة، والاستماع إلى مختلف وجهات النظر، وتوزيع العطاء الإنساني بين بنى البشر، ونشر صحة البيئة والإنسان، والابتعاد عن الظلم والفقر واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وتلك هي احتياجات الفرد في دنياه. يقول رسولنا صلى الله عليه وسلم: " من بات آمنا في سربه، معافا في بدنه عنده قوت يومه، فكأنما خيرت له الدنيا فأخذ برها " (١).

ثانياً: أن لدى الفقه الإسلامي قدرة فائقة على الاجتهاد باستخدام مصادر وأدلة علم الأصول، وهي تمكن الفقهاء من إيجاد الحكم الشرعي لكل الحالات المستجدة باللجوء إلى: القرآن والسنة والإجماع، ثم استخدام القياس وتحكيم المصلحة والاستصحاب وسد الذرائع. وكذا استخدام قواعد الفقه الكلية كقاعدة " لا ضرر ولا ضرار" وهي تستند إلى حديث لرسولنا صلى الله عليه وسلم. وهي قاعدة تمنع كل صور الإضرار بالبيئة كما رأينا.

ثالثاً: أن الحق يستند إلى مصلحة مؤكدة، وهي ضرورة أن يعيش الإنسان في بيئة

(١) نقلا عن مقال د. عبد الله بن صالح العبيد في افتتاح ندوة حقوق الإنسان في الإسلام التي عقدت في روما عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، راجع كتاب الندوة ص ٢٨.

صحية، وهذه الضرورة تساندها نصوص القرآن والسنة كما أسلفنا، والحماية الشرعية للمصلحة تقوم على أن أحكام الشريعة ملزمة ويكفل الإمام تنفيذها بكافة الطرق. كما أن عليه مجازاة كل من يعتدى على المصلحة، إما بتطبيق الحدود إن تعلق الأمر بارتكاب حد توافرت شروطه، ومثال ذلك يمكن أن يؤدي التسرب الإشعاعي إلى تلوث المياه عمداً، فهو السم المؤدى إلى الوفاة، فيجب إقامة الحد. ولكن يطبق الشرع التعزيز في الحالات الأخرى.

وابعاً: الشريعة الإسلامية مليئة بقواعد وأحكام تحمي البيئة من التلوث كما ذكرنا، وهي ترجع إلى حق للإنسان الذي يعيش فيها في أن يستمتع ببيئة صحية.

خامساً: أن الشريعة الإسلامية تقر ضرورة التعاون والتضامن بين كل من يعيش في هذا الكون لتحقيق سلامته وأمنه وحماية بني الإنسان، وتعين الرؤية الإسلامية التي يقدرها النص القرآني: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وتمثل الرسول، صلى الله عليه وسلم، الكون بسفينة في البحر لا يمكن أن يترك أحد للعبث بها لأنه بذلك يعرض سلامة كل ركايبها للخطر.

الخلاصة:

أوضحت هذه الدراسة أن الحق في بيئة صحية مناسبة صار من حقوق الإنسان، وبالذات من الجيل الثالث منها وهي المعروفة بحقوق التضامن. وكما نرى من اسمها أنها حقوق جماعية لا يمكن توفيرها إلا بالتعاون بين المجتمع الدولي لكفالتها لكل الشعوب والأفراد.

وأوضحنا أن هذا الحق يعنى ضرورة أن يعيش الإنسان في بيئة صحية سليمة تجعله يستطيع التفكير السليم، والقيام بالعمل المنتج، والتمتع بالحياة.

وأوضحنا أن الإنسان قد أساء إلى البيئة في عناصرها المختلفة: الأرض والماء والهواء، ولا زال يقوم بالعديد من الأفعال التي تؤدي إلى تلويثها.

وقد بينا أساس الالتزام القانوني بالحفاظ على البيئة ومنع الإساءة إليها في القانون الدولي وفي الشريعة الإسلامية.

وانتهينا إلى ضرورة اتخاذ التدابير من قبل الشعوب والدول الإسلامية للتوفيق بين مقتضيات التطورات العلمية الحديثة وما تفرضه من قيود، وضرورات السهر على تطبيق مبدأ تمتع الإنسان ببيئة صحية مناسبة، ويكون ذلك بالتعاون بين الدول والشعوب الإسلامية أولاً، ثم مع المجتمع الدولي بكامله بعد ذلك.

إن تحديات العصر - كما ظهر من هذا البحث - تفترض أن تقوم شعوبنا بواجبات عديدة لمسايرة العصر، ولإشباع الحاجات الأساسية لها من مصادرها وبجهود أفرادها، ولا مناص من التعاون الدولي، ليس من منطلق فرض القوة والأخذ فقط، وإنما من منطلق تبادل المصالح والأخذ والعطاء.

وبالرغم من أن القانون الدولي قد وضع التزامات على عاتق الدول تقوم بها بالتعاون والتضامن، إلا أن الواقع لا يساير القانون دائماً، لذا سيظل حق الإنسان في الحياة الكريمة وفي البيئة الصحية المناسبة تكتنفه الصعاب وسيحتاج إلى جهود متواصلة لكي يتم تطبيقه فعلاً.

والله ولي التوفيق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..



المفهوم الإسلامى للبيئة وتلوثها

بقلم: أ.د. / على إبراهيم الزيات (*)

مقدمة

تعرف البيئة بأنها الوسط أو المجال المكانى الذى يعيش فيه الإنسان بما يتضمن من ظاهرات طبيعية وبشرية، يتأثر بها ويؤثر فيها، ويحصل منه على مقومات الحياة من غذاء وكساء ودواء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بنى البشر وغير البشر، ويرى أحد علماء البيئة البارزين أن البيئة هي: مجموعة من الظروف والمواد والتفاعلات التى تجتمع فى الحيز الذى توجد فيه الحياة.

الظروف: تشمل أحوال المناخ من الحرارة والرطوبة والضوء والأحوال الكونية كالجاذبية الأرضية.

المواد: تشمل الأرض وما يتصل بها من مكونات الصخور والمياه الجارية فى الأنهار، والتى تملأ البحار، ومنتجات الحياة من الأوراق والأخشاب والثمار والفراء واللحم وغيرها.

التفاعلات: بعضها فيزيقى كالتحويلات الكيميائية وبعضها حيوى يتصل بنمو الكائنات الحية، ومدى هذه التفاعلات قد يكون محلياً بين الكائن الفرد وما حوله، وقد يكون واسع المدى كدورات المياه، وحركة الرياح، كذلك قد يكون الحيز الذى ننظر إليه محدوداً، وقد يتسع ليشمل المحيط الحيوى جميعاً، أى الحيز الذى توجد فيه الحياة. وينظر إلى البيئة على أنها نظام وظيفى يعمل بشكل متكامل وعبر علاقات متبادلة بين مكوناته العضوية وغير العضوية، وللنظام البيئى مدخلات نقل وتخزين ومخرجات من الطاقة والمواد الأساسية تعمل فى الظروف الطبيعية وعندما يضطرب النظام البيئى بفعل الإنسان فإنه يميل فى البداية إلى إعادة تنظيم ذاته، فمن خلال عملية التعاقب مثلاً يتجه

(*) نائب رئيس جامعة قناة السويس لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة.

الغطاء النباتى إلى تكوين مجتمع نباتى مستقر ثابت، وذلك تبعاً للطاقة المتدفقة، وتشير ظروف الثبات فى النظم البيئية إلى التوازن الديناميكي بين المدخلات من الطاقة والمادة وبين المخرجات منها، وفى ضوء التعريف السابق يمكن النظر إلى البيئة على أنها تتكون من نظامين أساسيين هما: البيئة الطبيعية والبيئة الحضارية.

١- البيئة الطبيعية

ويقصد بها الأرض والماء والهواء والكائنات الحية النباتية والحيوانية بما فى ذلك العمليات الطبيعية والمختلفة الناتجة عن تفاعل عناصر النظام الطبيعى للإنسان.

٢- البيئة الحضارية

ويقصد بها النظام الذى أوجده الإنسان فى الوسط الطبيعى مثل النظم الحضارية والريفية بما فى ذلك المباني، والشوارع، والمصانع، والزراعة، والتكنولوجيا، والمؤسسات الاجتماعية، والاقتصادية والتنموية، وغيرها من الأنشطة التى تهدف إلى إشباع حاجات الإنسان المعيشية ورغباته، وكذلك وسائل معالجته للمشكلات الناجمة من خلال علاقاته مع الوسط الطبيعى، ومدى استجابته وتوافقه مع تلك المشكلات. لقد تغلقت التكنولوجيا وتطورت فى النسيج الاجتماعى للناس وفى حياتهم اليومية حتى أصبح من المستحيل فى الصناعة والزراعة يجب أن نستنبط وسائل تكنولوجيا جديدة أو نظور التى بين أيدينا كأنما المجتمعات الحديثة قد أصبحت مدمنة تكنولوجيا، والدواء الوحيد هو المزيد من التكنولوجيا.

وبدو بعض الوسائل التكنولوجية فى أول الأمر عظيمة النفع، بريئة عن الضرر، ومع تطور المعارف العلمية والتكنولوجية تبين أن لها أضراراً جسيمة خفيت علينا مثل اختراع مركبات الكلوروفلوروكربون، واكتشافنا بعد ذلك تفاعلها مع طبقة الأوزون.

سادت فى الزمن الحديث فكرة الحلول التكنولوجية لسائر المشكلات الصناعية والبيئية والاجتماعية، لكن التجربة أظهرت أنها تتصل بالتفاعلات بين الإنسان والطبيعة والتكنولوجيا، وأن الحلول المؤقتة قد تكون بالوسائل التكنولوجية، لكن الحلول الدائمة

والحاسمة تكون فى تصويب التفاعلات بين النظم الثلاثة وذلك أن الحلول الاجتماعية المتصلة بالسلوك الإنسانى والقبول الاجتماعى أقرب إلى الدوام.

ولقد حث الإسلام على طلب العلم واستخدامه فى الحياة العملية، فقد قال الله -تعالى-: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

فبدأ بالعلم وثنى بالعلم، ورأس العلم مخافة الله -تعالى- وتوحيده، فقد قال جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. ولقد دعا الإسلام إلى تكوين العقلية العلمية التى تقوم على الأسس التالية:

* ألا تقبل دعوى بغير دليل ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

* رفض الظن ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

* رفض العواطف والإهراء والاعتبارات الشخصية، وقد قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [التقصص: ٥٠].

* الثورة على الجمود والتقليد والتبعية الفكرية للآخرين، حيث ذكر سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَفْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

* الاهتمام بالنظر والتفكير والتأمل ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الاعراف: ١٨٥]. وفى الإنسان نفسه فهو عالم وحده ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الدَّارِيَات: ٢١]، وفى سير التاريخ البشرى ومصاير الأمم وستن الله فى الاجتماع الإنسانى ﴿فَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. وحث النبى ﷺ على اقتباس كل علم نافع، والخروج فى طلب العلم، وعن أنس رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع» (رواه الترمذى).

ومن نافلة القول أننا حينما ننقل التكنولوجيا، لابد أن نطوعها لخدمة واقعا المحلي وأن نقلل من أضرارها على البيئة بقدر الإمكان، وأن نراعى الأوضاع الديموجرافية والاقتصادية والاجتماعية لبيئتنا.

تكشف الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة لكل شيء حتى ولو كان في حركة دائبة، فبدون الاتزان يفقد الوجود توازنه وتصبح الأرض غير الأرض والسموات غير السماوات وتبتد الماديات.

إن كل ما في الكون.. البيئة الكبرى.. خلقه الله في حالة متوازنة، اتزان في الحركة، في الحرارة، في الجاذبية وقواها، في المغناطيسية وتأثيراتها، في المجالات الكهربائية، في كميات الماء الموجود في البحار، في الأرض ككل، تزان في حركتي الموت والحياة، اتزان عند المخلوقات على الأرض، حتى لا يسود نوع على نوع.. وصدق الله العظيم إذ يقول في كتابه: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القر: ٤٩].

وإذا أخذنا مثالا بوضوح مدى إتقان صنعة الله في التوازن بين الحيوانات والنباتات والحشرات والطيور لوجدنا أنها تعيش في توازن عددي بين بعضها والبعض الآخر، لكن عندما تصرف الإنسان بمنطق أنه السيد الوحيد لهذا الكون ومالكة وليس مستعيراً له، وأسرف في استخدام المبيدات الحشرية أدى إلى فقدان التوازن الطبيعي القائم بين الحيوانات والنباتات والحشرات، وأدى ذلك إلى زيادة كبيرة وغير متوقعة في بعض أنواع الآفات، ومن أمثلة ذلك انتشار العنكبوت الأحمر ودودة اللوز في مصر، في أعقاب استخدام بعض المبيدات الحشرية بإسراف، ولم تكن هذه الآفات مصدر خطر للنباتات فيما مضى، ولكن قتل المبيدات لأعدائها الطبيعيين ترك له حرية التكاثر، وأطلق لزيادتها العنان، كما أدى الإسراف في استخدام المبيدات الحشرية للقضاء تقريباً على الحدأة المصرية التي أصبحت نادرة الوجود في الريف المصري، كما أثر على الغراب وأبي قردان والشعلب والنمس والذئب، وأصبحت هذه الحيوانات مهددة بالانقراض، كما أدى استعمال مركب الـ(د.د.ت) في مصر إلى ظهور المن والعنكبوت

الأحمر بكثرة على الذرة، نتيجة للخلل الذي أحدثه هذا المبيد في التوازن الطبيعي بين الآفات.

تتفاعل النظم الحضارية بأقسامها الفرعية مع النظم الفرعية للبيئة الطبيعية عبر سلسلة أو شبكة معقدة من تدفقات المادة والطاقة، وترتب على التفاعل المستمر نتائج إيجابية وسلبية، أو ما يعرف باسم الأخطار البيئية التي يسعى الإنسان جاهداً إلى الاستجابة والتوافق معها واتخاذ قرارات بيئية بشأنها.

وإذا لم يتدخل الإنسان في عناصر النظام البيئي الطبيعي نجده يتسم بالاستقرار والتوازن، حيث يؤثر كل كائن حي داخل النظام البيئي في حياة الكائنات الأخرى، ويتأثر بها، وإذا لم تتعرض هذه الكائنات الحية لعوامل جديدة أو طارئة على النظام البيئي، فإنها تقيم فيما بينها توازناً طبيعياً بيولوجياً يحتفظ خلاله كل نوع بتوزيع عددي ثابت تقريباً، إذ يحد من التزايد اللانهائي لأفراد أي نوع من الكائنات في النظام البيئي أو طغيانه وتفوقه على غيره من الأنواع عوامل متعددة منها: وجود أعداء طبيعيين أو منافسة على الغذاء المحدود، أو نقص الموارد أو المساحة المتاحة لتكاثره وانتشاره، فعلى سبيل المثال إذا تمت تربية زوج واحد من الذباب على القمامة في شهر مارس حتى شهر سبتمبر فإن نسل هذا الزوج ١٩١ بليون ذبابة، كل ذبابة يمكنها أن تحمل ٦ ملايين ميكروب وتنقل للإنسان ٤٢ مرضاً.

ويمكن القول إن عناصر النظام البيئي الطبيعي تتضمن عمليات متشابكة و مترابطة تتميز بالعديد من المسارات والتي تؤدي إلى تغيير معدلات نمو الجماعات الحية، وتصل بها إلى حالة مستقرة من التوازن في إطار النظام ككل.

لكن الإنسان لم يترك النظم البيئية ثابتة، بل استغلها بطريقة غير عقلانية، فنجده على سبيل المثال تفاعل بنظمه التكنولوجي مع النظام البيئي، مع النظام الاقتصادي لرغبته في زيادة رقعة الأراضي الزراعية، مع النظام الاجتماعية لرغبته في توفير فرص

عمل للزيادة السكانية ورفع مستوى معيشتها، مع النظام السياسى الذى حاول كسر الاحتكارات العالمية وتحدى النظم الاستعمارية مثال إقامة سد على نهر النيل وهو السد العالى بما له من نتائج إيجابية وسلبية.

وكما حقق الإنسان نتائج إيجابية من مشروع بناء السد العالى عليه أن يضع خطأ للقضاء على سلبياته والتخفيف من حدتها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن التفاعلات بين النظم البيئية ليست بسهولة المنظومة المروضة فى الأمثلة السابقة، بل تتداخل وتتشابك عناصرها فى علاقات معقدة لدرجة أن أصبحت النظم البيئية وما يدور فيها وكيف تتغير بمرور الزمن موضوع تحد للعلماء، والواقع أنه تحد كبير حيث أن ما يتم فى الطبيعة على جانب كبير من التعقيد، ذلك أن النظام البيئى الحياتى يتكون من مئات الأنواع من الكائنات الحية، يتأثر كل منها بمكونات النظام البيئى وعناصره، وغيره من الكائنات الحية الأخرى، علاوة على ذلك يتغير عدد ونوع الكائنات الحية، وتتغير بعض المكونات الطبيعية للبيئة يومياً وموسمياً، مثل درجة الحرارة ورطوبة التربة، وغيرها، لذلك فإن معالجة المشكلات البيئية تتطلب وضع برامج وبحوث متطورة تقوم على توفير معلومات متكاملة وصحيحة.

ويرتبط التوصل إلى حلول للمشكلات البيئية تتبع جذورها وأقسامها الفرعية والعلاقات المتشابكة والمتداخلة فيما بينها، وإلى أن تسير الحلول المقترحة لأنظمة البيئة الطبيعية جنباً إلى جنب مع الحلول المقترحة لأنظمة البيئة الحضارية.

وتحدث عملية إنتاج الغذاء الكافى للمجتمع الإنسانى المتنامى عدة تأثيرات على ديناميات النظم البيئية، وتراوح هذه التأثيرات بين الإبادة شبه الكاملة للعديد من الأسماك فى المناطق عن طريق الصيد الجائر Overharvesting إلى نشر المركبات الكيماوية السامة من أجل القضاء على الآفات الزراعية إلى استنزاف الموارد المائية السطحية والجوفية من أجل الاستخدام الزراعى، وتتفاوت بشدة الفترة الزمنية التى

يمكن فيها إنتاج محاصيل مجانياً من التربة حيث لا توجد حاجة لإضافة أى عناصر غذائية للتربة، وسواء كانت هذه الفترة طويلة أو قصيرة إلا أن المستودع الغذائي الطبيعي الموجود فى التربة سوف يستنزف، وخاصة تحت ظروف الزراعة المكثفة، وهنا يحتاج الأمر لإضافة الأسمدة للتربة لتعويض ما فقده النظام الزراعى. وتخل الأسمدة النيتروجينية بالتوازن بين عمليتي إزالة النيتروجين Denitrification وتثبيتته Nitrogen Fixation مسببة إطلاق المزيد من N_2 إلى الجو، وتجد مقادير كبيرة من النيتروجين الموجود فى الأسمدة الصناعية طريقها فى النهاية إلى النظم البيئية المائية، إما عن طريق الرشح من التربة فى صورة نترات تصل إلى المياه الجوفية، أو عن طريق المياه السطحية، ولدى وصولها إلى النظم البيئية المائية فإن العناصر الغذائية الزائدة تحفز نمو الطحالب، مما قد يؤدي إلى اختناق المناطق الضحلة بالطحالب والأعشاب Choked-Weed، ويجعل حركة الزوارق أو صيد الأسماك أمراً مستحيلاً، ويؤدي الازدهار الكبير للطحالب إلى زيادة إنتاج الأكسجين أثناء النهار، وانخفاض نسبته أثناء الليل نتيجة لتنفس كل هذه الطحالب، وموت الطحالب وتراكم المواد العضوية على قاع البحيرة، تستخدم الكائنات المحللة كل الأكسجين الموجود فى المياه العميقة وتؤدي كل هذه المؤثرات إلى استحالة الحياة لبعض الكائنات الحية.

يتج البشر كميات هائلة ومتنوعة من المواد الكيميائية السامة تتضمن الآلاف من المخلفات الصناعية التى لم تكن معروفة فى الطبيعة من قبل، وقد وجدت هذه المواد طريقها إلى النظم البيئية دون الاهتمام بما يمكن أن ينجم من عواقب بيئية، وكثير من هذه السموم لا يمكن تحللها بواسطة الكائنات الدقيقة، وبالتالي يمكنها البقاء فى البيئة لمدة سنوات طويلة وربما لعشرات السنين. وفى حالات أخرى قد تتحول المخلفات إلى مواد سامة عند تفاعلها مع مواد أخرى أو عن طريق أيض الكائنات الدقيقة، فالزئبق على سبيل المثال، وهو ناتج ثانوى لصناعة البلاستيك، كان يتم التخلص منه بانتظام فى الأنهار والبحار فى صورة غير قابلة للذوبان فى الماء، إلا أن بعض أنواع البكتيريا التى

تعيش فى طمى القاع أمكنها تحويل مركبات الزئبق إلى ميشيل الزئبق، وهو مادة شديدة السمية قابلة للذوبان فى الماء، ويمكنها بعد ذلك أن تتراكم فى أنسجة الكائنات الحية بما فيها الإنسان، الذى يستهلك الأسماك التى كانت تعيش فى هذه المياه الملوثة. ومن الأمثلة على إحدى فئات المركبات المخلفة صناعياً ولها القدرة على التراكم فى الأنسجة الهيدروكربونات الكلوريدية المستخدمة كمبيدات حشرية مثل الـ DDT والكيمائيات الصناعية المعروفة بـ (Polychlorinated Biphenols) PCB.

تلوث الهواء

أولاً: النظام الجوي

يحيط بالكرة الأرضية غلاف جوى أو ما يسمى بالهواء، يتكون أساساً من غاز النيتروجين والأكسجين، ويمتد هذا الغلاف الجوى إلى عدة مئات من الكيلو مترات فوق سطح الأرض، وتقل كثافته بالارتفاع إلى درجة كبيرة، ويتكون الغلاف الجوى من ثلاث طبقات رئيسية تتداخل في بعضها، وهى: التروبوسفير (حتى ١٢ كم من سطح الأرض)، والستراتوسفير (١٢-٨٠ كم)، والأيونوسفير (٨٠-٣٦٠ كم).

وصدق الله العظيم إذ يقول فى كتابه: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

يتكون الهواء فى طبقاته السفلى الدقيقة (الأترية والرذاذ) من ٧٨٪ غاز النيتروجين، و ٢١٪ أكسجين، وحوالى ٠٩ ٪ غاز أرجون، والبقية من غازات شحيحة مثل غاز ثانى أكسيد الكربون والنيون والهيليوم والهيدروجين والميثان وغيرها، إضافة إلى هذا يحتوى الهواء على نسب مختلفة من بخار الماء، نتيجة للتبخر من السطوح المائية ومن التربة ومن النباتات، كما تتعلق فى الهواء كميات هائلة من الغبار (الأترية) التى توجد بصورة مرئية للعين، ويختلف وجودها من منطقة إلى أخرى، فتزداد بالقرب من المناطق الصحراوية بخاصة فى مواسم معينة مثل الخماسين، كم أن الغبار فى الطبقات السفلى من الهواء أكثر مما فى الطبقات العليا.

وقد احتفظ الهواء المحيط بالكرة الأرضية بتركيبه ثابتة بالرغم من الأنشطة الحيوية التى تجرى على سطح الأرض، فالإنسان وكذلك الحيوان يستهلك الأكسجين بعملياته الحيوية، ويعطى ثانى أكسيد الكربون، ولكن النبات يستعمل ثانى أكسيد الكربون فى عمليات التمثيل أو البناء الضوئى، فيحتفظ بالكربون لنفسه، ويعيد إلى الهواء غاز

الأكسجين، فإذا زادت نسبة ثاني أكسيد الكربون في الهواء فإن الفائض يذوب فيها، ومن ثم يترسب كربونات كالسيوم (التي تكون الأحجار الجيرية) هذه التفاعلات الطبيعية التي تعرف بالدورات الجيوكيميائية، أدت إلى وجود حالة من التوازن احتفظ معها الهواء بتركيبه ثابتة على مر الزمان ومن هنا فإن الله - سبحانه وتعالى - يدعونا إلى التفكي في معجزة خلق السموات والأرض، وإعمال العقل في هذا الإعجاز وذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨].

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

لكن منذ أن عرف الإنسان النار واستخدام مصادر الطاقة المختلفة ومع الثروة الصناعية بدأت الكيمايات الهائلة من الغازات والمواد المختلفة تنبعث في الهواء محدثة خللاً متزايداً في التوازن الطبيعي الذي أوجده الله. وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿[الفرقان: ٢].﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿[الرعد: ٨].﴾

وإذا أخذنا الهواء الذي تكون منه النظام الجوي كما سبق القول فإننا نجد أن غاز النيتروجين (الأزوت) بنسبة ٧٨,٠٧٪ وهو غاز خامل لا يساعد على الاشتعال، وغير قابل للذوبان في الماء، وهو أحد عناصر الغذاء للنباتات، أما الأكسجين فنسبة ٢٠,٩٥٪، وهو غاز نشط قابل للاشتعال، وقابل للذوبان في الماء من أجل توفير الأكسجين اللازم للأحياء المائية، والذي يتجدد من خلال الحركة الانتقالية التبادلية بين الهواء والماء، والتي لولاها لنفد الأكسجين من الماء، وهلكت تلك الأحياء المائية، أما النسبة الباقية والتي تمثل حوالي ٢٪ فيمثلها عدد كبير من الغازات، والهيدروجين بنسبة ٠,٠١٪ وغيرها من الغازات مثل أول أكسيد الكربون، وثاني أكسيد الكربون، واليليوم، والميثان، والنيون، والزينون، والأوزون، دقة متناهية في نسب الغازات، وقد

أثبتت الأبحاث العلمية أنه لو كانت نسبة النيتروجين أقل من هذه النسبة التى حُلق بها وحدث أن سقطت شرارة كهربائية من الفضاء الخارجى نحو الأرض لاحترق كل شيء على سطح الأرض، إذ أن النيتروجين بهذه النسبة المقدره تقديراً بالغ الدقة يتمكن من أن يضبط طبيعة الأكسجين وهو الغاز القابل للاشتعال، ويحوّله إلى غاز يساعد فقط على الاشتعال، ولكنه لا يشتعل فى حضور هذه النسبة من النيتروجين، والغاية من ذلك أن يظل الأكسجين قائماً فى تركيبة الهواء؛ ليؤدى وظيفته الأساسية فى توفير فرص إعالة الحياة الحيوانية على سطح الأرض، وإذا ما أخذنا مثلاً ثانى أكسيد الكربون بخصائصه ونسبته ٠٣, ٠٪ التى خلقه الله بها نجد أن هذا الغاز يتركز معظمه فى طبقة التروبوسفير، وقد أودع الله فيه خاصية امتصاص الموجات الحرارية الأرضية (الأشعة تحت الحمراء) وإشعاعها فى الغلاف الجوى، مما أعطى هذا الغلاف درجة حرارة مناسبة تسمح بوجود الحياة، ومن هذا المنطلق، فإن الإخلال بنسبة هذا الغاز زيادة أو نقصاً يعنى حدوث تغير فى درجة حرارة الغلاف الجوى مما ينعكس سلباً وبالضرورة على مظاهر الحياة، وهذا هو سر القلق الذى يتتاب البشرية نتيجة للزيادة المطردة فى نسبة غاز ثانى أكسيد الكربون وغيره من الغازات الدفينة (الميثان، الكلوروفلوروكربون، والكربون)، وما يصاحب هذه الزيادة من ارتفاع فى درجة حرارة الغلاف الجوى، وما ينجم عن ذلك من مخاطر كثيرة فى مقدمتها انصهار كميات كبيرة من الثلوج فى المناطق القطبية الشمالى والجنوبى، مما يؤدى إلى ارتفاع مياه البحر والمحيطات السائلة، فيرتفع منسوبها وما ينجم عن ذلك من احتمال تعرض مدن ساحلية للغرق، وحيث تبين إحصائيات صندوق الأمم المتحدة للسكان أن نحو ١٦٪ من سكان مصر و ١٠٪ من سكان بنجلاديش سوف يتحولون إلى لاجئين بيئيين، هذا فضلاً عن اضطراب الدورة المائية، وزيادة فرص تكاثر الحشرات والآفات النباتية وغيرها، مما دعا العالم إلى عقد المؤتمرات واتخاذ القرارات والآليات الكفيلة بضبط تزايد ثانى أكسيد الكربون، وقد تم التوقيع على اتفاقية المناخ العالمى فى مؤتمر قمة الأرض (البيئة والتنمية)، الذى عقد فى ريو دى جانيرو بالبرازيل فى يونيو

١٩٩٢م؛ لضمان استقرار بقاء ثاني أكسيد الكربون عند مستوياته المقبولة بيئياً، ومن هنا يحق لنا أن نتساءل: هل يتصور وجود حياة على سطح الأرض بتركيبه أخرى للهواء غير التركيب التي خلقه الله بها؟.. سبحانك ربى ما خلقت هذا باطلاً..

ثانياً: تلوث الهواء

يقصد بتلوث الهواء كل تغير كمي أو كيفي يطرأ على الصفات الفيزيائية أو الكيميائية للهواء بحيث ينتج عنه آثار ضارة على الإنسان وعلى البيئة بأنظمتها المختلفة، والمواد الطبيعية وإمكانية الانتفاع بها، ويقصد بالتغير الكمي الإخلال بالنسب الطبيعية المكونة للهواء، أما التغير الكيفي فيعنى إضافة مواد جديدة فى المواد الطبيعية المكونة للهواء.

وملوثات الهواء قد تكون غازات وأبخرة، ومن أهمها: ثاني أكسيد الكربون، وكبريتيد الهيدروجين، وأكاسيد الكربون، وأكاسيد النيتروجين، والأمونيا، والهيدروكربونات، والهالوجينات (الكلوروفلور)... إلخ. وقد تكون الملوثات جسيمات صلبة مثل الغبار والسناج والأدخنة والضباب والرذاذ.

تفاعل الإنسان بنظامه التكنولوجي ممثلاً فى الآلات والمركبات الصناعية التي اخترعها الإنسان كل عام، وتفاعل مع غيرها من المواد الخام مع النظام البيئي الطبيعي ممثلاً فى استخراج الحديد والنحاس والبترو... إلخ، كذلك بنظامه الاقتصادي الذي يقوم ويهتم بشكل كبير بالصناعة مع نظامه الاجتماعي، حيث أنشأ آلاف المصانع لرفع مستوى معيشة السكان، وتحسين نوعية حياتهم مع نظامه السياسي بالسعي نحو عقد اتفاقيات تجارية لاستيراد المواد الخام، وإيجاد أسواق لتصريف منتجاته الصناعية حيث نتج عن حركة التصنيع العديد من الغازات التي تفاعلت وولوث النظام الجوى، فأدى ذلك إلى مشكلة تلوث الهواء.

وتنتج الملوثات من مصادر طبيعية كالعواصف، والرياح، والبراكين، وحرائق

الغابات، ، ورذاذ البخار والمحيطات، أو من مصادر ملوثات النشاطات البشرية المختلفة وهذه أكثر خطورة مثل: الصناعة، ووسائل المواصلات، ومحطات القوى، والنشاطات المنزلية، وحرق القمامة، والتدخين، وأيضاً المصادر الإشعاعية وما يتبع عنها من تطاير الذرات (الجسيمات) المشعة، وأيضاً التلوث بالميكروبات والكائنات الحية الدقيقة والفطريات وجوب اللقاح.

ثالثاً: التنقية الذاتية للهواء الجوى

لهواء قدرة على التنقية الذاتية من كميات لا بأس بها من الشوائب والملوثات التى تصل إليه من المصادر المختلفة، وتعتمد عوامل التنقية الذاتية على طوبوغرافية المكان والعوامل الجوية المختلفة، مثل: سرعة الرياح واتجاهاتها، والدوامات الهوائية، وتيارات الحمل، وكمية الأمطار أو الثلوج المتساقطة، وكذلك على وجود طبقات من الهواء الساخن نسبياً بين طبقات الجو العليا الباردة، وتسمى بالانعكاس الحرارى، وتحدد هذه العوامل انتشار الملوثات وتوزيعها على مساحات أكبر، وتخفيفها، والوقت الذى تظل فيه محمولة فى الهواء، وبالتالي فهى تحدد درجة تركيز الملوثات فى الهواء.

رابعاً: استراتيجية حماية الهواء على المستوى العالمى

تتضمن استراتيجية حماية الهواء على المستوى العالمى ما يلى:

* التشجير وذلك بزراعة أكبر عدد ممكن من الأشجار خاصة فى المدن، مع محاولة الإبقاء على الغابات القائمة، والبحث عن أشجار سريعة النمو، وتستطيع امتصاص ثانى أكسيد الكربون بمقادير قياسية، وإجراء التجارب فى الهندسة الوراثية من أجل تطوير الأشجار الجديدة.

* الرصد المنتظم والمستمر للغلاف الجوى ولتنظيم البيئة المتأثرة، وتشخيص المشكلات.

* استبدال مصادر الطاقة التقليدية بمصادر أخرى للطاقة أقل تلويثاً للهواء.

* الاستعانة بالتكنولوجيا للتحكم في الملوثات الناتجة عن الصناعة وعن السيارات وغيرها من مصادر التلوث.

* تقويم وسائل التحكم في الملوثات بصفة مستمرة.

* الاستفادة من التكنولوجيا الحيوية لحماية الهواء.

* التخطيط الصناعي والعمراني الصحيح.

* التدريب والتوعية في مجال حماية الهواء الجوي.

وقد أوضحت عمليات رصد الهواء الجوي في المدن الكبرى في العالم

الحقائق التالية:

١- تحسنت نوعية الهواء في معظم مدن الدول المتقدمة خلال العقد الماضيين؛ لانخفاض متوسط تركيز ثاني أكسيد الكبريت والجسيمات العالقة في الهواء، نتيجة لتنفيذ عدة إجراءات مثل الإجراءات التشريعية، وتنوع مصادر الطاقة، ورفع كفاءة استخدامها، واستخدام تكنولوجيات مختلفة للحد من انبعاث الملوثات، وتعتبر مدن طوكيو وفرانكفورت ولندن من المدن التي تحسنت فيها حالة الهواء.

٢- انخفاض متوسط تركيز الرصاص في الهواء في معظم مدن أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية واليابان وأستراليا نتيجة منع أو الحد من استخدام البنزين المحتوي على الرصاص. وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية رائدة في هذا المجال، ففي الفترة من ١٩٧٦-١٩٨٧م انخفض محتوى الرصاص في عادم السيارات بنسبة ٨٧٪، ولقد تحققت نتائج متشابهة في بعض دول غرب أوروبا مؤخراً.

٣- ازدادت حدة تلوث الهواء في معظم الدول النامية منذ بداية السبعينات، نتيجة لزيادة استخدام الوقود، ونتيجة لعدم اتخاذ الإجراءات المناسبة للحد من هذا التلوث.

٤- ويقدر أن يوجد أكثر من ١٠٠٠ مليون شخص في المناطق الحضرية يتعرضون

لمستويات غير صحية من ملوثات الهواء، حوالى ٩٠٪ منهم فى الدول النامية. وتعتبر بكين ومدينة المكسيك، وسيول، والقاهرة، وبانجوك، وبومباى، وكرانشى، وجاكارتا ومانيلا من أكثر المناطق الحضرية تلوثاً فى العالم طبقاً لمسح حالة الهواء فيها عام ١٩٩٠، ولقد تفاقمت حالة تلوث الهواء فى مدن الدول النامية نتيجة عدم الاتفاق على مكافحة التلوث، فمازالت بعض الحكومات تعتبر هذا الاتفاق نوعاً من الرفاهية والخدمات لا يتحمله اقتصادها، وهذا منطوق بجانبه الصواب، فالإنفاق على حماية الهواء هو استثمار له عائد اقتصادى واجتماعى مهم.

وقد تتضمن خطة العمل البيئى فى مجال حماية الهواء الإجراءات التالية:

* التخلص المرحلى من دعم الطاقة، مما يؤدي إلى خفض معدل زيادة الاستهلاك فى الطاقة.

* فرض ضرائب على البنزين وذلك بهدف تشجيع خفض استخدام الطاقة والانبعاثات الملوثة للهواء المرتبطة بها.

* خفض محتوى البنزين من الرصاص.

* إنقاص انبعاثات المركبات وذلك بأنه يجب أن تجتاز المركبات اختبار معايير الانبعاث المطلوبة، وكذلك تحسين مستوى سياسات إدارة المرور على المدى الوسيط بما يسهل حركة المركبات.

* اتباع سياسات إضافية لتقليل انبعاث الغازات السامة من المركبات، والكفاءة العالية فى استخدام الوقود وتلك المجهزة بالمحولات الحافزة.

* خلق وعى عام بتكاليف تلوث الهواء وذلك من خلال تطوير وتحديث قاعدة المعلومات عن طبيعة وأبعاد وامتداد تلوث الهواء وتكاليفه، مع توزيع مثل هذه المعلومات بانتظام على صانعى وواضعى السياسات والملوثين، والمؤسسات التعليمية والمجموعات الأخرى، وكذلك الأفراد المهتمين بتلوث الهواء، ونظراً إلى انبعاث

ملوثات الهواء، والضوضاء أيضاً، تعتمد إلى حد بعيد على صيانة المركبة، وسلوك السائق، فقد شرع في تقديم حوافز لتشجيع الفحص المنتظم للمركبات، وتنظيم حملات تثقيفية للسائقين.

خامساً: موقف الإسلام من مشكلة الهواء

ينظر الإسلام إلى التلوث على أنه صورة من صور الإفساد والضرر والتبديل، فحماية الهواء من الملوثات من وجهة النظر الإسلامية يعد فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وقد نهت الآيات القرآنية عن الإفساد، وجرمته، ونهت إلى سوء عاقبة المفسدين. وصدق الله العظيم حيث يقول في كتابه الكريم: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥] ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:]، ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

واعتبر علماء المسلمين الدخان بكل أنواعه مضرًا، وقد جاء وصفه في القرآن الكريم بأنه عذاب أليم وذلك في قوله الحق عز وجل: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ١٠] يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠-١١].

وتذوب الملوثات الغازية الموجودة في الهواء أثناء سقوطها من السماء في مياه الأمطار مثل أكاسيد النيتروجين وأكاسيد الكبريت، وذرات التراب، ومن المسلم به أن ماء المطر يكون نقيًا عند بدء تكوينه حيث يقول ربنا سبحانه تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

سادساً: مشكلة ثقب الأوزون

يعد وجود غاز الأوزون في طبقة الأستراتوسفير درعًا للحياة، يحمي الأرض من الأشعة فوق البنفسجية التي ترسلها الشمس، والتي لو وصلت إلى الأرض لقتلت الكائنات الحية وجميع المخلوقات، ويقوم غاز الأوزون بامتصاص تلك الأشعة ويحول دون تدفقها إلى سطح الأرض، ولا يصل إليها إلا قدر ضئيل؛ ليساعد على تكوين فيتامين (د) في أجسامنا.

سابعاً: أثر تراكم المخلفات الصلبة في إحداث تلوث الهواء

إن تراكم المخلفات الصلبة خاصة لفترة طويلة يعد أهم أسباب تلوث الهواء، نظراً لما تبعته من روائح ونمو للميكروبات التي تضر بصحة الإنسان، وتتصاعد كميات كبيرة من الغازات مثل:

* غاز الميثان؛ والذي ينتج من التحلل اللاهوائي للمواد العضوية ببعض أنواع من البكتيريا، ويقدر الباحثون كمية غاز الميثان الناتجة من تحلل المخلفات الصلبة بحوالي ٦, ١ مليون طن سنوياً.

* غاز ثاني أكسيد الكبريت؛ ويعتبر أحد الغازات التي تنتج عند بداية عملية تحلل المخلفات الصلبة، كما ينتج عند حرق المخلفات الصلبة، وتقدر كمية الغازات الناتجة من حرق طن واحد من القمامة بحوالي ٣٠٠٠-٦٠٠٠ متر مكعب من الغازات التي تختلف في محتواها حسب محتوى القمامة من المواد العضوية وغير العضوية. ومن المعروف أن غاز الميثان وثنائي أكسيد الكبريت من أهم الغازات التي تسبب ظاهرة الاحتباس الحراري.

* غاز أول أكسيد الكبريت؛ ويتصاعد نتيجة حرق المخلفات الصلبة وهو من الغازات السامة.

* أكاسيد النيتروجين؛ وهي من الغازات التي تنتج من حرق وتحلل المواد العضوية الموجودة في المخلفات الصلبة. وتقدر كمية ثاني أكسيد النيتروجين الناتج من المخلفات الصلبة بحوالي ٨٧ مليون طن سنوياً.

* أكاسيد الكبريت؛ وتنتج من عمليات حرق القمامة وتحللها، وتقدر كمية ثاني أكسيد الكبريت التي تنتج من المخلفات الصلبة بحوالي ٧, ١ مليون طن سنوياً، وهذه الكمية تساهم بطريق مباشر أو غير مباشر في إحداث ظاهرة الأمطار الحمضية.

* غازات أخرى؛ من غازات الفلوروكلوروكربون، والتي تنتج مما يتبقى من عبوات

الإيروسولات التي تلقى في القمامة، وغازات الفلوروكلوروكربون تحدث مع غيرها بعض من الغازات تأثيراً كبيراً على تداخل طبقة الأوزون.
آثار تلوث الهواء بالمخلفات الصلبة

يحدث تلوث الهواء الناشئ عن المخلفات الصلبة بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه ما يلي:

- ١- يصبح الهواء مصدراً لنقل الأمراض وانتشار العدوى، نتيجة لتكاثر الحشرات والحيوانات الناقلة للأمراض.
- ٢- زيادة أمراض الحساسية وأمراض العيون خاصة عند حرق المخلفات.
- ٣- انخفاض مدى الرؤية نتيجة لتصاعد الدخان الناتج من حرق المخلفات، مما يترتب عليه زيادة نسبة وقوع الحوادث.
- ٤- الإضرار بالمباني والممتلكات، ونقص قيمتها نتيجة لترسب الأبخرة والأتربة الناتجة من حرق المخلفات وتحللها، وبالتالي زيادة تكاليف إصلاحها وتنظيفها.
- ٥- انبعاث الروائح الكريهة وسوف يؤثر ذلك على الكفاءة الإنتاجية للمواطنين.
- ٦- كما يمكن تقدير النفقات التي يسببها تلوث الهواء الناتج من المخلفات الصلبة على الصحة العامة بحوالى ٦, ٩ مليون دولار تقريباً.

تلوث الماء

أولاً: الماء في القرآن الكريم

ويشتمل على الماء في حالاته الثلاثة: الغازية، والسائلة، والصلبة، سواء كان موجوداً في الهواء أو على سطح الأرض، ولقد ذُكر الماء في القرآن في ثلاثة وستين موضعاً تتدرج تحت التصنيفات التالية:

الماء أول الموجودات

يقول الله -تعالى- في محكم كتابه: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [مرد: ٧].

وعن رسول الله ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء» (أخرجه الترمذي).

الماء تعتمد عليه كل الكائنات

يقول الله -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

أثبتت الأبحاث أن جسم الإنسان يحتوي على ٧٠٪ من مكوناته من الماء، فإذا تناقصت هذه النسبة، تعرضت أجزاءه للمرض، فإذا وصلت نسبة الفقد إلى ٢٠٪ تعرض للموت، وأصل الإنسان من ماء، وصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

الماء سبب إنبات كل شيء

حيث يقول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]. ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

الماء مصدر تنوع الحياة النباتية على الأرض

حيث يقول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ

شراب ومنه شجر فيه تسمون، ينبت به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴿[النحل].

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها﴾ [فاطر].

الماء مصدر الرزق

حيث يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

الماء مصدر للشرب

حيث يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

الماء مصدر للاستغاثة لتذكر الله - سبحانه وتعالى - ، وسبب التكاثر والخلود، ووسيلة للانتقال، ومصدر للغذاء، وبشارة خير ورحمة وطهارة وبركة، وحياة للناس، ومذهب للخفايا والذنوب، والناس في حاجة إلى تخزين الماء على مدار العام في آبار وعيون، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦].

الماء سبب الهلاك

حيث يقول ربنا الكريم: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عَيْنُونًا فَأَلْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ﴾ [القمر: ١١-١٢]. ﴿وَأَتْرَكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

الماء مصدر للتعذيب يوم القيامة

قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿مَنْ وَرَّأتهِ جَهَنَّمَ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦]. ﴿وَسَقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

ثانياً: تلوث الماء والآثار الناتجة

يُقدر الحجم الكلى للماء بحوالى ١٣٦٠ مليار متر مكعب، ٩٧٪ من هذا الحجم موجود فى البحار والمحيطات، بينما تمثل المياه العذبة ٣٪ الباقى توزيعها كالتى: ١٪ ماء عذب، ومن الماء العذب حوالى ٩٠٪ مياه جوفية، والباقى مياه سطحية فى الأنهار والبحيرات.

يمثل وجود الماء على هيئة جليد جزءاً هاماً من التوازن البيئى، وهو ضرورى لحياة الإنسان على سطح الأرض، بحيث لو ذاب الجليد أو عمل الإنسان على إذابته لفرقت الجزر والسواحل.

وتتجدد مصادر المياه العذبة باستمرار بفعل الأمطار، ولا يتكافأ توزيع المياه مع توزيع السكان فى العالم، حيث يتفاوت توزيع المياه تفاوتاً كبيراً فى العالم وينسب مختلفة، فالبرازيل بها ١٨٪، روسيا ١٣٪، الصين ٥٩٪، الولايات المتحدة ٨٪، بينما لا يتجاوز إيراد نهر النيل الذى يغطى احتياجات عشر دول ٣٪ فقط، وفى الوقت الحاضر لا تستطيع دول عديدة تأمين احتياجاتها وكفايتها من المياه العذبة وعلى رأسهم معظم دول العالم الإسلامى، ويعبر القرآن الكريم عن هذه المشكلة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مُّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

تفاعل الإنسان بأنظمتة الحضارية ممثلة فى نظامه الثقافى + نظامه الاجتماعى + نظامه الاقتصادى ونظامه التكنولوجى ونظامه السياسى ونظامه الحيوى مع النظام الطبيعى ممثلاً فى النظام الأرضى + النظام المائى، فألقى بمخلفاته الإنسانىة والنباتية والحيوانية والمعدنية والصناعية والكيميائية ممثلة فى (الأحماض، القلويات، الأصباغ ومركباته الهيدروكربونية، الأملاح، الدهون، الدم، مياه المجارى، النفط، المبيدات الحشرية، بلاستيك، الرصاص، الزئبق، الكاديوم، وغيرها من الملوثات) فى المياه، فأدى ذلك إلى تلوثها، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل إن مياه الأمطار وبصفة خاصة فى المناطق الصناعية حيث تودى إلى تساقط الأمطار الحمضية.

تعتبر مشكلة تلوث مياه الأنهار والبحيرات من المشاكل المحلية والإقليمية؛ نظراً لأن الأنهار عادة ما تمر في العديد من الدول، ولقد ظهرت هذه المشكلة نتيجة نمو المدن، وتزايد عدد السكان، وبناء المصانع المختلفة بها، وبروز مشكلة تصريف الفضلات الضارة، ويمكن حصر مصادر تلوث مياه الأنهار والبحيرات فيما يلي:

- ١- تسرب المخلفات الزراعية والقمامة والحيوانات الميتة إلى مياه الأنهار.
- ٢- إلقاء مياه الصرف الصحي في مياه الأنهار، مما يفسد المياه ويجعلها بيئة غير مناسبة لحياة كائنات حية عديدة.
- ٣- إلقاء مخلفات المصانع القائمة على ضفتي النهر، فضلاً عن التلوث الحراري الناتج من إلقاء هذه المخلفات مذابة في مياه ساخنة حيث يقل الأكسجين.
- ٤- تسرف مياه الصرف الزراعي المحملة بالمبيدات الحشرية وبقايا الأسمدة الكيماوية.
- ٥- استخدام المبيدات الكيماوية في مقاومة الأعشاب والقواقع، وبعض الحشرات كالبعوض، فضلاً عن استخدام بعض الصيادين للمواد السامة في صيد الأسماك.
- ٦- نمو بعض النباتات المائية في النهر مثل نبات ورد النيل (ياست الماء) الذي ينمو في نهر النيل.

وقد أدى تلوث مياه الأنهار والبحيرات إلى:

- ١- انتشار الأمراض وخاصة أمراض الجهاز الهضمي، نظراً لاستخدام مياه النهر في الشرب والزراعة؛ وذلك بسبب تزايد احتمال وجود الجراثيم المسببة لأمراض الكوليرا والتيفود والدوسنتاريا وغيرها.
- ٢- انتشار الطفيليات: كديدان البلهارسيا، والإنكلستوما نتيجة التلوث البيولوجي لمياه المجارى.
- ٣- هلاك أنواع من الهائمات النباتية والحيوانية (البلانكتون) بسبب التلوث الحراري بالمياه الساخنة للمصانع مما يضر بالسلاسل الغذائية.

٤- انتقال بعض المركبات السامة فى جسم بعض الحيوانات المائية كالأسماك، مما يسبب التسمم للإنسان إذا تغذى عليها.

٥- تناقص الأكسجين الذائب فى الماء بسبب نشاط البكتيريا المحللة للمخلفات الزراعية، والحيوانات الميتة، والقمامة، والأعشاب النهرية الميتة، مما يؤدى إلى موت كثير من الأسماك فى النهار.

ويمكن التحكم فى تلوث مياه الأنهار والبحيرات عن طريق اتباع الآتى:

١- عدم إلقاء مخلفات المصانع فى مياه الأنهار.

٢- استخدام طرق المقاومة البيولوجية والميكانيكية واليدوية للأفات الزراعية بدلاً من استخدام المبيدات الكيماوية.

٣- الاهتمام بإنشاء شبكات الصرف الصحى حسب المواصفات المناسبة، ومعالجة مياه المجارى تجنباً للتلوث.

٤- عدم إلقاء القمامة والفضلات وجثث الحيوانات فى مياه الأنهار.

٥- التنقية الذاتية للأنهار حيث يقوم النهر بعمليات تنقية ذاتية للتخلص من بعض الملوثات، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى علينا.. وأهم هذه العوامل التى تؤثر فى التنقية الذاتية للنهر ما يلى:

• **التهوية:** حيث يتم تبادل الغازات بين الهواء والماء بواسطة الرياح والدوامات والشلالات، وفيما يمتص الماء الأكسجين ويتخلص من ثانى أكسيد الكربون وكبريت الهيدروجين وغيرها.

• **الضوء:** ينشط الضوء عملية البناء الضوئى فى النبات، مما يعمل على زيادة الأكسجين فى الماء، والتخلص من ثانى أكسيد الكربون، فضلاً عن التأثير القاتل للضوء على معظم الميكروبات.

● **الجاذبية الأرضية:** وتساعد على ترسيب المواد العالقة بالماء، ويزداد الترسيب في المياه الهادئة.

● **عمليات الأكسدة والاختزال:** حيث تتأكسد بعض المواد العضوية بفعل الميكروبات الهوائية، وتتحول إلى مواد غير عضوية، وتساعد الأكسدة على ترسيب المواد الذائبة كأملح الحديد والمنجنيز، أما عمليات الاختزال فتتم في قاع الأنهار بفعل البكتيريا اللاهوائية، وعندما تتحول المواد العضوية لا هوائياً ينتج عنها مواد كريهة.

● **العوامل البيولوجية:** حيث تساهم الكائنات الحية المائية في عمليات التنقية الذاتية، فعند مرور الضوء في الماء تنمو الطحالب، وتستهلك ثاني أكسيد الكربون وأملاح التترات والأمونيا، وتنتج كميات وفيرة من الأكسجين، مما يساعد على نمو الحيوانات المائية الكبيرة كالأسماك التي تستهلك المواد الغذائية الموجودة في النهر.

وينتج عن تلوث الماء النتائج عن إلقاء المخلفات الصلبة ما يلي:

١- إصابة الإنسان بأمراض متعددة مثل الأمراض المعوية، الكوليرا، الدوسنتاريا، الالتهاب الكبدي الوبائي (أ)، بالإضافة إلى إصابة الإنسان ببعض الطفيليات مثل: البلهارسيا، الإسكارس، والدودة الشريطية، وغيرها، كما قد يصاب الإنسان بالتسمم.

٢- الإخلال بالنظم البيئية المائية حيث يؤثر التلوث على نمو الهائمات النباتية والحيوانية والتي لها دور مهم في البيئة، حيث تعتبر الهائمات النباتية مصدراً مهماً لإنتاج الإكسجين اللازم للكائنات الحية، وبالتالي يقل إنتاج الأكسجين، كما أن الهائمات الحيوانية الصغيرة توفر الغذاء للأسماك وغيرها، وبالتالي يقل هذا الغذاء.

- ٣- موت الأسماك والطيور والحيوانات البحرية أو ضعف سلالتها.
- ٤- تشجيع تكاثر القواقع التي تعمل كعامل وسيط لكثير من الطفيليات.
- ٥- التشويه الجمالى والذى يؤدي إلى تهديد السياحة التي هي من مصادر الدخل المهمة.

ثالثاً: المياه الجوفية وتلوثها

تشكل المياه الجوفية حوالي ٢٤٪ من إجمالي المياه العذبة، وما يقرب من ٦٪ من حجم المياه الموجودة على الكرة الأرضية، وبهذا تكون المياه الجوفية أكبر مستودع للمياه العذبة على الأرض، ويقول الله - سبحانه وتعالى - ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء﴾ [البقرة].

وتنشأ المياه الجوفية من مصادر متعددة أهمها:

- * مياه الأمطار.
 - * مياه الأنهار والبحيرات.
 - * المياه التي تخزن في الصخور الرسوبية أثناء عملية ترسيبها.
 - * المياه الجوفية الناتجة عن النشاط البركاني.
 - * مياه البحار والمحيطات نتيجة تسربها إلى خزان المياه الجوفى.
- وتعتبر المياه الجوفية المورد الوحيد للمياه فى الكثير من بلدان العالم الصحراوية، والتي تفتقر إلى الأنهار، مثل السعودية، ومعظم دول الخليج العربى، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب. ورغم أن مياه الآبار والينابيع أقل أنواع المياه تلوثاً لمرور المياه السطحية بعدة طبقات تعمل كمرشحات للجراثيم والميكروبات، إلا أن المياه الجوفية يمكن أن تتلوث إذا كانت بجوار مصادر التلوث الأخرى كخزانات الصرف الصحى، خاصة المياه الجوفية القريبة من سطح الأرض، كما يمكن أن تكون المياه الجوفية من نوع الماء

العسر نتيجة لتسرب كميات من الأملاح المعدنية إليها مثل الكالسيوم والمغنيسيوم، وهذا يؤثر على مدى استخدام المياه في الأغراض المختلفة، كما يؤثر تلوث المياه الجوفية بمياه الصرف الصحي في انتشار الأمراض الطفيلية، ويمكن التحكم في تلوث المياه الجوفية بدق المضخات على أبعاد مناسبة من خزانات الصرف الصحي، أو مصادر التلوث الأخرى، كما يجب تحليل الماء الخارج من الآبار لمعرفة نسبة الأملاح به والامتناع عن استخدامها إذا كانت نسبة الأملاح عالية.

رابعاً: نقص موارد الماء العذب.. الأسباب وأساليب العلاج

نظراً لأن الماء عصب الحياة وأن الإنسان يعتمد على الماء العذب لأغراض الزراعة والصناعة، والاستخدامات المنزلية، فإن من الضروري دراسة مشكلة نقص موارد الماء العذب، خاصة أن المياه العذبة تشكل نسبة ضئيلة من إجمالي المياه في العالم، ولقد كان الماء يكفي حاجة الناس، ولكن مع ظاهرة الانفجار السكاني والنبات النسبي للكميات المتاحة من الماء العذب ظهرت مشكلة القصور وعدم التوازن بين المتاح من الماء العذب وحاجة الإنسان وغيره من الكائنات الحية، مما زاد من حدة المشكلة أنه امتدت يد التلوث إلى الماء العذب المتاح، فأصبح هذا الماء ملوث غير صالح للاستخدام؛ ولذلك اتجه الإنسان إلى البحث عن أساليب علاج مشكلة نقص موارد الماء العذب.

ومن المتوقع أن تكون مشكلة نقص المياه العذبة سبباً من الأسباب الرئيسية لقيام الحروب في المستقبل القريب، وتوضح التقارير أن استهلاك المياه في العالم قد بلغ ١٣٦٠ كيلومتر مكعب عام ١٩٩٠م، ومن المتوقع أن يبلغ الاستهلاك ٥١٩٠ كيلومتر مكعب عام ٢٠٠٠م، ونستهلك الزراعة ٦٩٪ متوسط عالمي من المياه، تليها الصناعة ٢٣٪، ثم الاستخدامات المنزلية ٨٪، ويرى الكثيرون أن العالم مقبل على مشكلة نقص المياه في القرن الحادي والعشرين، ومن هنا كانت توصيات مؤتمر المياه الذي عُقد في شهر مارس ١٩٩٨م في باريس، والتي تنادى بإنشاء وكالات متخصصة لحماية أحواض المياه، مثل حوض النيل وحوض الفرات.. إلخ، لتطرح حلولاً دبلوماسية هادئة

تستأصل جذور الصراع حول المياه، وتحولها إلى عنصر جاذب لدول الحوض، وتوحد جهودها من أجل احترام حصصها وحمايتها من التلوث، ومن الأسباب الرئيسية لنقص الماء العذب ما يلي:

١- زيادة الطلب على الماء العذب.

٢- سوء إدارة مصادر المياه.

٣- سوء استخدام الماء العذب.

ومن الأساليب المقترحة لعلاج مشكلة نقص موارد الماء العذب ما يلي:

قرشيد استهلاك المياه العذبة المتاحة بما يلي:

١- الإدارة الجيدة لمصادر الماء العذب، وذلك بالتعاون بين الدول المشتركة فى حوض النيل

مثلاً للمحافظة على المياه العذبة التى تضيع فى أعالى النيل وعلى امتداد مجراه.

٢- رفع كفاءة وصيانة وتطوير شبكات نقل وتوزيع الماء.

٣- ترشيد استخدام الماء العذب فى الاستهلاك اليومى.

٤- رفع كفاءة استخدام المياه فى الري، بتطوير نظم ري المزروعات وذلك باستخدام

أساليب الري الحديثة كالري بالرش والري بالتنقيط، والري بالنشع، حيث توفر

هذه الأساليب كميات كبيرة من الماء تقدر بحوالى ٧٥٪ عن الري بالغمر المستخدم

حتى الآن فى مصر.

٥- المحافظة على مصادر الماء العذب من التلوث مما يؤدى إلى توفير كميات كبيرة

من الماء.

خامساً: ندرة وتلوث المياه العذبة وموقف الإسلام منها

• تلوث مصادر الماء العذب

يحدث تلوث الماء العذب نتيجة الصرف الصحى فى الأنهار والبحيرات العذبة،

بالإضافة إلى مصادر التلوث الأخرى التي سبق ذكرها، مما يجعل الماء العذب في الأنهار والبحيرات الملوثة غير صالح للاستخدام الأدمى.

إن المحافظة على الماء هي أساس المحافظة على الحياة بجميع أشكالها، وقد نهى الإسلام عن تلويث الماء بقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «غَطُوا الْإِنَاءَ، السَّقَاءَ فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ لَا يَمُرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ غَطَاءٌ، أَوْ سَقَاءَ لَيْسَ عَلَيْهِ وَكَاءٌ، إِلَّا نَزَلَ ذَلِكَ الْوَبَاءُ» (رواه مسلم)، وفي قوله ﷺ: «أَوْكُثُوا السَّقَاءَ» أى: اربطوا فوهات السقاء (ما يشرب منه) وذلك لحماية الماء من الملوثات التي قد تنتقل إليه من الهواء أو من الوسائيل الناقلة للجراثيم والطفيليات كالصراصير والقران والنمل والبعوض.

وعن جابر رضى الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يبولن أحدكم فى الماء الراكد ثم يفتسل فيه» (رواه مسلم)، كما نهى الرسول ﷺ «أن يسال فى الماء الجارى» رواه الطبرانى بإسناد حسن. وقال ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز فى الماء، وفى الظل، وفى طريق الناس». ويؤدى البراز فى الماء إلى تلوث الماء بالطفيليات والروائح الكريهة، ككما يؤدى إلى استهلاك الأكسجين الذائب فى الماء، مما يؤثر على الكائنات التي تعيش فيه كالأسماك وخلافها، كما يؤدى التبول فى الماء إلى نقل أمراض عديدة منها: البلهارسيا، ومن ثم فما أدى إلى حرام فهو حرام. كما إن منع الضرر قبل حدوثه أولى من معالجته بعد حدوثه. إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وقد قال رسول الله ﷺ: «الناس شركاء فى ثلاثة: الماء والكلاء والنار»، فالماء حق للجميع، كما نهى القرآن عن الإسراف فى استهلاك المياه حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف].

تمخر السفن عبر البحار حيث تقوم بتفريغ محتويات صهاريجها فى مياه البحار أو إلقاء مخلفات الصناعة البترولية والبتروكيماوية فى المسطحات المائية للبيئة البحرية أو

إشعال الحروب، وتسريب مياه النفط عمداً في المياه أو تدبير إشعال النيران في آبار البترول بالطبع كل هذه التصرفات غير العقلانية لها الآثار السيئة على تلوث البيئة البحرية حالياً ومستقبلاً.

يؤدي التلوث النفطي إلى تدمير البيئة البحرية، فهو يشكل طبقة تعلو سطح المياه وتمنع وصول الأكسجين وثنائي أكسيد الكربون إلى الماء، مما يؤدي إلى توقف عمليات التمثيل الضوئي، الذي تقوم به النباتات المائية، وهو عملية ضرورية لتزويد البحر بالأكسجين ولتنقية ثاني أكسيد الكربون، كما تقوم البقع النفطية بعزل حرارة الشمس من الوصول إلى الأعماق، ويؤثر ذلك في الثروة المرجانية والإسفنج، كما يحتوى النفط على مكونات سامة تؤدي إلى قتل الأسماك والمحار واللافقريات والرخويات والقشريات وقتل البلاتكتونات، وبدون هذه العوائق تستحيل الحياة البحرية حيث تتغذى عليها غالبية الأسماك والحيوانات البحرية.

تؤدي بقع الزيت إلى تقليل نسبة التبخر بنسبة ٦٠٪، ومن المعروف أن البحار والمحيطات تؤمن نسبة ٩٠٪ من بخار الماء الموجود في الجو، كما تسبب بقع النفط في سخونة سطح الماء، مما يؤثر على سرعة نمو الأحياء المائية من نباتات وحيوانات، مما يؤدي إلى اختلال التوازن البيئي؛ كما يؤثر على الطيور البحرية إضافة إلى تهديد معامل تحلية المياه مما يؤدي إلى تغيير مذاق الماء المقطر.

تلوث التربة

١- مساحة الأرض الزراعية والنظام الأرضي.

٢- مشكلة تلوث الأرض والتربة.

٣- عوامل تلوث التربة.

أولاً: النظام الأرضي

يعرف النظام الأرضي على أنه القشرة العليا من سطح الأرض (طبقة السيل) التي يعيش عليها الإنسان ويتفاعل مع عناصرها، ولا يتجاوز عمق القشرة التي يهتم بها الإنسان عن بضعة أمتار أو مئات الأمتار، وتوجد بها كافة المعادن باستثناء بعض الآبار الإرتوائية التي يصل عمقها إلى ثمانية كيلومترات وكذلك آبار النفط وبعض المناجم.

إن الخالق عظمت قدرته حينما هيا الأرض لسكنى الإنسان، وجعلها مناسبة وملائمة لحياته، فأثبت له الشجر والزرع، وأجرى له الأنهار، وسخر له الليل والنهار، والشمس والقمر، وزوده بنعمة العقل، وجعل الطبيعة فى خدمته. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَاتٍ أَلْفَافًا ﴿النبا: ٦-١٦﴾.

وخالق الأرض هو الله حيث قال فى كتابه الكريم: ﴿مَا أَشْهَدُتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

والله خالق الإنسان من تراب، من طين، من حمأ مسنون. من صلصال كالفخار، ثم نفخ فيه من روحه، فأصل الإنسان ومقومات حياته من الأرض، من الطين، هذه القشرة الأرضية الخصبة هى التى تعطى كل مقومات الحياة التى نعيشها، ولقد حلل

العلماء جسد الإنسان فوجدوه مكوناً من ١٦ عنصراً، إذ أن عناصر الطين المخصب هي نفس عناصر جسم الإنسان.

ولقد أمر الله - سبحانه وتعالى - بعدم الإفساد في الأرض، حيث قال في كتابه الكريم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [محمد ٢٢]. ﴿وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

ثانياً: مشكلة تلوث الأرض والتربة

كل ما يلوث الهواء والماء يلوث التربة، ولقد تفاعل الإنسان بأنظمته الثقافية وأنظمته الاجتماعية + أنظمته السياسية ونظامه التكنولوجي ونظامه الاقتصادي مع النظام البيئي الطبيعي ممثلاً في التربة، فألقت فيها نفاياته، وزاد من استعمال المبيدات الحشرية ومزيلات الأعشاب، وأفرط في استخدام الأسمدة الكيماوية، وألقى فيها فضلاته من المعادن الثقيلة كل ذلك أدى إلى تلوث التربة، وانتقل التلوث عبر السلاسل الغذائية إلى جسم الإنسان، فأدى هذا إلى إصابته بكثير من الأمراض منها السرطان، والفشل الكلوي والأمراض العصبية، وقد نهى القرآن عن جميع صور الفساد في الأرض لقوله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وقد ذكر كثير من المفسرين أن من بين صور الإفساد: قطع الأشجار، والتلوث البيئي بشتى أنواعه حيث يؤدي إلى إزهاق الأرواح، كما نهى رسول الله ﷺ عن التسبب في وقوع الضرر وإحاقه بالآخرين، فقال في حديثه الشريف: «لا ضرر ولا ضرار»، وقوله ﷺ: «من ضار أضر الله به» (رواه ابن ماجه وأبو داود).

ويقصد بتلوث التربة إضافة أو إدخال مواد غريبة فيها تؤدي عند وصولها لتركيز ما إلى حدوث تغير في خواصها الفيزيائية أو الكيماوية أو الحيوية (البيولوجية) مصحوباً بتأثير ضار على كل ما هو موجود في التربة.

ثالثاً: عوامل تلوث التربة

(أ) العوامل الطبيعية

١- البراكين. ٢- الزلازل. ٣- المجراف التربة بالمياه والرياح.

(ب) العوامل البشرية

١- تلوث التربة بالمبيدات الحشرية

تفاعل الإنسان بنظامه التكنولوجي ممثلاً في اختراع المبيدات مع نظامه الحيوى متمثلاً في الحشرات التى تصيب النباتات، مع نظامه الاقتصادى ورغبته فى زيادة الإنتاج مع النظام الأرضى وغيره من الأنظمة الفرعية الأخرى، فزاد من استخدام المبيدات للقضاء على الحشرات والآفات فلوث البيئة.

يؤدى التلوث بالمبيدات إلى تلوث التربة وحدوث آثار جانبية على صحة الإنسان والحيوان، وقتل (المحللات) الكائنات الدقيقة الموجودة بالتربة وانخفاض إنتاجها، كما يؤدى إلى نفوق الطيور البرية وإبادة الغابات الخضراء كما فعلت الولايات المتحدة فى حرب فيتنام، كما تسبب المبيدات الإصابة بالعديد من الأمراض الخطيرة مثل السرطان والأمراض الجلدية، وحدوث اضطرابات فى وظائف الكبد.

ولقد استخدم الإنسان بإسراف فى النصف الثانى من القرن العشرين المواد الكيميائية فى كل الميادين، وتعتبر المبيدات المستخدمة فى مكافحة الآفات من أخطر هذه المواد وأكثرها انتشاراً، وتنوع أشكالها، ولكن أغلبها يتسبب إلى مجموعة المركبات العضوية المحتوية على الهالوجين، ذات الأثر الفعال فى القضاء على العديد من الفطريات والأعشاب والحشائش والحشرات، والقوارض التى تصيب النباتات والمزروعات على اختلاف أنواعها.

ويحدث تلوث التربة بالمبيدات عند استخدامها فى معاملة المزروعات المصابة،

ويعتبر هذا تلوثاً غير مباشر للتربة، وهناك تلوث مباشر عندما تستخدم المبيدات في معالجة التربة نفسها (تمزج مع جزيئات التربة أثناء عملية الحرث والتقليب) عندما تكون الآفات موجودة فيها.

وتشير الإحصائيات إلى أن عدد أنواع المبيدات التي تم استخدامها تجارياً على مستوى العالم هو ٤٥٠ مبيداً معظمها تم استخدامها في الدول النامية.

وأظهرت الدراسات أن أكثر من نصف كميات المبيدات المستخدمة تظل بالتربة إلى أجيال طويلة فتزيد من مشكلة تلوث التربة.

بعض المبيدات يتعرض للتلف بفعل عوامل المناخ، مثل الأكسدة والحرارة، أو بفعل الأحياء الدقيقة الموجودة في التربة، فتحللها وتحولها إلى مركبات أخرى أقل ضرراً، في حين أن بعضها الآخر يقاوم ذلك ويمكن أن يستمر تأثيره السام في التربة لعدة سنوات، فقد وجد أن مبيد (د.د.ت) قدرته عالية على البقاء في التربة لمدة تصل إلى عشرين عاماً.

كما أن جزءاً من هذه المبيدات تجرفه مياه الأمطار ومياه الري وتحمله إلى المياه الجوفية وإلى الأنهار والبحيرات، وبذلك تصل للإنسان عن طريق الشرب أو غير ذلك.

لقد أظهرت نتائج الدراسات الحديثة أن للمبيدات آثاراً ضارة عديدة منها:

* إن الكثير من المبيدات الكيميائية أو نواتج هدمها يمكن أن تحدث أوراماً سرطانية في الجسم إذا زادت تركيزاتها في أنسجة الجسم، أو تعرض لها الإنسان لفترة زمنية طويلة.

* تؤدي معظم المبيدات إلى تشوه الأجنة وإحداث طفرات وراثية (صفات جديدة) غير مرغوب فيها.

* إن ألبان و لحوم الحيوانات والطيور والبيض والأسماك تحتوي على تركيزات من بقايا المبيدات، وأن هذه البقايا تسبب أضراراً خطيرة للإنسان.

* إن ألبان الأمهات وأنسجة ومخ وكلى ودهن وكبد الأطفال حديثى الولادة فى معظم دول العالم تحتوى على آثار من المبيدات مما يهدد البشرية والأجيال القادمة.

* وجود بقايا من المبيدات فى مياه الأمطار فى دول تستعمل هذه المبيدات، مما يؤكد انتقال المبيدات من دولة إلى أخرى ومن قارة إلى قارة؛ ولذا فالتعاون بين جميع الدول أصبح ضرورة لحماية البيئة.

* بالنسبة للكائنات الدقيقة النافعة التى تعيش بالتربة فإن المبيدات تهلك بعضها بينما يمكن بعضها الآخر أن يتحمل مستويات أعلى من هذه المبيدات، وتحللها تقلل من فاعليتها، وعادة ما توجد هذه الكائنات فى حالة اتزان مع بعضها؛ ولذا فإن المبيدات تحدث خللاً فى هذا الاتزان.

* تسبب المبيدات اختفاء الطيور صديقة الفلاح منها أبو قردان والهدهد، وغيرها من الطيور التى تنظف التربة من الصراصير والحفار والحشرات التى تفسد المزروعات، ويؤدى ذلك إلى خلل فى التوازن البيئى.

* تبين أن مبيد (د.د.ت) يتدخل فى العمليات الكيميائية المؤدية إلى تكوين عناصر الكالسيوم فى أجسام الطيور، ويؤدى ذلك إلى وضع هذه الطيور لبيض رقيق القشرة لا يتحمل الصدمات وقد يتهشم هذا البيض فى بعض الأحيان تحت ثقل جسم أنثى الطائر عندما تحتضنه لتدفثته مما ينتج منه موت الأجنة، وتعرض هذه الطيور للانقراض مثل النسر الأمريكى والصقر وغيرهما، ويتلخص موقف الإسلام من قضية التلوث بالمبيدات فى أن الشريعة الإسلامية تحرم القيام بأى إفساد أو عمل يؤدى إلى هلاك الحرث والنسل. قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف: ٨٥]. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة: ٦٠]. وقد اتجه العلم حديثاً إلى استخدام المقاومات البيولوجية للحشرات التى لا تهدف إلى إزالة نوع معين من الحشرات إزالة كاملة، بل جعله يصل إلى مستوى عددى تصبح معه الأضرار التى يحدثها غير ذات بال على الصعيد الاقتصادى.

٢- تلوث التربة بالخصبات الزراعية

استخدم الإنسان منذ القدم الأسمدة العضوية التي تشتمل على المخلفات الحيوانية وبقايا النبات، والتي تصبح جزءاً من الطبقة السطحية نتيجة التحلل بفعل الكائنات الدقيقة الموجودة في التربة، وتتكون عناصر قابلة للذوبان في الماء، فيسهل امتصاصها والاستفادة منها.

وبسبب تناقص نصيب الفرد من الأراضي الزراعية، وزيادة عدد السكان المستمر، ونظراً لاتباع أسلوب الزراعة المكثفة في العقود الأخيرة من القرن العشرين فقد أصبح هناك استنزاف مستمر للعناصر الغذائية الموجودة في التربة، ولتزايد الطلب على المواد الغذائية دفع كل ذلك كثيراً من المزارعين إلى استخدام أنواع مختلفة من المخصبات الزراعية، مثل مركبات النترات والفوسفات، لزيادة خصوبة التربة المتاحة لهم، وزيادة إنتاجها من المحاصيل الرئيسية التي يعتمد عليها الإنسان في حياته.

والجزء الذي يزيد على حاجات النباتات من هذه المخصبات يسبب كثيراً من الأضرار للبيئة المحيطة بهذه التربة، حيث يذوب في مياه الري ويصل إلى المياه الجوفية في باطن الأرض، ويرفع بذلك نسبة كل من مركبات الفوسفات والنترات في هذه المياه، كما تحملها مياه الأمطار إلى المجارى المائية مثل الأنهار والبحيرات.

ولقد أوضحت نتائج الدراسات أن أيون النيتريت (No_2) يؤثر في الدم مباشرة، فيغير من طبيعته إلى حادما ويمنعه من القيام بوظيفته الرئيسية الخاصة بنقل الأكسجين من الرئتين إلى جميع خلايا الجسم، ويطلق على هذه الحالة التي يفقد فيها هيموجلوبين الدم قدرته الطبيعية على امتصاص غاز الأكسجين ونقله إلى خلايا الجسم حالة تسمم الدم، وهي حالة خطيرة يمتنع فيها وصول الأكسجين إلى الخلايا ويموت معها الكائن الحي.

ويرى بعض العلماء أن التلوث بالنترات لا يقتصر تأثيره على تسمم الدم فقط،

بل يسبب بعض الأعراض المرضية الأخرى مثل ارتفاع ضغط الدم وظهور بعض أنواع الحساسية.

وينبغي التنويه بصعوبة إزالة أيون النترات من مياه الشرب لتكلفتها المرتفعة، ولكن يمكن تخفيف تركيز النترات الموجودة في الماء المستخرج من باطن الأرض بمزج هذا الماء مع مياه سطحية خالية من النترات، أو تحتوى على نسبة ضئيلة منها؛ وذلك لإنتاج مياه الشرب يكون تركيز أيون النترات فيها مناسباً للاحتياجات الصحية للإنسان.

وهناك نوع من المخصبات تسمى المخصبات المعدنية، وغالباً ما تكون غير نقية من الناحية الكيميائية لاحتوائها على الشوائب التي تضر بالتربة والمزروعات، ومن أهم هذه الشوائب العناصر الثقيلة من الرصاص والزنك والكالسيوم، وتتراكم هذه العناصر في التربة مع مرور الزمن وتعاقب الدورات الزراعية والمحاصيل حتى تصل إلى مستوى السمية، وعادة ما تنتقل هذه العناصر إلى النباتات ومنها إلى الحيوان والإنسان، ويعمل بعض الشوائب على تحجر جيبات التربة وتحويل التربة الخصبية إلى أرض صماء لا تصلح للزراعة.

٢- تلوث التربة بمياه الصرف الصحي

تستخدم مياه الصرف الصحي المعالج لرى بعض الأراضي الزراعية بأنواع معينة من المحاصيل، وقد يكون ذلك مفيد جداً للتربة الزراعية؛ نظراً لما تحويه مياه الصرف من عناصر غذائية هامة للنبات مثل النيتروجين والفوسفور والبوتاسيوم، وبعض المواد العضوية التي تعمل على تحسين الصفات الفيزيائية للتربة، وعلى الرغم من أهمية استخدام مياه الصرف الصحي والاستفادة منها كمصدر للمياه المفقودة إلا أن هناك محاذير من كثرة استخدامها تتمثل فيما تحويه من ملوثات للأراضي الزراعية التي يمكن تحديدها:

العناصر الثقيلة

وهي تعد من أخطر الملوثات للتربة الزراعية، نتيجة ربيها بمياه الصرف الصحي، وأهم هذه العناصر الكاديوم والرصاص والزنك والنيكل والخصائص والزرنيخ والنحاس، ويختلف تأثير هذه الملوثات من منطقة لأخرى حسب المصادر التي تشارك في تكوين مياه الصرف في تلك المناطق، وتصبح مياه الصرف جيدة كلما قلت نسبة وجود تلك العناصر بها، وتلعب صفات التربة الفيزيائية والكيميائية دوراً هاماً في تحديد مدى امتصاص العناصر الثقيلة، فنجد أن التربة تميل إلى امتصاص أكبر من تلك العناصر مقارنة بالتربة الرملية، كما أن العناصر الثقيلة تميل إلى الذوبان في التربة الحمضية أكثر من ذوبانها في التربة القاعدية، ولذلك فإن النباتات التي تنمو في التربة المخضبة تميل بوجه عام إلى تركيز العناصر الثقيلة في أنسجتها أكبر مما لو كانت في التربة القاعدية.

الأملاح

تشتمل مياه الصرف الصحي على نسبة عالية من أملاح النترات والكلور والصدوديوم والمغنيسيوم والفوسفور، ويمكن لهذه الأملاح الذائبة في مياه الصرف الصحي أن تتجمع وتتركز بدرجة ينتج عنها ما يعرف بتملح التربة، ويؤدي ارتفاع تركيز الأملاح في محلول التربة لزيادة الضغط الأسموزي وإضعاف قدرة النبات على امتصاص حاجته من الماء من هذا المحلول سواء كان ذلك عند وقت الإنبات أو النمو، مما يؤدي لانخفاض إنتاجية المحاصيل المزروعة.

رابعاً: عوامل بشرية أخرى

(أ) قطع الأشجار والرعى الجائر

إن الرعى الجائر وهو زيادة الحمولة على البيئة من الحيوانات عن طاقة المرعى يؤدي إلى اجتثاث النبات من جذورها، ومن ثم التصحر، فلا يستفيد السكان من الأرض في

المرعى، ولا في الزراعة، ومما لا شك فيه أن هذا إفساد للأرض وتغير كامل لطبيعتها لغير مصلحة الإنسان، وقد دعا الإسلام إلى الاعتدال والوسطية في كل شيء، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

كما دعا الإسلام إلى المحافظة على الثروة النباتية وعدم إهدارها، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [٣٠: ٤] وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

وقد نزلت الآياتن السابقتان في الأخنس بن شريق الذي أقبل على النبي ﷺ وأظهر الإسلام، ثم خرج ومر بزرع فأحرقه، وحمر فعقرها، فذكر الله أمره ووصفه بأنه من ألد المخاصمين للنبي ﷺ والإسلام؛ لما قام به من إفساد وإهلاك للحرث والنسل.

(ب) السدود والخزانات

لها آثار سلبية على التربة مثل ارتفاع مستوى المياه الجوفية في الأماكن القريبة منها، وتغيير صفات وخواص البيئة الزراعية بظهور الأعشاب والحشرات الضارة وغيرها، أو تقليل كمية الطمي الذي يصل إلى مناطق الدلتا، مما يؤثر على خصوبة الأراضي الزراعية في تلك المناطق.

(ج) وسائل النقل

تعد وسائل النقل المختلفة ذات أثر فعال في تلوث الأراضي الزراعية؛ لما ينبعث من عوادمها من نواتج احتراق تشتمل على أول أكسيد الكربون الذي يتحول في التربة إلى حامض الكربونيك ذي الأثر الضار، وأكسيد الكبريت وأكسيد النيتروجين التي تكون أمطاراً حمضية فتعمل على زيادة ملوحة التربة ونقص إنتاجية النبات.

بعض المقترحات لمواجهة الآثار الضارة بالتربة

١- المحافظة على الأراضي المزروعة من التدهور بسبب الأبنية السكنية أو إنشاء المصانع أو التملح وغير ذلك.

- ٢- استصلاح الأراضى القابلة لذلك باستخدام التقنيات الحديثة.
- ٣- الاهتمام بزراعة الأراضى الفايالة للزراعة على المستوى العالمى والمستوى المحلى باستخدام تقنية حديثة وغير ضارة للبيئة، وهذا يتطلب تعاوناً بين الدول المتقدمة والدول النامية والفقيرة.
- ٤- توفير نظام صرف جيد فى الأراضى الزراعية بصفة عامة والأراضى الملحية بصفة خاصة، حتى لا تتراكم الأملاح فى التربة.
- ٥- توفير مياه رى جيد من حيث كميتها وما تحتويه من عناصر وأملاح لاحتياج النبات إليها جميعاً، ولكن بنسب معينة، فإذا زادت أضرت بالنبات وإنتاجه.
- ٦- استخدام الأساليب الحديثة فى المحافظة على التربة من الانجراف بالمياه والرياح.
- ٧- استخدام مياه الصرف الصحى المعالج فى رى المحاصيل التى لا يتغذى عليها الإنسان أو الحيوان.
- ٨- تحسين شبكة الصرف فى الأراضى للإقلال من ملوحة التربة وعدم الإسراف فى مياه الرى، واختيار تكنولوجيا حديثة فى رى المحاصيل بالطرق المتطورة.
- ٩- استخدام طرق غير ضارة بالبيئة لمكافحة الآفات مثل: النظافة العامة، والتخطيط المعمارى للمساكن بما يقلل من دخول الآفات، وتربية النباتات المقاومة للحشرات والأمراض، مع اختيار المواعيد المثلى لزراعة النباتات ومقاومة الحشائش.
- ١٠- استخدام الجاذبات الجنسية فى مكافحة البيولوجية.
- ١١- استخدام مكافحة البيولوجية فى القضاء على الآفات الزراعية.
- ١٢- التوسع فى تربية الأعداء الطبيعيين للحشرات والآفات الزراعية بصفة عامة بدلاً من استخدام المبيدات الكيميائية، التى تثبت أن أضرارها تفوق منافعها.
- ١٣- العودة إلى استخدام الأسمدة الطبيعية فى تسميد الأراضى الزراعية، بدلاً من

استخدام الأسمدة الكيميائية بكميات كبيرة، والتي أضرت بالتربة والنباتات المزروعة على السواء. مع قصر استخدام الأسمدة الكيميائية على الأراضي التي تحتاج إلى أنواع معينة من العناصر، أو حسب نوع التربة.

١٤- استخدام المخصبات الزراعية في بعض الأراضي المحتاجة إلى ذلك بطرق علمية محسوبة، حتى لا يتبقى منها ما يؤثر سلباً على البيئة.

١٥- استخدام التقنيات المختلفة للتغلب والتخلص من المخلفات السامة والملوثات الضارة للتربة، الناتجة عن استخدام المبيدات والمخصبات الزراعية مثل تقنية الموجات الصوتية التي تثبت فعاليتها في خفض فترة نصف العمر لمبيد الباراثيون من ١٠٨ أيام إلى نصف ساعة فقط.

١٦- توعية الأفراد بالمفاهيم البيئية الخاصة بالتربة، وطرق المحافظة عليها.

١٧- تشجيع الدول على تكوين الجمعيات الأهلية الخاصة بحماية البيئة بصفة عامة والتربة بصفة خاصة.

١٨- إصدار وتطبيق التشريعات الخاصة بالمحافظة على التربة من التدهور أو التلوث بصفة عامة.

خامساً: تلوث التربة بالمخلفات الصلبة

إن تلوث التربة يحدث من جراء إدخال مواد غريبة فيها، تسبب تغير في خواصها، فإلقاء المخلفات الصلبة كما هي بكافة أنواعها على التربة يؤدي إلى تلوثها الأمر الذي سيؤثر على كل ما زرعه الإنسان. خاصة إذا كانت المواد الملقاة تحتوي على عناصر ثقيلة أو بقايا سوائل أو زيوت أو مواد كيميائية، وتصحح التربة ماوى مناسباً للحشرات وللحيوانات المختلفة (الكلاب، القطط، الفئران)، ومكاناً خصباً لتولد الذباب والجراثيم والميكروبات التي تعد مصدراً للعديد من الأمراض والأوبئة التي يُصاب بها الإنسان،

ويؤدى ذلك إلى: انتشار الروائح الكريهة، تلوث المياه الجوفية نتيجة تسرب المكونات المختلفة للمخلفات، وتشويه للمنظر الجمالى العام.

ومما لا شك فيه أن المكان والبيئة غير النظيفة يتسبب عنها بعض الأمراض النفسية للإنسان كالاكتئاب، وازدياد حالات الانحرف والسلوك العدواني، والتوتر النفسى، كما أن تراكم المخلفات يؤدى نظر الإنسان فيما يعرف مجازاً بالتلوث البصرى، مما يجعله فى حالة عدم الارتياح والسخط العام.

الخاتمة

البيئة خلقها الله لإعالة الحياة وهي مسخرة لخدمة الإنسان وهو مستخلف عليها

الغاية التي خلقت من أجلها البيئة هي إعالة الحياة، من هنا يجب أن ندرك جيداً عندما نتعامل معها حدود قدراتها وإمكاناتها، التي يطلق عليها الحمولة البيئية، إن أي تغيير جوهري في عناصر النظام البيئي ينجم عنه اضطراب في وظائف هذه العناصر، وتختل معها العلاقات التفاعلية التبادلية، ومن ثم يختل التوازن البيئي، وتتحول عناصر البيئة من عناصر مفيدة إلى عناصر ضارة، مسببة للكثير من الأخطار التي تهدد مستقبل مسيرة الحياة.

إذا زاد حجم العشائر الحيوية عن مقدار الحمولة البيئية فإنه يظهر على البيئة ومواردها، مما يؤثر في نوعيتها من جهة، وعلى الكائنات الحية من جهة أخرى، ويتوقع تحت الظروف الطبيعية أن تعطل القدرة الحيوية على استمرارية النمو أو التزايد بفعل محددات طبيعية أو عوائق حضارية، كما هو الحال بالنسبة للإنسان والحيوان، فعلى سبيل المثال تتحمل المراعي شمال العراق ربع مليون رأس من الأغنام دون أن يضطرب النظام الحيوي، ولوحظ أخيراً أنها تضم أكثر من مليون رأس. ومن ثم حرص الإسلام على الدعوة إلى المحافظة على عناصر النظام البيئي، واستغلالها بحكمة وعقلانية دون تغيير يذكر. ليظل النظام البيئي يؤدي دوره المحدد له في إعالة الحياة بصورة مستديمة. وصدق الله العظيم إذ يقول في محكم آياته: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [القرة: ٢١١]

سخر الله البيئة لخدمة الإنسان، حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسَغَّ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. وقد استخلف الله فيها حيث يقول عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ حَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

إن تسخير كل هذه النعم من البيئة وتذليلها للإنسان هو تكريم من الله - سبحانه وتعالى - للإنسان دون سائر المخلوقات حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]. والاستخلاف يعنى به أن الإنسان وصى على هذه البيئة (الأرض) وليس مالكاً لها، بل مستعيراً لها، فالإنسان متسخلف على إدارة الأرض وإعمارها إلى حين، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. ويقتضى الاستخلاف أن يتصرف الإنسان فيما استخلف فيه تصرف الأمين فيما أوثمن عليه من أمانات، فاليئنة ميراث للبشرية جمعاء، ورصيدها الدائم، تتوارثه الأجيال، فنحن لم نملك الأرض، وإنما استعمرناها من الأجيال السابقة، ويجب أن نردها للأجيال اللاحقة سليمة دونما إهدار أو تلويث لمواردها وإمكاناتها.

لكل الأسباب السابقة كانت مهمة المحافظة على البيئة وصيانة مواردها وعدم تبديدها أو الإسراف في استغلالها فرض عين وفرض كفاية، وقد وعد الله - سبحانه وتعالى - من يبدل أنعمه بالعقاب في الدنيا والآخرة أو كليهما، ومن المسلم به أن تدمير عناصر النظام البيئي يحدث من جرائه مشكلات بيئية يعانى منها عالمنا المعاصر يعد جزءاً من العقاب الذى يتوعد به الله - سبحانه وتعالى - المبدلين لأنعمه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

خلق الله - سبحانه وتعالى - الإنسان، وحدد له مهمته في هذه الحياة. يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. والعبادة بمعناها الشامل لا تقتصر على أداء الشعائر الدينية من صلاة وصوم وحج وغيرها، وإنما يعنى بها الالتزام المخلص لمبادئ الإسلام وتوجيهاته في كل نواحي الحياة، فحسن استغلال موارد البيئة عبادة، والمحافظة عليها وصيانتها لتستمر إلى ما شاء الله لتنتفع بها البشرية كافة عبادة، وعدم تلويث الماء والمحافظة عليه والاقتصاد في استهلاكه عبادة، وعدم تلويث

الهواء والتربة عبادة، وحسن استغلال المرافق العامة ووسائل الملكية العامة عبادة، وعدم الصيد الجائر والرعى الجائر عبادة، ومن هذا المنظور فإن كل مفهوم للتعامل مع مكونات النظام البيئي الطبيعي والحضارى من خلال السلوكيات الإسلامية البناءة أمر من الله عز وجل له صفة الوجوب والطاعة؛ شكراً له على أنعمه الكثيرة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُقْسِدِينَ﴾ [التقصص: ٧٧].

لقد أحسن الله إلينا بيئة طبيعية تتوافر فيها مقومات الحياة، فيجب علينا ألا نقابل الإحسان بالإساءة، إن سوء استغلال موارد البيئة، والعمل على تدهورها واستنزافها يبعدنا عن طريق العبادة الحق؛ لأن هذه السلوكيات الخاطئة فيها ضرر للبشرية كلها، والإسلام ينهانا عن إحقاق الضرر بأنفسنا وبالآخرين حيث يقول رسول الله ﷺ: «لا تجن نفس على أخرى»، ويعتبر سوء استغلال موارد البيئة والعمل على استنزافها وتلويشها وعدم صيانتها وعدم استغلالها بحكمة وعقلانية نكراناً وجحوداً بأنعم الله، والكفران والجحود بنعم الله مدعاة لكثير من المآسى والكوارث حيث يقول ربنا - سبحانه وتعالى - : ﴿فَكَفَرْتَ بِأَنْعَمَ اللَّهُ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].



واجب الحماية الدولية للبيئة الطبيعية

بقلم: د/ محمود السيد حسن داود (*)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ورحمة الله للناس أجمعين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وأصحابه والتابعين .. وبعد فإن من مظاهر التكريم الرباني للإنسان في هذه الحياة ، أن أوجد له البيئة الطبيعية الصالحة لحياته ، المهيأة له على أحسن وجه ، والقائمة على أدق نظام ، وذلك واضح من إصلاح الله عز وجل لها المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، ومع إصلاحها يذلها الله عز وجل له تذييلاً كاملاً ، على النحو الذي أثبتته في كتابه ، وفي أكثر من موضع ، كتقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠] ، وقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ" [الملك: ١٥] ، وقوله تعالى: ﴿... وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَأَنَا كُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٣-٣٤] ، وذلك كله ليتمكن الإنسان من أداء مهامه الأساسية التي من أجلها خلق ، وبسيبها وجد ، وعليها يوم القيامة سيوقف ويسأل ويحاسب ، وهي عبادة الله عز وجل ، على النحو الذي شرع ، وإقامة الحق والعدل ونشر الخير والإصلاح بالكتاب الذي أنزل ، وتعمير الأرض بالفرس والبناء والإصلاح والإحياء بالضوابط التي أحكم .

(*) أستاذ القانون الدولي العام المساعد بكلية الشريعة والقانون بدمنهور - جامعة الأزهر.

ولمكانة البيئة النظيفة في حياة الإنسان وأهميتها بالنسبة له ، لم تكن العلاقة بينهما مجرد علاقة سطحية أو عفوية ، بل تترقى هذه العلاقة إلى أعلى درجاتها فتصبح علاقة عضوية ، ليبدو الإنسان وكأنه جزء من البيئة أو أن البيئة جزء منه، وأثبت ذلك المولى عز وجل في كتابه فيقول: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يَعِيدُكُمْ فِيهَا وَيَخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (١) ، وتثمر هذه العلاقة العضوية ثمارا طيبة، لدرجة أن يتبادل الإنسان مع هذه البيئة التي تبدو صماء جامدة ، مشاعر الحب والرحمة ، والشوق والألفة ، ومن ذلك ما جاء عن عَبَّاسِ بْنِ سَهْلٍ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ قَالَ أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ حَتَّى إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ : « هَذِهِ طَابَةٌ وَهَذَا أَحَدُ جِبَلِ يَحْيَبْنَا وَنُحْبُهُ » (٢) ، وسمع وصف مكة من " أصيل " فجرى دمعها حيننا إليها ، وقال : يا أصيل : دع القلوب تقمر ، ويروى عن مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ قَالَ إِنَّ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَدَى بْنَ الْحَمْرَاءِ قَالَ لَهُ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ وَأَقْفُ بِالْحَزْوَرَةِ (٣) يَقُولُ : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ وَاللَّهُ لَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ (٤) .

ويثبت الله عز وجل مثل هذه المشاعر لهذه البيئة الطبيعية المحيطة بالإنسان ، ومن

- (١) نوح ، الآية رقم ١٧ ، ١٨ . والتعبير في هاتين الآيتين عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب وموح ، إذ يشير إلى الوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض وأن نشأة الإنسان من الأرض كشاشة النبات ، من عناصرها الأولية يتكون ، ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو فهو نبات من نباتها وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة ، وكلاهما من نتاج الأرض وكلاهما يرضع من هذه الأم ، وهكذا ينشئ الإيمان في المؤمن تصورا حقيقيا حيا لعلاقته بالأرض وبالأحياء تصورا فيه دقة العلم وفيه حيوية الشعور . يراجع سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، ط السادسة عشرة ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ، ج ٦ ، ص ٣٧١٤ ، ٣٧١٥ .
- (٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب نزول النبي - صلى الله عليه وسلم الحجر ، وأيضا صحيح مسلم كتاب الحج ، باب : أحد جبل يحبنا ونحبه .
- (٣) الحزورة بوزن بكة عند باب الحنطين ، وهي في الأصل بمعنى التل الصغير ، وسميت بذلك لأنه كان هناك تل صغير ، وقيل لأن وكيع بن سلمة كان ولي أمر البيت بعد جرحه وبنى هناك صرحا ، وحصل هناك أمة يقال لها حزورة تسمى هذا الموضع بهذا الاسم .
- (٤) سنن ابن ماجة ، كتاب المناسك ، باب فضل مكة ، وأيضا سنن الترمذي ، كتاب المناقب عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - باب في إخراج النبي من مكة .

ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٣٩] ،
وفى ذلك يقول مجاهد : إن السماء والأرض يكيان على المؤمن أربعين صباحا ، قال
أبو يحيى : فعجبت من قوله ، فقال : أتعجب ، وما للأرض لا تبكى على عبد يعمرها
بالركوع بالسجود ، وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دوى
كدوى النحل^(١) .

وحيث إن الإسلام دين شامل، له فى كل مجال، أحكامه العظيمة، وتعاليمه
الكريمة، وضوابطه الدقيقة ، وأن مجال البيئة من أهم مجالات الإنسان، وخاصة فى هذا
العصر، فإن الإسلام ينظر إلى حماية البيئة من التلوث على أنها واجب من أهم
الواجبات الشرعية ، وضرورة من الضرورات البشرية ، وقد درس فقهاء الإسلام هذا
الواجب ، وتركوا ثروة فقهية عظيمة من الضوابط والقواعد الشرعية التى يتم من خلالها
إعمال هذا الواجب وغيره من الواجبات، وهذه الضوابط يجمعها ما يعرف بين فقهاء
المدارس الإسلامية بسمى " علم القواعد الفقهية " ، أو علم " الأشباه والنظائر " ^(٢) .

ولعله من أهم القواعد العامة فى الفقه الإسلامى أن كل حق يقابله واجب فى الفقه
الإسلامى ، لأن ميزان العدل فى الإسلام يقتضى أن يعطى المرء من الحقوق مثل ما عليه
من الواجبات ، ودليل ذلك قوله تعالى " ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف " ، وإذا كان

(١) يراجع : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، مكتبة الغزالي ، مؤسسة مناهل العرفان ، للجلد الثامن ، ج ١٦ ،
ص ١٤٠

(٢) فى بيان مكانة علم القواعد الفقهية أو علم الأشباه والنظائر يقول الإمام جلال الدين السيوطى وهو يتحدث عن
العلماء الذين أبدعوا فى هذا الفن : ' ولقد نوعوا هذا الفقه فنونا وأنواعا ، وتناولوا فى الاستنباط بيدا وياعا ،
وكان من أجل أنواعه معرفة نظائر الفروع وأشباهاها ، وضم المفردات إلى أخواتها وأشكالها ، ولعمري أن هذا
الفن لا يدرك بالتمنى ، ولا ينال بسوف ولعل ولو أنى ، ولا يبلغه إلا من كنف عن ساعد الجد وشمر ، واعتزل
أهله وشد المثزر ، وخاض البحار وخالط المعجاج ولازم التردد إلى الأبواب فى الليل الداج ، يداب فى التكرار
والمطالعة بكرة وأصيلا ، وينصب نفسه للتأليف والتحرير بيانا ومقيلا ، ليس همته إلا معضلة محلها أو مستصبة
عزت على القاصرين فيرتقى إليها ويحلها ، يرد عليه ويرد ، وإذا عدله جاهل لا يصد ، قد ضرب مع الأقدمين
بهم ... وحلق على الفضائل واقتنص الشوارد ، وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد ... ' كتاب
الأشباه والنظائر فى الفروع ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ص ٢ ، ٣ .

التمتع بالبيئة الصحية حق من حقوق الإنسان ، فإنه لا بد وأن يقابل هذا الحق واجب يقتضى ضرورة محافظة كل إنسان على هذه البيئة من التلوث ، والذي يهمنى فى هذا البحث هو بيان هذا الواجب من حيث دعائمه التى يقوم عليها، ومجالاته التى يتسع لها، ولا بد أن يسبق ذلك مفهوم البيئة وبيان أن الأصل فيها هو النظافة ، وعلى هذا فإننا سنقسم القول فى هذا البحث إلى مبحثين :

المبحث الأول : مفهوم البيئة وبيان أن الأصل فيها هو النظافة .

المبحث الثانى : حماية البيئة كواجب فى مقابل التمتع بها كحق .

والله العظيم أسأل أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه سبحانه، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا ، وأن يرزقنا علما نافعا ، وقلبا خاشعا، ورزقا واسعا، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

المبحث الأول مفهوم البيئة وبيان أن الأصل فيها هو النظافة

أولاً: مفهوم البيئة

البيئة: كلمة يرجع جذرها للغوى إلى مادة "بوا"، ومنه الفعل الماضى "بأء"، و"تبوأ"، و"استبأ"، وهذه المادة تأتي فى اللغة بمعان متعددة، منها:

- الرجوع: يقال بأء بالشئ بواء وبواء بمعنى رجع، وفى التنزيل العزيز فى حق بنى إسرائيل قوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١].

- الإقرار والاعتراف والتحمل: ويقال بأء به وبأء بما عليه بمعنى احتمله وأقر به واعترف ومنه قوله تعالى: "إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ" [المائدة: ٢٩].

- التكافؤ والمساواة: ومنه يقال بأء فلان بفلان أى قتل به وهو كفاء له، وبأواه كان دمه كفنا لدمه، ويقال أيضاً تبأوا القتيلان فى القصاص أى تعادلا.

- النزول والإقامة والتهيئة والإعداد: ومنه يقال بوا فلانا منزلا، أى أنزله فيه، وفى القرآن الكريم قوله تعالى ﴿لَنُبَوِّئَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وبوأ المنزل له أعده، وتبأوا المكان أى نزل به وأقام فيه ومنه قوله تعالى: "وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ" [الحشر: ٩]، أى الذين سكنوا وأقاموا بالمدينة من الأنصار، ومنه قوله تعالى أيضاً: ﴿أَنْ تَبُوءُوا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرٍ بِيُوتًا﴾ [يونس: ٨٧]، أى اتخذوا بها إقامة وسكنا.

- ومن هذه المعانى الاخيرة جاءت كلمة بيئة بمعنى المنزل وبمعنى الحال أيضاً، ومنه يقال بيئة طبيعية، وبيئة اجتماعية وبيئة اقتصادية وبيئة سياسية وغير ذلك^(١)، وفى

(١) المعجم الوسيط، مجمع المحرث الإسلامية، باب الباء، ص ٧٧.

بعض اللغات الأخرى تعنى كلمة بيئة Environnement مجموعة العوامل الطبيعية والثقافية التي يمكن أن تؤثر على الكائنات الحية والأنشطة الإنسانية، ويتخذ بعض الإجراءات لحماية هذه البيئة من التلوث^(١).

وحيث إن علم البيئة قد نشأ في رحاب العلوم الطبيعية لتنميتها وبيان مدى إمكانية الانتفاع بها أولاً، ثم في رحاب العلوم الإنسانية والفقهية والقانونية لحمايتها وتحريم الاعتداء عليها ثانياً فإن مفهوم البيئة يجب أن يرجع فيه إلى هذه العلوم، وبناء على ذلك ففى علم البيئة الحديث تعرف البيئة بأنها: الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان بما يضم من ظواهر طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها، وبعبارة أخرى هي: كل ما تخبرنا به حاسة السمع والبصر والشم والتذوق واللمس سواء أكان هذا من خلق الله سبحانه وتعالى "ظواهر طبيعية" أم من صنع الإنسان "ظواهر بشرية".

ومع أن مصطلح البيئة قد استعمل اليوم في كثير من العلوم، إلا أن العلوم التي تواجه صعوبات عديدة في تعريفها للبيئة هي العلوم القانونية أو الفقهية الإسلامية؛ وترجع هذه الصعوبة إلى أن مفهوم البيئة في ضوء هذه العلوم هو الذي سيبين مجال تطبيق القوانين الداخلية أو الدولية الخاصة بالبيئة، وبصفة خاصة تطبيق العقوبات التي تلزم من جراء تلوث البيئة أو الإضرار بها عن طريق ما يسمى بجرائم البيئة، ولذا نلمس تباين القوانين ووجود اتجاهين كبيرين في تعريف البيئة يتراوحان بين السعة والضيق في بيان المفهوم القانوني لها، ومما يمثل هذين الاتجاهين من التعريفات ما يلي:

التعريفات الموسعة

ومنها تعريف المشرع المصري في القانون رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ بشأن البيئة، حيث ورد في المادة الأولى منه تعريف البيئة بأنها: "المحيط الحيوى الذى يشمل الكائنات الحية وما يحتويه من مواد وما يحيط بها من هواء وماء وتربة وما يقيمه الإنسان من منشآت"^(٢)، وكذلك تعريف المشرع التونسى في المادة الثانية من القانون رقم ٩١ لسنة

(1) Le ROBERT : Dictionnaire d aujourd'hui , Alain Rey , France loisirs, Paris 1993 , P.368 .

(٢) القانون المصرى رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ بإصدار قانون فى شأن البيئة ، ط الثانية ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٣ .

١٩٨٣ حيث عرف البيئة بأنها : "العالم المادى بما فيه الأرض والهواء والبحر والمياه الجوفية والسطحية والأودية والبحيرات وما يشابه ذلك ، وكذلك المساحات الطبيعية والمناظر الطبيعية والمواقع المتميزة ومختلف أصناف الحيوانات والنباتات وبصفة عامة كل ما يشمل التراث الوطنى " ، وبهذا يتضح أن هذا الاتجاه يوسع فى مفهوم البيئة لتشمل الوسط الطبيعى والوسط الصناعى أيضا (١).

التعريفات المضيقية:

ومنها تعريف المشرع الليبى حيث عرف البيئة فى م ١ / ١ من القانون رقم ٧ لسنة ١٩٨٢ بأنها : " المحيط الذى يعيش فيه الإنسان وجميع الكائنات الحية ويشمل الماء والهواء والتربة والغذاء " ، ويتضح من هذا التعريف أنه يميل إلى حصر مفهوم البيئة فى الوسط الطبيعى فقط دون الصناعى (٢).

ولا تخرج تعريفات فقهاء القانون بصفة عامة وفقهاء القانون الدولى بصفة خاصة عن هذه التعريفات التى تؤكد أن البيئة تشمل العنصر الطبيعى أو الأصيل من ناحية والعنصر الصناعى أو المستحدث من ناحية أخرى (٣)، لكنهم يركزون فى بيان المصطلحات على التفرقة بين مصطلح البيئة ومصطلح الطبيعة حيث لا يتطابق كل منهما مع الآخر تماما ، لأن مصطلح البيئة أوسع من مصطلح الطبيعة ، فإذا كانت الطبيعة

(١) زطبقا لهذا الاتجاه أيضا جاء تعريف معجم المصطلحات القانونية ، حيث يرى أن البيئة : " تعنى الوسط الطبيعى

والخضرى والصناعى الذى يعيش فيه الإنسان ، والمحمى ببعض التشريعات الوطنية والدولية .

LEXIQUE de Termes Juridiques , 8e Edition DALLOZ , 1980, Raymond Guillien et Jean Vincent , sous La direction de Serge, Guincharo Gabriel Montagnier , P.216 .

(٢) فى أمثلة أخرى عديدة لتعريف البيئة يراجع : د. فرج الهرش ، جرائم تلوث البيئة دراسة مقارنة ، ط الأولى ١٩٩٨ . ص ٣٥ وما بعدها . تم يستخدم مصطلح البيئة فى الوسط الدولى إلا لأول مرة فى مؤتمر الأمم المتحدة عن البيئة الذى انعقد فى استكهولم بالسويد فى ٥-١٦ يونيو ١٩٧٢ بدلا من مصطلح الوسط البشرى الذى استخدم فى مراحل الإعداد لهذا المؤتمر . يراجع د. صلاح عامر ، القانون الدولى للبيئة ، مجلة القانون والاقتصاد ، عدد خاص ١٩٨٣ ، هامش ٦٨٢ .

(٣) د. أحمد الرشيدى ، الحماية الدولية للبيئة : الجوانب القانونية والتنظيمية ، السياسة الدولية ، عدد ١١٠ ، أكتوبر

١٩٩٢ ، ص ١٣٧

تتضمن فقط العناصر الطبيعية المحيطة بحياة الإنسان ، والتي وجدت دون تدخل منه ، فإن البيئة تشمل بالإضافة إلى هذا العنصر العناصر الأخرى الناشئة من حصيلة التدخل والتفاعل المستمر بين الإنسان والعلم والبيئة ، وهذه العناصر هي العناصر المضافة أو الناجمة عن النشاط الإنساني كالمنشآت الحضرية وغيرها (١)

والذي يهمننا في هذه الدراسة هي البيئة الطبيعية أو العناصر الطبيعية في البيئة (٢)، تلك العناصر التي ينظر إليها الإسلام على أنها ملكية عامة ، وأن المحافظة عليها ضرورة من الضرورات أو واجب من الواجبات الهامة ، حتى يستمر الوجود ويتمتع بها سائر الكائنات ، ويهتم بها الإسلام اهتماما بالغاً سواء في بعدها الزماني ، الذي يشمل الزمان كله " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿العنكبوت: ٢٠﴾ ، أو بعدها المكاني الذي يشمل الأرض كلها " وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿الأعراف: ٨٥﴾ .

ويركز القرآن الكريم تركيزاً شديداً على الصورة الجمالية لهذه البيئة الطبيعية ، والتي تعجز البشرية عجزاً تاماً عن الارتقاء إلى تنظيمها ودقتها ، وبالتالي فلا تملك إلا الإذعان

(١) يراجع في هذه التفرقة د. محمد حسام محمود مصطفى ، الحماية القانونية للبيئة المصرية دراسة للقوانين الوضعية والاتفاقات الدولية النافذة ، القاهرة ٢٠٠١ ، ص ٨ ، وأيضاً د. سعيد سعد عبد السلام ، مشكلة تعويض أضرار البيئة التكنولوجية ، دار النهضة العربية ، ص ١٣ .

والتمييز بين البيئة والطبيعة لا يصطدم بالمفاهيم الإسلامية للبيئة ، فإذا كان الله تعالى قد خلق الطبيعة بمكوناتها المعروفة ، وكان الإنسان هو الذي صنع الجانب الحضري للبيئة ، فهذا ما يتفق مع تعاليم فكرة خلافة الإنسان في الأرض ، وتحمله بواجب عمارتها وتحضيرها . يراجع في ذلك د. أحمد عبد الكريم سلامة ، قانون حماية البيئة الإسلامي مقارنة بالقوانين الوضعية ، ط الأولى ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ، ص ٢٩ .

(٢) تحدد البيئة الطبيعية بأنها من صنع الله عز وجل ، وتشمل كل ما به الله تعالى في الكون ، وتشكل ذلك الوسط الطبيعي الذي توجد فيه الحياة ، وتسير على نهجها الفطري ويمكنها من الاستمرار دون تدخل من جانب الإنسان ، وتشمل الجبال والأودية والبحار والأنهار وأشعة الشمس والهواء ، وكذلك الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات . يراجع : د. أحمد عبد الكريم سلامة ، قانون حماية البيئة الإسلامي مقارنة بالقوانين الوضعية ، ط الأولى ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ، ص ٢٨ .

لواجب المحافظة عليها وضرورة حمايتها ، ومن ذلك قوله تعالى : " الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿[السجدة:٧]﴾ ، ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩] ، وقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِيرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق:٦-١١] ، وقوله تعالى : ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣] ، وقوله تعالى : ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَبْيًا وَقَضْيَا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَقَافِيَةً وَأَبَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣١] .

وحيث إن البيئة الطبيعية وما يحيطها من غلاف جوى هي محل استخلاف الله للإنسان، فلقد أوجدها الله عز وجل على أحسن حال ، وهبها على أكمل صورة ، ليتفرغ بعد ذلك للهدف الأول والمهمة الأساسية التي من أجلها خلق ، وهي أفراد الله عز وجل بالعبودية على النحو الذى شرع ، وبالتالي فإن البيئة نظيفة بطبيعتها ، ولا تقتضى من الإنسان إلا حمايتها أو منعها من التلوث .

ثانياً: الأصل فى البيئة النظافة والتهيئة على أكمل وجه؛

والمدقق فى حال البيئة من حولنا يستطيع أن يدرك أن الأصل فيها هو النظافة التامة والنعناية الفائقة والتهيئة على أكمل وجه ، ليعيش فيها الإنسان ويتمتع بها بوصفه إنساناً فقط دون النظر إلى لونه أو لغته أو جنسه أو دينه . وذلك لأن البيئة الطبيعية لا تفرق عند

الانتفاع بها بين مؤمن وكافر ولا بين أبيض وأحمر ، كما لا يفرق التلوث أيضا بين الأجناس والألوان والأديان عند حدوثه أيضا^(١).

ومما يدل على أن الأصل في البيئة النظافة والتهيئة على أكمل وجه إيجاد الحماية الطبيعية بها، ووجود التوازن والتقدير الرباني فيها ، والتذليل والتسخير الكامل لها، وذلك على النحو التالي :

(أ) طبيعية الحماية :

ذلك أن الله عز وجل لم يودع في البيئة كل مقومات الحياة ومتطلبات الإنسان فقط، بل جعل فيها نوعا من الحماية الطبيعية عندما أحاطها بغلاف جوى هائل ، ذلك السباج المنيع أو الدروع الواقية العظيمة التي تقي الأرض إذا ما دهتها الأخطار الممثلة في الشهب والنيازك والتي يمكن أن تنحرف قليلا عن مسارها وتضرر بالكرة الأرضية ، ولعل هذه الدروع الواقية هي التي أشار إليها المولى سبحانه بقوله " وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ [الأنبياء: ٣٢] ، ولعل أهم ما يتضمنه الغلاف الجوى هو طبقة الأوزون الواقية التي تعمل على ترشيح وتنقية ضوء الشمس فتسمح بمرور الأشعة المفيدة وتمنع مرور الأشعة الضارة ، ولعل أهمية هذه الطبقة الواقية تتضح من القلق العالمي الرهيب الذي انتاب العالم عندما اكتشف ما عرف بمشكلة " ثقب الأوزون "^(٢).

(١) ويلخص البعض ما تتميز به البيئة الطبيعية في هذا الخصوص ، ويرى أن البيئة الطبيعية كما خلقها الله تعالى تتميز بأمرين أساسيين هما : الأول : أن هذه البيئة مهيئة بكل ما فيها لمصلحة الإنسان ، وخدمة الإنسان ، وتوفير حاجات الإنسان ، وعلى أساس ذلك جعل تربة الأرض خصبة قابلة للزراعة والنبات والحيوان ، ثم هيا الله عز وجل أيضا الماء الذي يحيى الأرض بعد موتها ، وجعله أساس الحياة للإنسان والنبات والحيوان ، ثم سخر له مع ذلك الشمس والقمر وسائر ما في هذه البيئة الطبيعية . الثاني : أن هذه البيئة كلها بجوانبها المختلفة يتفاعل بعضها مع بعض ، ويتكامل بعضها مع بعض ويتعاون بعضها مع بعض وفق سنن الله تعالى في الكون . فالشمس في السماء تعطى الأرض من ضوئها وحرارتها ما لا تقوم الحياة بدونه ، وهى تعطى هذا العطاء بلا توقف ولا من ولا أذى ، وفق نظام لا يتبدل ، وكذلك القمر يعطى نوره للأرض ، كما يؤثر فى ظاهرة المد والجزر ، وكل هذا يثبت أن البيئة الطبيعية مهيأة لخدمة الإنسان على أكمل وجه . يراجع فى ذلك د. يوسف القرضاوى ، رعاية البيئة فى شريعة الإسلام ، دار الشروق ، ط الأولى ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١ م ، ص ١٢ : ١٤ .

(٢) فى بيان أهمية طبقة الأوزون يراجع : د.عبد الرحمن جيرة ، الإسلام والبيئة ، دار السلام ، ط الأولى ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م ص ١٠٨ وما بعدها ، وحول مشكلة ثقب الأوزون يراجع أيضا محمد الفقى ، البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث ، مكتبة ابن سينا ، ص ١٦٩ وما بعدها .

(ب) ريادة التوازن والتقدير:

ومما يدل على أن الأصل في البيئة النظافة أيضا، التوازن العظيم والدقة المتناهية التي أوجدها الله عز وجل فيها، وهذا ما عبر عنه المولى بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقوله تعالى: ﴿صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي اتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَّاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

وعلى هذا فقد أوجد الله عز وجل البيئة بمعطيات محددة ومقادير معينة بحيث تكفل هذه المقادير القدرة على توفير سبل الحياة الملائمة للبشر وباقي الكائنات التي تحيا على وجه الأرض، ولذا فإن البيئة على حالتها الطبيعية دون تدخل من البشر تكون متوازنة على أساس أن كل عنصر من عناصر البيئة الطبيعية قد خلق بصفات محددة يكفل للبيئة توازنها، وهذا ما سمي بالتوازن البيئي^(١).

(ج) كمال التذليل والتسخير:

ذلك أن الله تعالى لما خلق البيئة مهيأة على أكمل وجه للحياة الإنسانية بها، ذلها وسخرها للإنسان تذليلا وتسخييرا كاملا وقد ركز القرآن الكريم على بيان هذا التذليل والتسخير^(٢) في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي

(١) التوازن البيئي يعني بقاء عناصر ومكونات البيئة الطبيعية على حالها كما خلق الله تعالى وأي تغيير فيها يعني اضطراب في توازنها بحيث تصبح غير قادرة على تقديم سبل الحياة للبشر بشكل عادي. يراجع في ذلك محمد الفقى، البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث، مكتبة ابن سينا، ص ٢٨، ٢٩. كما يراجع: د. أحمد عبد الكريم سلامة، قانون حماية البيئة الإسلامي مقارنا بالقوانين الوضعية، ط الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ص ٣٣. ولعله من عظمة التوازن ودقة التقدير ما أظهرته العلوم الحديثة من أن حجم الأرض وكتلتها وموقعها من الشمس والقمر والنظام دورتها حول نفسها وحول الشمس وتداول الليل والنهار وتداول الفصول الأربعة وتوازن الحرارة والبرودة فيها، وتوزيع الأقوات والأزاق بها كل ذلك موزون ومحسوب.

(٢) وتذليل البيئة أو تسخيرها للإنسان يشير إشارة دقيقة إلى حق الإنسان في التمتع بهذه البيئة الحسنة النظيفة، وهو حق بالمعنى الواسع، إذ أنه يشمل إمكانية قيام الإنسان بالبحث العلمى في خواص البيئة وأسرارها وإمكانية الانتفاع بمواردها المادية وغير ذلك ما يدخل في كلمة الحق، وهذا هو ما أقره فرع القانون الدولي للبيئة من حق الإنسان في بيئة صحية مناسبة. حول هذا الحق يراجع استاذنا د. جعفر عبد السلام، حق الإنسان في بيئة

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نَعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴿لَقَمَان: ٢٠﴾ ، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٣] ، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] ، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢] .

ومع أن البيئة قد خلقها الله عز وجل نظيفة مهيأة للحياة الإنسانية على أكمل وجه ، إلا أن القرآن الكريم وهو الكتاب الخالد والمعجز على مر الدهور والعصور يتنبأ بتدخل يد الإنسان في البيئة وإفساده فيها وتلويثه لها، وذلك على الرغم من حاجته الماسة إلى نقائها ونظافتها وتوافر بعض عناصر الحماية الطبيعية لها.

الإعجاز القرآني في التنبؤ بفساد البيئة:

على الرغم من البيئة أن قد خلقت نظيفة ، إلا أننا نعيش اليوم مشكلة التلوث والفساد البيئي، ولا شك أن هذه المشكلة ترجع في جزء كبير منها إلى التقدم الصناعي والتكنولوجي ، وما استخدمه الإنسان من الأسمدة والمبيدات الكيميائية والآلات الميكانيكية والسيارات والطائرات وغير ذلك مما يث آلاف الأطنان من الأدخنة والغازات في الهواء أو يصب المخلفات والنفايات في مياه الأنهار والبحار أو يدفنها في باطن الأرض ، ولهذا فإن الاهتمام القانوني الحقيقي بقضايا البيئة لم يكن إلا في النصف الثاني من القرن العشرين ، وخاصة بعدما دعت الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى عقد مؤتمر دولي لمناقشة الأخطار المحدقة ببيئة الإنسان ، والذي انعقد فعلاً بمدينة استكهولم

= صحية مناسبة ، بحث مقدم إلى مؤتمر الاجتهاد في قضايا الصحة والبيئة والعمران ، المتعقد في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة اليرموك ، الأردن، بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية والمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم "الإيسيسكو" في الفترة ٣-٥ / ٦ / ٢٠٠٣

بدولة السويد في الفترة من ٥ إلى ١٦ من يونيو عام ١٩٧٢ م^(١)، حتى في الدول الأكثر تقدما كفرنسا، فإن أول وزارة للبيئة بها لم تنشأ إلا في عام ١٩٧٠، وكان وزير البيئة يومها يصف نفسه بأنه وزير المستحيل نظرا للصعوبات التي كانت تكتنف العامل بينه وبين الوزارات الأخرى فضلا عن الغموض الذي كان يحيط بأعمال هذه الوزارة^(٢).

إلا أن الإسلام قد اكتشف هذا التدهور مبكرا منذ مجيئه، ويكفي في بيان ذلك قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، والفساد الذي تشير إليه الآية هو الاضطراب والخلل الذي يدخل على الشيء فيغير من خواصه وطبيعته ويجعله غير صالح لأداء وظيفته التي خلق لها، وبهذا المعنى يكون الفساد شاملا لكل أنواع التعدي على البيئة بكل قطاعاتها المائية

(١) يراجع في ذلك د. ضياء الدين محمد عطية، مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة ٥، ص ١٨، وأيضا:

Jacqueline Morand Deviller : Le droit Francais de l'environnement , P.1 .

بحث منشور في مجلة القانون والاقتصاد، السنة الواحدة والخمسون، ١٩٨١، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٣

ومما يدل على أن الوعي البيئي لم يعرف إلا حديثا ما كان يفعله الصليبيون في العصور الوسطى، حين كانوا ينهون عن النظافة، وينظرون بعين الكراهية إلى الاغتسال، وكان القديسون يفخرون بأن الماء لم يمس أقدامهم ولم يعرفوا طهارة البيئة ونظافتها إلا بعد أن عاشروا المسلمين وعرفوا الإسلام واصطدموا بالامة الإسلامية التي ينظرون أفرادها في اليوم خمس مرات، فرجعوا إلى بلادهم ومعهم نور الحضارة الإسلامية، وقد امتلأت قلوبهم حسرة على ماضيهم الذين عاشوه في قذارة ودنس. يراجع في ذلك: د.عبد الرحمن جيرة، الإسلام والبيئة، دار السلام، ط الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م ص ١٦، ١٧. كما يراجع في حادثة الاهتمام بقضايا البيئة بصفة عامة: د. أحمد عبد الكريم سلامة، قانون حماية البيئة الإسلامي مقارنة بالقوانين الوضعية، ط الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ص ١٠، وما بعدها، كما يراجع:

Jean Combacou et Serq Sur : Droit International Public , 2e Edition , Montchrestion , Paris 1995 , P.509 .)

46 (- Jacqueline Morand Deviller : Le droit Francais de l'environnement , P.1

بحث منشور في مجلة القانون والاقتصاد، السنة الواحدة والخمسون، ١٩٨١، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٣ .

(٢) الروم آية رقم ٤١ . ومما يقدمه لنا القرآن أيضا في مجال التنبيه بفساد البيئة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

والجوية والبرية ، وسواء تمثل هذا الفساد في تلويث تلك القطاعات أو في استنزاف مواردها الطبيعية^(١).

والمدقق في الآية السابقة يشعر بأنها تشير بوضوح إلى ما تعانيه البشرية بوضوح اليوم من خلل في التوازن البيئي ' ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ' ، وأن من وراء هذا الخلل يد قوية تعمل في الخفاء ، هذه اليد هي يد الإنسان ' بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ' ، ولقد ترتب على هذا الضرر إلحاق الأذى بالإنسان وسائر الكائنات التي تعيش معه ' لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا ' ، وكما تنبأت هذه الآية بفساد البيئة فإنها أيضا تنبأ بما تحاول البشرية فعله اليوم من إتقاها وتطهيرها وتنقيتها وذلك هو قوله تعالى: ' لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ '.

وحيث إن الإسلام هو صاحب التنبؤ بفساد الإنسان للبيئة ، فإن العلماء المسلمين أيضا هم أول من أشاروا إلى ذلك الفساد وأول من حاولوا علاجه، وعلى رأسهم العلامة ابن خلدون حيث يقول في مقدمته^(٢): ' .. ثم إن الأهوية في الأمصار تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات، والأهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها الشرة الحار الغريزي في الهضم ثم الرياضة مفقودة لأهل الأمصار إذ هم في الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئا ولا تؤثر فيهم أثرا، فكان وقوع الأمراض كثيرا في المدن والأمصار على قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة

(١) يراجع في ظهور الفساد وبيان أسبابه والتي يجعلها البعض في تغيير خلق الله والظلم والعلو في الأرض واتباع الهوى وانحراف الإنسان عن الميزان الكوني والكفر بأنعم الله .. يراجع في ذلك د. يوسف القرضاوى ، رعاية البيئة في شريعة الإسلام ، دار الشروق ، ط الأولى ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م ، ص ٢١٩ وما بعدها .
(٢) يراجع : مقدمة ابن خلدون لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، مطبوعات مكتبة ومطبعة عبد السلام بن محمد بن شقرون ، مصر ص ٣٦٨ .
وعلى الرغم من أن موضوع البيئة وحمايتها ومنع تلوثها كان يتم النظر في كنه الطب الموسوعية الإسلامية التي زخرت بها الحضارة الإسلامية في عصر التقدم والنهضة ككتاب 'القانون' لابن سينا ، إلا أن التراث الإسلامي زخر أيضا ببعض المؤلفات الخاصة بموضوع صحة البيئة والتي تثبت أن العلماء المسلمين كان لهم السبق في هذا المجال ، ومن هذه المؤلفات ، كتاب : ' نعمت الأسباب المولدة للوياء في مصر وطريق الحيلة في ذلك ، وعلاج ما يتخوف منه ' لابن الجزائر أحمد بن إبراهيم القيرواني ، المتوفى سنة ٣٦٩هـ - ٩٨٠م ، وكتاب ' مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوياء ' للمحمد بن أحمد التميمي ، وغيرها من الكتب .
يراجع في عرض هذه الكتب وغيرها في : المؤلفات البيئية في تراثنا العلمي ، أ.م. لطف الله قاري ، بحث منشور بمجلة : المنهل ، السعودية - جلد ، العدد ٥٨٣ شوال / ذو القعدة ١٤٢٣هـ - ديسمبر ٢٠٠٢ / يناير ٢٠٠٣م ، ص ٢٣٠ : ٢٤٣ .

المبحث الثاني حماية البيئة كواجب في مقابل التمتع بها كحق

إذا كان الله عز وجل قد خلق البيئة الطبيعية نظيفة ، وهياها لأن يعيش فيها الإنسان سعيدا وهائنا ، بل وبات من أهم حقوق الإنسان اليوم هو حقه في التمتع بهذه البيئة النظيفة ، فإن هذا الحق لا بد وأن يقابله واجب ، هذا الواجب هو التزام كل من عدا صاحب الحق بالأ يقف في سبيل التمتع بهذا الحق من ناحية والتزام صاحب الحق نفسه في أن يكون استعماله لحقه غير مضر باستعمال الآخرين لحقوقهم من ناحية أخرى ، وهذا يعني أن الإسلام حينما يعطى الإنسان حق التمتع بالبيئة النظيفة ، فإنه يوجب على غيره ألا يحولوا دون هذا التمتع من ناحية ، وألا يكون استعمال الإنسان لهذا الحق حائلا دون تمتع الآخرين بحقوقهم من ناحية أخرى .

وهذه قاعدة عامة في الفقه الإسلامي^(١) ، يستوى فيها كل الحقوق سواء أكانت من قبيل الحق العام كالحق في التمتع بالبيئة النظيفة ، والحق في المرافق العامة كالمستشفيات أو المدارس ، أم كان من قبيل الحق الخاص كحق الإنسان في سيارته ، أو في مسكنه أو في حقله أو في مصنعه أو غير ذلك مما يملكه الإنسان ملكية خاصة^(٢) .

(١) ولقد صاغ بعضهم هذه القاعدة بقوله : " ميزان العدل في الإسلام أن يعطى المرء من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات ، فكل حق يقابله واجب كما يقول الفقهاء ، وذلك قوله تعالى : " وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ " ويجرى هذا الحكم على كل قضية من القضايا المتعلقة بالحقوق والواجبات "راجع : د. محمد بكر إسماعيل ، القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه ، دار المنار ، ط الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م ، ص ٣١١ : ٣١٣ .

(٢) وقد بين البعض ذلك ، بضرب أمثلة كثيرة لهذا الحق ، ومنها حق الحياة حيث يوجب على صاحب الحق نفسه ألا يمرض للهلاك ، فيحافظ على حياته ، كما يوجب على الناس أن يحترموا هذا الحق فلا يعتدوا عليه ، وكذلك حق الحرية الذي يوجب على الدولة والأفراد معا ألا يتدخلوا في حرية أحد ، ما لم تقتض المصلحة أو الضرورة ذلك ، كما يوجب على صاحب الحق ألا يستعمل حرته فيما يضر بمصالح الآخرين ، وأيضا حق الملك الذي يوجب على الناس أن يحترموا حق المالك ، فلا يعتدوا على ملكه ، بأي نوع من أنواع التعدي كالسرقة والنصب ، كما يوجب على صاحب الملك ألا يستعمل ملكه في الإضرار بالغير . راجع في ذلك : أ.د. محمد رأفت عثمان ، الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الإسلام ، ط الثانية ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م ، ص ١٢ ، ١٣ . وحول نظرية الحق بصفة عامة راجع : د. محمد سلام مذكور ، المدخل للفقه الإسلامي ، تاريخه ومصادره ونظرياته العامة ، دار النهضة العربية ، ط الأولى ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، القاهرة ، ص ٤١٩ ، وما بعدها .

أما أن التمتع بالبيئة النظيفة حق من حقوق الإنسان فذلك واضح من تسخيرها وتذليلها له ، والآيات التي تشير إلى تسخير هذه البيئة الطبيعية وما فيها من عناصر للإنسان كالماء والهواء والنبات والجماد وغير ذلك من مكونات البيئة ، كثيرة ومتعددة ، ومن هذه الآيات ، قوله تعالى : " هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " [البقرة: ٢٩] ، وقوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] ، وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَآخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤] ، وقوله تعالى : ﴿وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهَّرَ بِكُمْ بِهِ وَيَذْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيُرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦] ، وقوله تعالى : ﴿وَبُنِيَ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١] ، وقوله تعالى : " وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ " [ق: ١٠-١١] ، وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ﴾ [النحل: ٨١] .

ورغم أن الإسلام قد رسخ بمثل هذه الآيات فكرة الحق في التمتع ببيئة سليمة على نحو ما تقدم ، إلا أن فقه القانون الدولي العام لم يكن يعترف في وقت قريب بهذا الحق ، حيث كان البعض ينكر هذا الحق من بين حقوق الإنسان ، وكان أهم ما يستند إليه في تدعيم ذلك ما يلي :

- غموض هذا الحق وعدم وضوح مضمونه ، ومن أهم جوانب الغموض فيه أنه لم يكن يتضمن بيان المراد به، وهل هو يعنى حماية الإنسان نفسه بتأمين وسط طبيعي له ، أم يعنى حماية البيئة ذاتها ، وهل يقصد منه حماية الفرد فقط ، أم حماية المجتمع ككل .

- أنه يؤدي إلى ضياع بعض الحقوق الأخرى التقليدية ، كالحق فى العمل ، حيث إن الحق فى بيئة نظيفة سيفرض قيودا كثيرة على المصانع الملوثة للبيئة، وبالتالي يتهدد حق العمل بها .

- أن البيئة النظيفة مجرد مصلحة لاحق ، والمصلحة عنصر فى الحق وليست الحق ذاته ، ولا تعد حقا إلا إذا ساندتها القانون ، ولم تساند كثير من الوثائق القانونية هذا الحق كالإعلان العالمى لحقوق الإنسان ١٩٤٨م ، والاتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان ١٩٥٠م .

إلا أن التطور القانونى لحقوق الإنسان ، أكد على وجود هذا الحق وأزال غموضه وحدد مضمونه ، وجعله مركزا على حماية البيئة نفسها ومواردها الطبيعية، وأن الاستفادة الأولى والآخر منها هو الإنسان ، والقول بأنه يهدم بعض الحقوق الأخرى أصبح قولا فاسدا ، لأنه يدعمها ويقويها ، ولا يعصف بها ، كما أن القول بأن الحق فى البيئة السليمة مجرد مصلحة لاحق ، لم يعد له وجود، بعد أن نصت عليه كثير من القوانين والدساتير الوطنية ، فضلا عن الوثائق القانونية الدولية، كالإعلان الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة حول التقدم والإثراء فى الميدان الاجتماعى فى ١١ من ديسمبر ١٩٦٩ ، والميثاق الأفريقى لحقوق الإنسان الصادر فى ١٨ يونيو ١٩٨١م ، والميثاق العالمى للطبيعة الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٨ أكتوبر ١٩٨٢ م ، ووثيقة إعلان ريو بشأن البيئة والتنمية عام ١٩٩٢م^(١) .

(١) يراجع فى ذلك د. أحمد عبد الكريم سلامة ، المبادئ والتوجيهات البيئية فى أعمال المؤتمر الدولى للسكان والتنمية ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، المجلة المصرية للقانون الدولى ، العدد الخمسون ، ١٩٩٤ ، ص ١٢٢ : ١٢٥ ، وليادته أيضا د. أحمد عبد الكريم سلامة ، قانون حماية البيئة الإسلامى مقارنا بالقوانين الوضعية ، ط الأولى ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ، ص ٦٥ ، وما بعدها . كما يراجع أيضا د. أحمد أبو الوفا ، تأملات حول الحماية الدولية للبيئة من التلوث ، مع إشارة لبعض التطورات الحديثة ، المجلة المصرية للقانون الدولى ، العدد التاسع والأربعون ، ١٩٩٣ ، ص ٥٢ .

ومن أهم النصوص الواردة فى تلك الوثائق الدولية والمنظمة هذا الحق ، المبدأ الأول من وثيقة إعلان ريو والذى تضمن " بدخل الجنس البشرى فى صميم الاهتمامات المتعلقة بالتنمية المستدامة ، وله الحق فى أن يحيا حياة =

وأما أن المحافظة على البيئة وحمايتها من التلوث واجب ، في مقابل التمتع بها كحق ، فذلك أمر يقتضى بيان الدعائم التى يقوم عليها على الواجب ، ومجالاته ، وهذا ما بينه فيما يلى :

أولاً : دعائم واجب الحماية الدولية للبيئة :

أما أن الحماية الدولية للبيئة الطبيعية واجب ، بل من أهم الواجبات فذلك يقوم على دعائم متعددة أهمها :

١ - أن الاعتداء على البيئة اعتداء على التراث المشترك للإنسانية : إذ أن البيئة تتضمن بعض العناصر العامة أو ذات الملكية الشائعة كالهواء والماء ، ولا يمكن لأحد أن يملك مثل هذه العناصر ، لأنها مملوكة للجميع ، ولا يستأثر بها شعب دون شعب ، أو فرد دون فرد ، ولا تخص جيلاً دون جيل ، وهذه هى فكرة التراث المشترك للإنسانية التى اهتدى إليها النظام الإسلامى مند مجيئه ، ويشير إليها قوله تعالى فى شأن الماء : ﴿وَبَيْنَهُمْ أَنْ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨] ، وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٩] ، وما روى عن رجل من المهاجرين من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ غَزَوْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثًا أَسْمَعُهُ يَقُولُ : 'الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ فِي الْكَلْبِ وَالْمَاءِ وَالنَّارِ'^(١) ، ولعله من الواضح التركيز فى هذه الإشارات القرآنية والنبوية على فكرة القسمة التى لا تكون إلا فى الأشياء المشتركة أو الشائعة ، ويؤكد ذلك قوله 'قسمة' فى الآية الأولى ، وقوله 'جميعاً' فى الآية الثانية ، وقول الرسول ﷺ 'شركاء' فى الحديث .

= صحيحة ومنتجة بما ينسجم مع الطبيعة ، وما ورد فى قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٤٥ / ٩٤ لعام ١٩٩٠ أيضا " ... تقرر بان لكل فرد الحق فى أن يعيش فى بيئة نفى بمتطلبات صحته ورفاهه " ، والمبدأ الأول من المبادئ القانونية المقترحة لحماية البيئة والتنمية المستدامة التى أقرها فريق الخبراء فى قانون البيئة التابع للمؤتمر العالمى للتنمية الاقتصادية والذى تضمن ' لجميع البشر الحق الأساسى فى بيئة تليق بصحتهم ورفائهم ' .
(١) سنن أبى داود ، كتاب البيوع ، باب فى منع الماء ، سنن ابن ماجه ، كتاب الأحكام ، باب المسلمون شركاء فى ثلاث ، ومسند أحمد ، كتاب باقى مسند الأنصار ، باب أحايث رجال من أصحاب النبي .

وفى المقارنة بين النظام الإسلامى ونظام القانون الدولى العام ، نجد أن فكرة التراث المشترك للإنسانية فى النظام الأخير حديثة ، ولم يهتد القانون الدولى العام إليها إلا حينما نظر إلى أعالى البحار بوصفها حرة ومفتوحة أمام جميع الدول ، وتتجاوز الاختصاص الوطنى لها ، لكنها اكتسبت بعد ذلك أهمية فائقة ، وأصابت تقديما ملحوظا منذ أن أثيرت أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى عام ١٩٦٧ ، ثم حظيت بالعناية أيضا أمام مناقشات لجنة الاستخدامات السلمية بحثا عن نظام قانونى لحكم قيعان البحار والمحيطات فيما يجاوز حدود الولاية الوطنية وهو ما عرف بقرار التجديد رقم ٢٥٧٤ ، ثم حظيت هذه المسألة باهتمام بالغ مرة أخرى خلال الدورة الثامنة وما تلاها من دورات المؤتمر الثالث للأمم المتحدة ، حتى تم إرساء المبدأ العام فى م ١٣٦ من الاتفاقية الجديدة لقانون البحار ، والتي تقرر أن : " المنطقة ومواردها تراث مشترك للإنسانية " (١) .

وعلى ذلك فإن النظرة الإسلامية لأهم عناصر البيئة الطبيعية على أساس أنها ملكية عامة، وتراث مشترك للإنسانية جمعاء ، لا فرق بين جماعة وأخرى ، يؤكد ويصحح ما وصل إليه القانون الدولى العام أيضا من أن التراث المشترك للإنسانية إنما يعود على البشرية قاطبة ، بما فيها الشعوب التى لم تحصل على استقلالها ، وقد بينت ذلك نص م / ١ من اتفاقية الفضاء الخارجى ، التى تنظم استخدام الفضاء الخارجى وما فيه من قمر وأجرام سماوية والتي تم التوقيع عليها فى ٢٧ من يناير ١٩٦٧ م ودخلت دور النفاذ فى ١٠ من أكتوبر ١٩٦٧ حيث تضمنت أن " لكافة الدول حرية استكشاف واستعمال الفضاء الخارجى ، بما فى ذلك القمر والأجرام السماوية الأخرى ، دون تمييز ، وعلى قدم المساواة وفقا للقانون الدولى " وقد أكد ذلك أيضا نص م ١٤٠ من اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار والذى تضمن أن : " ١ - تجرى الأنشطة فى المنطقة ، كما هو منصوص

(١) د. صلاح الدين عامر ، القانون الدولى للبحار ، دراسة لأهم أحكام اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار لعام ١٩٨٢ ، دار النهضة العربية ، ط الثانية ، ٢٠٠٠ م ، ص ٣٤٨ : ٣٦٠ ، كما يراجع : د. أحمد عبد الكريم سلامة ، قانون حماية البيئة الإسلامى مقارنا بالقوانين الوضعية ، ط الأولى ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ، ص ٥١ ، وما بعدها

عليه بصورة محددة في هذا الجزء لصالح الإنسانية جمعاء ، بصرف النظر عن الموقع الجغرافي للدول ، ساحلية كانت أو غير ساحلية ، مع إيلاء مراعاة خاصة لمصالح واحتياجات الدول النامية والشعوب التي لم تنل الاستقلال الكامل أو غيره من أوضاع الحكم الذاتي التي تعترف بها الأمم المتحدة وفقا لقرار الجمعية العامة رقم ١٥١٤ د ١٥ ، وسائر قرارات الجمعية العامة الأخرى ذات الصلة ٢ ، - تهيم السلطة لتقاسم الفوائد المالية وغيرها من الفوائد الاقتصادية المستمدة من المنطقة تقاسما منصفًا عن طريق آية آلية مناسبة وفقا للفقرة الفرعية ١ - و ١ من الفقرة ٢ من المادة ١٦٠ (١).

٢- أن الاعتداء على البيئة فساد في الأرض : فالاعتداء على البيئة سواء كانت برية أو بحرية أو جوية يعد من الإفساد المنهى عنه شرعا ، ويركز القرآن الكريم على حرمة بصفة خاصة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادَ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاتَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤]، وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ حَوْقًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٨٥]، وقوله تعالى : ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤]، وقوله تعالى : ﴿وَإِحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧] ، وحيث إن إفساد البيئة منهي عنه شرعا بمثل هذه النصوص السابقة، فيكون من الواجب المحافظة عليها وحمايتها على أحسن وجه .

٣- الاعتداء على البيئة يحول دون أداء وظائفها على النحو المطلوب: وذلك لأن للبيئة

(١) يراجع د. صلاح الدين عامر ن القانون الدولي للبحار ، دراسة لأهم أحكام اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار لعام ١٩٨٢ ، دار النهضة العربية ، ط الثانية ، ٢٠٠٠م ، ص ٣٦١ ، كما يراجع :
Nguyen quoc dinh, Patrick daillier, Alain pellet : Droit international public, 4e -
Edition, LGDJ, Paris 1992 , P.1088 ,

وظائف متعددة (١) ، لعل من أهمها أنها مجال كبير لنظر الإنسان إليها ، وتأمله فيها ، وإعمال الفكر من خلالها ، وذلك هو قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١] ، وقوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الناشئة: ١٧-٢١] ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] .

كما أن للبيئة وظيفة جمالية ترفيهية عظيمة أيضا ، ليتمتع الإنسان بأشكالها البديعة وألوانها الزاهية العظيمة ، وتنظيمها الرائع الدقيق ، وذلك هو قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨] وقوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢] ، وقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] .

هذا بالإضافة إلى وظيفة البيئة الكبرى الحياتية والتي يستفيد منها الناس في حياتهم في ماكلهم ومشربهم وملبسهم ، وذلك قوله تعالى : ﴿زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ

(١) حول هذه الوظائف يراجع : د. أحمد عبد الكريم سلامة ، قانون حماية البيئة الإسلامي ، مقارنا بالقوانين الوضعية ، القاهرة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦ م ، ص ٥٧ وما بعدها .

النساء والبنين والقناطر المُنظرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴿آل عمران: ١٤﴾، وقوله تعالى: ﴿فليُنظَرِ الإنسانُ إلى طعامه أنا صببنا الماءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأرضَ شَقًّا فَأَبْتَنَّا فِيهَا حَبًّا وَعَبْنَا وَقَضَبْنَا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

ولعل الاعتداء على البيئة بتلويثها وطمس معالمها وجمالها، يعوق التفكير فيها، والوصول إلى الله عن طريقها، كما يؤثر في جمالها وصورتها، ويقلل من انتفاع الناس بها، وهذا الاعتداء منهي عنه نهيا جازما بقوله سبحانه ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

٤ - الاعتداء على البيئة يحول دون تمتع الآخرين بها: وذلك لأن الاعتداء على البيئة بتلويثها، أو باستنزاف مواردها، أو بالإسراف والتبذير الممقوت فيها يقود إلى نوع أو حالة من الانتحار الجماعي وقتل النفس بغير حق، وهذا كله لا شك في تحريمه، ويدخل في قول الله تعالى: "أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا" [المائدة: ٣٢].

وبناء على ما تقدم نستطيع أن نحجزم بأن المحافظة على البيئة ومنع تلويثها واجب في نظر الإسلام، بالمعنى الاصطلاحي لكلمة واجب، وبمعنى آخر فإن الاعتداء عليها أو تلويثها يعد حراما بالمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة أيضا، وذلك في مقابل حق الإنسان في التمتع بها، وهذا ما حاول أن ينتهي إليه فقه القانون الدولي الوضعي أيضا، حيث تضمن كثير من الوثائق الدولية النص على اعتبار البيئة النظيفة حق من حقوق الإنسان كما سبق القول، وتضمنت كثير من الوثائق الدولية أيضا اعتبار أن حماية هذه البيئة النظيفة واجب، بل ومن أهم الواجبات، ومن هذه الوثائق مجموعة المبادئ التي أقرها مؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة الإنسانية باستكهولم عام ١٩٧٢ وقد تضمن المبدأ الأول: "أن الإنسان يتحمل كافة المسؤولية عن حماية وتحسين البيئة من أجل الأجيال الحاضرة

والمستقبلية"، وأيضاً الميثاق العالمي للطبيعة الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٨ أكتوبر ١٩٨٢ والذي نص في المادة الأولى منه على: "وعلى الإنسان واجب مقدس في حماية وتحسين البيئة للأجيال الحاضرة والمستقبل"، وكذلك مجموعة المبادئ التي تبناها مؤتمر البيئة والتنمية في ريودي جانيرو بالبرازيل عام ١٩٩٢، حيث تضمن المبدأ الثالث "يتوجب إعمال الحق في التنمية حتى يفي بشكل منصف بالاحتياجات الإنمائية والبيئية للأجيال الحالية والمقبلة"^(١).

والحماية الواجبة للبيئة كما هو واضح من تعريفها في المادة الأولى من القانون المصري رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ بشأن البيئة، هي المحافظة على مكونات البيئة والارتقاء بها ومنع تدهورها أو تلوثها أو الإقلال من حدة التلوث، وهذا يعني أن حماية البيئة ومنع تلوثها لا يقتصر على ذلك السلوك السلبي بعدم تدخل الإنسان في شئون البيئة بالإفساد أو التلوث، بل تقتضى الحماية أيضاً سلوكاً إيجابياً، هو التدخل لتنمية هذه البيئة وتحسينها إلى أقصى حد يمكن أن يقدمه الإنسان، ولعل هذا هو معنى الارتقاء بالبيئة.

ثانياً: مجالات واجب الحماية الدولية للبيئة الطبيعية؛

لا شك أن الدعائم السابقة توجب حماية البيئة الطبيعية وقت السلم وهو الأصل في العلاقات، لكن لا يقتصر مجال هذا الواجب على وقت السلم فقط، بل يمتد حتى إلى وقت النزاع المسلح، كما لا يقتصر مجال هذا الواجب على مجرد حماية كل ما هو موجود في البيئة الطبيعية، بل يمتد هذا الواجب إلى ضرورة تنميتها والارتقاء بها أيضاً

١- واجب حماية البيئة يقتضى واجب تنميتها؛

ويفاد هذا الواجب من تدخل اليد الإنسانية في البيئة النباتية، والذي أشار إليه المولى سبحانه بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٤-٣٥]، وقوله تعالى أيضاً "ثُمَّ

(١) د. أحمد عبد الكريم سلامة، المبادئ والتوجيهات البيئية في أعمال المؤتمر الدولي للسكان والتنمية، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٢٦، وما بعدها.

جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿يونس: ١٤﴾. هذا بالإضافة إلى الدعوة المستمرة لتعمير الأرض وتنميتها، وبصفة خاصة الثروة النباتية المذكورة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [المالك: ١٥]، وتنمية الثروة الحيوانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ٥٤]، وتنمية الثروة المعدنية المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وبذلك تقرر هذه الآيات حقيقة أن المحافظة على البيئة تقتضى تنميتها على مختلف الأصعدة، سواء كانت زراعية أو حيوانية أو معدنية أو غير ذلك.

٢. واجب حماية البيئة وتنميتها يمتد إلى وقت النزاعات المسلحة:

ولا يقتصر واجب المحافظة على البيئة في الإسلام على زمن السلم فقط، بل يمتد هذا الواجب إلى زمن النزاعات المسلحة أيضاً سواء كانت هذه النزاعات المسلحة دولية أو غير دولية.

أما زمن النزاعات الدولية المسلحة ففيها وصية أبي بكر الجامعة، والتي فيها: عَنْ مَالِكٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعَثَ جِيُوشًا إِلَى الشَّامِ فَخَرَجَ يَمْشِي مَعَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَكَانَ أَمِيرَ رُبْعٍ مِنْ تِلْكَ الْأَرْبَاعِ فَرَعِمُوا أَنْ يَزِيدَ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ أَنْزَلَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ مَا أَنْتَ بِنَازِلٍ وَمَا أَنَا بِرَاكِبٍ إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ فَذَرَهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُّوا عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ مِنَ الشَّعْرِ فَأَضْرِبْ مَا فَحَصُّوا عَنْهُ بِالسِّيفِ وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلَا صَبِيًّا وَلَا كَبِيرًا

هَرَمًا وَلَا تَقْطَعْنَ شَجَرًا مُثْمَرًا وَلَا تُخْرِبْنَ عَامِرًا وَلَا تَعْقِرْنَ شَاةً وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَا كَلَّتِ وَلَا تَحْرِقْنَ نَحْلًا وَلَا تُغْرِقْنَهُ وَلَا تَغْلُلْ وَلَا تَجْبُنْ^(١) ..

ولا يتعارض أمر المحافظة على البيئة وعدم التعرض لها بالإحراق أو غيره مع قول الله تعالى في قتال بني النضير "ما قَطَعْتُمْ مِّن لِّيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ" [الحشر: ٥]، وذلك لأن المسلمين كانوا قد قطعوا نخل بني النضير وأبقوا بعضه، وتخرجت صدورهم من الفعل ومن الترك، لأنهم منهين قبل هذا الحادث وبعده عن هذا الفعل من التخريب والتحريق، فاحتاج هذا الاستثناء إلى بيان خاص، يطمئن القلوب، فنزلت هذه الآية التي تربط الفعل والترك بإذن الله، فهو الذي تولى بنفسه هذه الواقعة وأراد فيها ما أراد وأنفذ فيها ما قدره، وكان كل ما وقع من هذا بإذنه ليخزي بذلك الفاسقين، فتقطع النخيل يخزيهم بالحسرة عليه وتركه يخزيهم بالحسرة على فوات الانتفاع منه، وإرادة الله هي التي كانت وراء هذا وذلك^(٢).

وأما في النزاعات المسلحة غير الدولية فعدم التعرض للبيئة بالإفساد والإتلاف فيها واجب، من باب أولى، لأن بيئة أطراف النزاع المسلح غير الدولي بيئة إسلامية والأموال فيها وكل ما يتعلق بالبيئة معصوم بعصمة الدار^(٣)، وبما يدل على ذلك، أن الإسلام دعا إلى عدم القتال بين المسلمين بصفة عامة وبما يعم أتلافه بصفة خاصة حتى لا يمتد الفساد والإتلاف إلى البيئة وما تتضمنه من عناصر، ومن ذلك ما روى عن عكرمة أن

(١) موطأ مالك، كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل النساء والصبيان في الغزو، وفي هذا الموضوع يراجع أستاذنا أ.د/ عبد الغنى محمود "القانون الدولي الإنساني دار النهضة العربية، ١٤١١هـ - ١٤٩١م، ص ١٤٨، فضيلة

الشيخ محمد أبو زهرة "العلاقات الدولية في الإسلام" دار الفكر العربي، ص ٩٩
(٢) في ظلال القرآن، السيد قطب، دار الشروق، ج ٦، ص ٣٥٢٣، كما يراجع الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مؤسسة مناهج العرفان، ج ١٨، ص ٦.

(٣) حول مفهوم النزاعات غير الدولية يراجع رسالتنا للدكتورة، حماية ضحايا النزاعات المسلحة غير الدولية في القانون الدولي العام للشريعة الإسلامية، رسالة مقدمة إلى كلية الشريعة والقانون بالقاهرة عام ١٩٩٩، ص ١٨ وما بعدها.

على رضى الله عنه حرق قوماً فبلغ ابن عباس فقال: "لو كنت أنا لم أحرقهم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تعذبوا بعذاب الله»، ولقتلتهم كما قال النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»^(١).

وهذا الاتجاه يتفق وما يسير عليه القانون الدولي العام، إذ لا يهتم فقط بحماية البيئة وقت السلم بل يقرر أن هناك مصلحة عامة عالمية في الحفاظ على البيئة وقت النزاع المسلح، وأن هذه المصلحة في زمن القتال تعلو مصالح المتحاربين أنفسهم، وأن عليهم أن يأخذوا هذه المصلحة العامة في الاعتبار حين اختيار الأساليب والوسائل التي يتقاتلون بها، وهذا ما أكدته قواعد القانون الدولي الإنساني وخاصة إعلان سان بيترسبورج عام ١٨٦٨ وبرتوكولى ١٩٧٧ الملحقين باتفاقيات جنيف ١٩٤٩^(٢).

وحيث أن حماية البيئة والمحافظة عليها واجب إسلامي يمتد حتى إلى فترات النزاع المسلح فلقد تضمنت الشريعة الإسلامية كثيراً من الضوابط والأحكام التي تعمل على تحقيق هذا الواجب، لدرجة أن معظم العلوم الإسلامية الأصيلة تشترك في بيان ضوابط

(١) صحيح البخارى كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، مجلد ٢، ج ٤، ص ٧٥.

(٢) دكتور صلاح هاشم جمعه، حماية البيئة من آثار النزاعات المسلحة، المجلة الدولية للصليب الأحمر، عدد ٣٢، السنة السادسة، يوليو - أغسطس ١٩٩٣، ص ٢٥٤، وفي الأعمال والدراسات الحديثة المتعلقة بحماية البيئة في فترة النزاع المسلح تراجع أيضاً انطون بوفيه، المجلة الدولية للصليب الأحمر، عدد ٢٨، السنة الخامسة، نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٢، ص ٤٣٤ وما بعدها، كما تراجع:

- Commentaire du protocole additionnel aux Convention de Genève de 12 août 1949. Reatif à la protection des victimes des conflits armés internationaux (protocole 1) Claude Peloud et des autres, Genève 1986 C.I.C.R., P. 679: 682.
- Alexandre Kiss: les protocoles additonnels aux conventins de Genève de 1977 et la protection de Biens l'environnement, Etuds et essais - 1984 P. 181: 192.
- Djamchid MOMTAZ: Les Regles relatives a la protection de l'environnement au cours des conflits armes a l'epreuve du conflit entre l'Irak et le Koweit , AFDI. 1991, XXXVII, P. 203,
- Laurence BOISSON de CHAZOURNES: La Mise en oeuvre du droit international dans le Domaine de la protection de l'environnement : Enjeux et Defis , RGDIP, 1995, Tome IC , Paris P.37,

هذه الحماية والرعاية^(١)، ولعله من أهم هذه العلم علم القواعد الفقهية أو علم الأشباه والنظائر، فلقد تضمن كثيرا من القواعد والضوابط التي تعمل على تفعيل واجب الحماية الدولية للبيئة الطبيعية، ومن هذه الضوابط، ضابط الضرر يزال، والأمور بمقاصدها، والمشقة تجلب التيسير واليقين لا يزول بالشك وغير ذلك من الضوابط التي اقتص بها علم القواعد أو الأشباه والنظائر.

(١) إن حماية البيئة تتصل بعدد من العلوم الإسلامية، وتكشف هذه الصلة عن أن حماية البيئة ليست مسألة دخيلة على العلوم الإسلامية، بل هي من صميم التراث العلمي الإسلامي، ومن هذه العلوم علم أصول الدين، والذي يعمل على حماية البيئة من حيث كونها من مخلوقات الله سبحانه، والتي تشترك مع الإنسان في سجودها لله عز وجل، وتسيبها بحمده، وعلم السلوك والتزكية والأخلاق والذي يعمل على رعاية البيئة من حيث كون هذه الرعاية تدخل في دائرة الخلق، ومن هذه الأخلاق مثلا خلق الإحسان، والذي يجب أن يتوجه أيضا إلى البيئة بكل عناصرها كالإحسان بالحيوان والإحسان بالنبات والإحسان بالماء والإحسان بالهواء، وعلوم القرآن والسنة، وما أكثر الآيات والأحاديث المثورة في هذا البحث والتي تشير إلى رعاية البيئة وحمايتها، ومن دلائل القرآن على رعاية البيئة وحمايتها تسمية عدد من السور القرآنية بأسماء بعض الحيوانات والحشرات والنباتات والظواهر الطبيعية، كالبقرة والأنعام والفيل من الحيوانات، والنحل والنمل والعنكبوت من الحشرات، والتين من النباتات، والحديد من المعادن، والرعد والذاريات والنجم والفجر والشمس من الظواهر الطبيعية، وعلم أصول الفقه والذي يعمل على حماية البيئة من حيث كون حماية البيئة على اختلاف عناصرها تدخل في مصالح العباد في المعاش والمعاد وقد بين الأصوليون أن مقاصد الشريعة هي حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال، وعلم الفقه الإسلامي وقواعده وهو ماستهتم به في هذا البحث. يراجع في ذلك كله د. يوسف القرضاوي، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، دار الشروق ط الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، ص ١٩ وما بعدها.

الخاتمة

وبعد هذه الدراسة الوجيزة عن واجب الحماية الدولية للبيئة الطبيعية في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام نستطيع أن نرصد هذه النتائج .

- أن البيئة الطبيعية قد خلقها الله مهياً على أكمل وجه ، لخدمة الإنسان والاستمتاع بها ، وذلك هو الإصلاح المشار إليه في قوله تعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

- أن الإسلام قد رسخ فكرة الحماية الواجبة للبيئة في مقابل التمتع بها كحق ، وذلك في ضوء القاعدة العامة التي تشير إلى أنه يعطى للمرء من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات ، وهو قوله تعالى : " وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ " ، أما أن التمتع بالبيئة النظيفة حق من حقوق الإنسان فذلك واضح من تسخيرها وتذليلها له ، وأما أن حمايتها واجب إسلامي ، فلأن الاعتداء عليها يمثل اعتداء على التراث المشترك للإنسانية ، ويعد فساداً في الأرض ، ويحول دون أداء وظائفها على النحو المطلوب ، كما يحول دون تمتع الآخرين بها .

- يتفق الفقه الإسلامي مع ما حاول أن ينتهي إليه الفكر القانوني الدولي من اعتبار أن البيئة النظيفة حق من حقوق الإنسان وأن حمايتها ضرورة من الضرورات البشرية ، وتتضمن كثير من الوثائق الدولية هذه النتيجة ، ومن ذلك مجموعة المبادئ التي أقرها مؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة الإنسانية باستكهولم عام ١٩٧٢ ، والميثاق العالمي للطبيعة الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في الثامن والعشرين من أكتوبر من عام ١٩٨٢ ، وكذلك مجموعة المبادئ التي تبناها مؤتمر البيئة والتنمية في ريودي جانيرو بالبرازيل عام ١٩٩٢ .

- إن حماية البيئة الطبيعية تعني المحافظة على مكوناتها والارتقاء بها ومنع تدهورها أو

تلوثها ، وهذا يقتضى واجب تنميتها من ناحية ، وامتدادها هذه الحماية إلى وقت النزاع المسلح من ناحية أخرى، وهذا ما اهتمت به الشريعة الإسلامية وحاول أن يصل إليه فقه القانون الدولي العام أيضا .

وإلى جانب هذه النتائج فإننا نوصى : بضرورة مراجعة التشريعات البيئية، ليكون هدفها الإنسان وتوفير الحياة البيئية الصالحة له ، وضرورة التركيز فى حماية البيئة على الناحية الوقائية التى ركز عليها الإسلام كثيرا ، وأن يكون هناك توازن بين سلامة البيئة وضرورات التنمية، وضرورة الاهتمام بالبعد البيئى فى مراحل التعليم المختلفة، حتى يتعلم ويتدرب الإنسان على السلوكيات البيئية الشرعية الصحيحة، خاصة وأن الضوابط السلوكية الصحيحة لا تعالج فقط التلوث البيئى المادى الخاص بالماء والهواء والجماد والحيوان وغير ذلك ، بل وتعالج التلوث النفسى أيضا الذى يصيب الإنسان من جراء ارتكابه السلوكيات الخاطئة والمعاصى الكثيرة

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد فى الأولين وفى الآخرين ، وفى الملائم الأعلى إلى يوم الدين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



obeikandi.com

قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد وتطبيقها في المجال البيئي

بقلم: د/ على بن عبد الله عسييري (*)

مقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى بيان أهمية القواعد الفقهية في الاجتهاد ومواجهة النوازل المعاصرة عموماً ونوازل البيئة خصوصاً، من خلال التركيز على قاعدة "جلب المصالح ودرء المفاسد" بتوضيح معناها، وبيان منزلتها من علم القواعد الفقهية، وذكر شيء من القواعد المتفرعة عنها، وبيان نواحي تطبيقها في المجال البيئي، وأحوال هذا التطبيق وقيوده، وآثاره. وقد خلصت الدراسة إلى أن قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد وما تفرع عنها من قواعد تُعد أساساً يُرجع إليه في معظم النوازل البيئية، حيث يُعتمد عليها في التدليل على مشروعية حفظ البيئة بجميع أشكالها الحيوانية، والنباتية، والأرضية، والمائية، والهوائية، ومنع الإضرار بها، كما إنها تحكم حالات تعارض المصالح التنموية مع المصالح البيئية، وحالات التعامل مع اجتماع المضار البيئية.

(*) رئيس وحدة البحوث - كلية المعلمين - جازان.

قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد وتطبيقاتها في المجال البيئي

الحمد لله الذي خلق كل شيء بقدر، وصلى الله وسلم على خير البشر نبينا محمد وعلى آله وصحبه السادة الغرر، وعلى من تبعهم بإحسان ما اتصلت عين بنظر وأذن بخبر.

أما بعد:

فقد أنعم الله تعالى على الإنسانية بنبراس تهتدى به، وجعله طريقها إلى سعادة الدارين ونيل الحسنيين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا يَأْتِيَكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿[طه: ١٢٣-١٢٤].

وقد حذر الله -تعالى- بنى آدم من الاعتماد على ما عندهم من علم لم يصدر عن الله تعالى؛ لأن علم البشر قاصر ومحدود، بل ربما قادهم إلى هلاكهم من حيث لا يشعرون.

وأكبر مصداق على ذلك ما تشهده البشرية اليوم من مخاطر غير مسبوقة جرته على نفسها باستخدام ما سخره الله -تعالى- لها للقيام بواجب الخلافة في الأرض على خلاف ما أمر الله به، فقد أمر تعالى بالعدل، والقسط، ونهى عن الإسراف، والظلم، وغرس في نفوس المسلمين أن الأهم هو القناعة التي تجلب البركة، وليس المكائنة التي توجب المحق، لكن جشع القوى المادية في عصرنا الحاضر حملها على التجاوز في الكم، والطغيان في الكيف، فبالقت في الإنتاج دون أن تفكر أو روية مستترقة الموارد ومهدرة الطاقات، وأثقلت كاهل هذا الكوكب بالتلوث بأشكاله الصوتية، والكيميائية، والبيولوجية، بل والنووية، فضلاً عن الملوثات الأخلاقية التي لا تقل خطراً. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وقد تنبه عقلاء العالم إلى ما خلقتة المادية المحمومة من أزمة تهدد وجود البشرية،

فتنادوا إلى لجم جماع عوامل الإضرار بالبيئة، والحد من أثارها الجسيمة، وعقدت لهذا الموضوع مؤتمرات دولية، حضرها زعماء العالم مثل قمة الأرض، إلا أن الطمع والأنانية منع -حتى الآن- من تنفيذ جميع القرارات الصادرة عن تلك المؤتمرات واتخاذ خطوات مؤثرة لتصحيح الخلل الذي أصاب التوازن الذي وضعه الله -تعالى- في هذه الأرض.

وفي مواجهة مثل هذه الأزمات التي منشأها غياب الوازع الديني، والضوابط الأخلاقي، يتجلى دور الدين في قول كلمة الفصل لحمل الناس على الجادة، والله -تعالى- يقول: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبِطُونَ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

أهمية القواعد الفقهية في الاجتهاد في النوازل المعاصرة

أنزل الله شريعة الإسلام لتكون خاتمة الشرائع، وأعلن إكمالها ورضاه عنها بقوله جل وعلا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٤].

وتحقيقاً لوعد الله -تعالى- في إكمال الدين بحيث يجد فيه المسلمون الجواب الشافي لكل ما ألم بهم من قضايا وأحداث، جاءت الشريعة الإسلامية في شكل أصول وقواعد عامة تستجيب لكل تطور وتحدد حكم كل حادثة، ولم ترد الشريعة في شكل قوالب جامدة ليحكم عليها بالتخلف عن ركب التقدم والتقهقر أمام مستحدثات الحياة.

وتضمنت الشريعة قواعد كلية ينضوى تحتها ما لا ينحصر من الفروع الفقهية ومن هذه القواعد: (الأمور بمقاصدها) و(اليقين لا يزول بالشك)، و(العادة محكمة) و(المشقة تجلب التيسير)، وقاعدة (لا ضرر ولا ضرار)..

وفائدة هذه القواعد ضبط الفروع، والمساعدة على تنمية الملكة الفقهية، إضافة إلى المساعدة على الاجتهاد في الفروع المستجدة بحملها على نظائرها وردّها إلى أصولها. ومع وقوع الخلاف في الاستدلال بالقواعد الفقهية لما يرد عليها من استثناءات لعل المرجح أن القواعد الفقهية على نوعين:

١- قواعد هي في حقيقتها نصوص شرعية

مثل قاعدة «لا ضرر ولا ضرار»^(١)، وقاعدة «الأعمال بالنيات»^(٢)، فهذه القواعد ينبغي أن لا يكون هناك خلاف في صحة الاستدلال بها.

٢- قواعد مستقاة من الفروع الفقهية ومستمدة منها

هذا النوع من القواعد يستأنس بها في حال عدم وجود النص المخالف لها؛ لأننا قد علمنا من عادة الشارع الحكيم أنه يجعل للمسائل المتناظرة حكماً واحداً، فكان الأصل اطراد القواعد، أما المستثنيات من القواعد فمرجعها أحد أمرين:

(أ) ورود أدلة خاصة بها

وهذا لا يقدر في القاعدة؛ لأن كل دليل يؤسس قاعدة مستقلة.

(ب) تخلف شرط من شروط القاعدة

وفي هذه الحالة أيضاً لا يكون الاستثناء استثناءً حقيقياً؛ لأن القاعدة لم تكتمل شروطها. وعنى فرص احتمال وجود استثناء، فإن هذا لا يقدر في الاستثناء بالقواعد إلى حين ثبوت الاستثناء، إذ لو قلنا بالتوقف في الدليل حتى يُقطع بعدم الاحتمال لوجب التوقف في جميع الأدلة؛ إذ لا يسلم دليل من وجود احتمال يرد عليه، ومع ذلك يعمل بالدليل حتى يثبت الاحتمال.

ومن هنا تجلّى أهمية القواعد الفقهية في مواجهة النوازل المعاصرة التي تركت كثيراً من الناس في حيرة من أمرهم، واختلطت عليهم الأمور. وفي رد الفروع إلى قواعدها، والحوادث إلى أصولها ما يعصم من ذلك بإذن الله - تعالى -.

(١) رواه ابن ماجه في سننه من طريق عبادة بن الصامت، وابن عباس مرفوعاً ٧٨٤/٢، كما رواه البيهقي في السنن الكبرى من طريق أبي سعيد الخدري ٦٩/٦.

(٢) الحديث متفق عليه من رواية عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- مرفوعاً حيث رواه الإمام البخاري في صحيحه ٣/١، وكذا رواه الإمام مسلم بلفظ إنما الأعمال بالنية ١٥١٥/٣.

وقد جعل الإمام الشاطبي - رحمه الله تعالى - هذه القاعدة أساساً يبنى عليه الاجتهاد الفقهي فقال: "وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو الإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، فقد يكون مشروعاً لمصلحة فيه تستجلب أو لمفسدة تدرأ"^(١).

أهمية الاجتهاد في قضايا البيئة خصوصاً

تعد قضايا البيئة من القضايا التي اشتد الاهتمام بها في وقتنا الحاضر، نظراً لظهور أخطارها وبرزوها للأعيان، وسيطرتها على الأخبار، وما ظاهرتا الاحتباس والحرارى وثقب الأوزون - اللتان شغلنا العالم وأهمتا القاصي والداني - إلا أبلغ دليل على مدى ما تشكله هذه القضية من هاجس وما تمثله من خطر.

وإنما برزت أخطار البيئة في هذا الزمن بالذات بسبب ما اكتسبه الإنسان من مدينة، وما منحه الله - تعالى - من وسائل تعامل معها الإنسان باستخفاف ولا مبالاة، وجهها إلى أمور كمالية ورفاهية على حساب بيئته التي هي شرط من شروط حياته.

لقد كان الإنسان في ماضى أيامه محدود الاحتياجات، قليل التأثير على البيئة، أما في وقتنا الحاضر فإن أطماعه لم تقف عند حد، واحتياجاته لا تنتهي إلى سقف، وأصبح الإنسان يستخدم وسائل ينتج عنها مواد دخيلة على البيئة ومهلكة لها، مثل الغازات السامة والمواد الكيماوية القاتلة والنفايات الضارة.

والتوعية بهذه الأخطار وحدها لا تكفى؛ لأن جشع الإنسان وطول أمله ربما تغلب على صوت العقل، ومن أمثلة ذلك رفض أمريكا التوقيع على اتفاقية «كيوتو» للحد من انبعاث الغازات المؤثرة على طبقة الأوزون - تقديماً لمصالح آنية - رغم أن علماءها هم أول من حذر من هذه الظاهرة.

وهكذا يتضح أنه لم يبق ملاذ إلا السوازع الديني الذي يحكم تصرفات الإنسان المتلزم به ويوجه أعماله.

ولا يمكن للوازع الدينى أن يتحرك إلا فى إطار من الأحكام الشرعية التى توضح حكم كل عمل وكيفية أداء المكلف له، وهذا يحتاج إلى الاجتهاد الفقهي الذى تشكل القواعد الفقهية مفتاحاً هاماً من مفاتيحه وأداة طيعة من أدواته.

وإنه لواجب عظيم على الأمة الإسلامية أن تقدم للبشرية حلولاً لمشكلاتها العصبية مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، فإن فى الوحيين ضماناً للأمة من الزيغ والانحراف، وأمان لها من الهلاك.

ومن أهم القواعد التى تضبط أحكام مسائل البيئة قاعدة «جلب المصالح ودرء المفاسد»، التى سوف أحاول - بإذن الله تعالى - فيما يلى عرض ملخص عنها وعن منهجية تطبيقها فى شؤون البيئة.

أولاً: معنى القاعدة

الجلب لغة: بمعنى إحضار الشيء والإتيان به.

والمصالح: جمع مصلحة، وتعنى المنفعة والفائدة.

والدرء: يعنى الإزالة والدفع.

والمفسدة: تعنى الضرر والشر.

والمقصود بهذه القاعدة: أن الشرع يتشوف إلى جلب الخير والنفع وتحصيلهما، سواء كانا دينيين أو دنيويين عامين أو خاصين، كما أن الشرع يتشوف إلى دفع الشرور والأضرار والتحسين منها، سواء كانت دينية أو دنيوية، عامة أو خاصة.

وكل ما فى الأدلة الشرعية من: الأمر بالخير، والنهى عن الشر، وطلب إيصال النفع، وكف الأذى والضرر، والأمر بالإحسان، وامتداح المحسنين، والنهى عن الإفساد وذم المفسدين، يندرج فى معنى القاعدة.

ومن العلماء من استعمل للتعبير عن هذه القاعدة لفظ: «جلب المنافع ودفع المضار»، والمعنى واحد.

والمقصود بالمصلحة والمفسدة الدينية أو الدنيوية: من حيث هي بالاعتبار الشرعي، وليس باعتبار أهواء النفوس؛ لأن اتباع الهوى المجرد هو مفسدة بحد ذاته.

وتعلم المصلحة والمفسدة الدينية بالنظر في الأدلة الشرعية.

أما المصالح والمفاسد الدنيوية فتعلم بتأملها والنظر فيما تؤول إليه، ثم تستقرأ أدلة الشرع وقواعده لمعرفة الوصف الذي تضيفه على الأمر محل النظر.

ثانياً: منزلة القاعدة من علم القواعد الفقهية

قاعدة «جلب المصالح ودرء المفاسد» من القواعد الكبرى التي يقوم عليها علم القواعد الفقهية، بل إن الشرع كله قائم على هذه القاعدة، قال الإمام العز بن عبد السلام -رحمه الله تعالى-: «.. والشرعية كلها مصالح: إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيراً يحثك عليه أو شراً يزجرك عنه»^(١).

وهكذا تكون كل أدلة الشريعة شاهدة لهذه القاعدة، فكل الأوامر المقصود منها جلب مصالح دينية أو دنيوية عاجلة أو آجلة، وكذلك كل المناهي مقصودها درء مفاسد دينية أو دنيوية، عاجلة أو آجلة، وكل حث على خير وإحسان وعدل هو حث على جلب المصالح، وكل زجر عن شر وإفساد وظلم هو درء لمفاسد.

ومن هذه الأدلة من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَوْلِي سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]. وقال النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»، وقال ﷺ: «إن الله كتب الإحسان في كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»^(١).

(١) قواعد الأحكام: ٩/١.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن شداد بن أوس -رضي الله عنه- مرفوعاً: ١٥٤٨/٣.

ثالثاً: القواعد المرتبطة بها والمتضررة عنها

قاعدة "جلب المصالح ودرء المفساد" قاعدة كلية، تتصل بها العديد من القواعد الفقهية، وهذا الاتصال على وجهين:

(أ) الوجه الأول: الاتصال بطريق العموم والخصوص

وذلك بأن تنصب القاعدة بقاعدة جلب المصالح ودرء المفساد على جانب مما تناولته القاعدة، ومن أمثلة هذه القواعد ما يلي:

١- قاعدة "الضرر يزال"

وهذه قاعدة كلية عظيمة، يتفرع عنها ما لا يحصى من الفروع الفقهية، وهي مأخوذة من الحديث النبوي الشريف: «لا ضرر ولا ضرار»، الذي يعدد أصلاً لهذه القاعدة، ولقاعدة جلب المصالح ودرء المفساد، إلا أن الأخيرة أعم؛ لأنها تشمل التنصيص على جلب المصلحة وإضافة إلى درء المفسدة.

٢- قاعدة "تصرف الإمام على الرعية منوطاً بالمصلحة"

وهذه القاعدة تتناول جانباً خاصاً مما تناولته قاعدة جلب المصالح ودرء المفساد، وهو يتعلق بالإجراءات التي يتخذها الإمام لجلب المصالح ودرء المفساد.

(ب) الوجه الثاني: أن توضع القواعد المرتبطة بالقاعدة أحوال تطبيقها

هذا النوع من القواعد يوضح كيفية تطبيق قاعدة "جلب المصالح ودرء المفساد"، ومن أمثلة هذا النوع:

١- قاعدة "درء المفساد مقدم على جلب المصالح".

٢- قاعدة "المفسدة تدرأ بقدر الإمكان".

٣- قاعدة "إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما".

٤- قاعدة "يتحمل الضرر الخاص لإزالة الضرر العام".

٥- قاعدة "الدفع أسهل من الرفع".

٦- قاعدة "متى أمكن الدفع بأسهل الوجوه لم يعدل إلى أصعبها".

رابعاً: منهج تطبيق قاعدة "جلب المصالح ودرء المفسد" في مجال البيئة

(أ) السعي إلى تحقيق جميع المصالح ودفع جميع المفسد

هذا هو الأصل والمبدأ العام الذي يسير عليه التشريع الإسلامي، فهو يسعى إلى حفظ جميع المصالح، ودفع جميع المفسد.. فجميع المصالح مطلوبة الحفظ، وجميع المفسد مطلوبة الدفع، لكن تتنوع درجة هذا الطلب وجوباً وندباً وتحريمًا وكراهية حسب درجة المصلحة أو المفسدة.

(ب) تحقيق المصالح ودفع المفسد يكون بقدر الإمكان

ما ورد في الفقرة السابقة يشكل المثل الأعلى والهدف الأسمى، وما ذكر في هذه الفقرة يعني الواقعية في التطبيق العملي، باعتبار ضعف الإنسان، وعجزه عن تحقيق جميع المصالح ودفع جميع المفسد، إذ (المفسدة تُدرأ بقدر الإمكان) و(الميسور لا يسقط بالمعسور).

(ج) في حالة عدم إمكان رعاية جميع المصالح ودرء جميع المفسد يقدم

الأهم فالأهم

إذا لم يمكن تحقيق جميع المصالح ودرء جميع المفسد، وعملاً بما ورد في الفقرة السابقة تُقدم المصلحة الأعلى، وتدفع المفسدة الأشد، وتختلف درجات المصالح والمفسد من ثلاث نواحي:

١- من ناحية رتبها،

تنقسم المصالح والمفسد تبعاً للأثر المترتب عليها إلى أقسام ثلاثة:

* الضروري: ويعني بهذا القسم المصالح والمفسد المتعلقة بضرورة من الضرورات الخمس وهي: (الدين، والتنفس، والعقل، والعرض، والمال)، بحيث يترتب على عدم مراعاتها فساد الدين أو الدنيا أو كليهما.

ومن أمثلة هذا القسم فى المجال البيئى التخلص من النفايات النووية، فإنه أمر ضرورى لحفظ النفس والعقل والمال، إذ يترتب على التقصير فى ذلك هلاك الأنفس، والتشوهات والإعاقات، وإفساد الأموال.

✽ الحاجى: وتعنى المصالح والمفاسد التى يفتقر إليها العباد فى دنياهم وأخرهم، بحيث يترتب على عدم رعايتها العنت، والمشقة، والضيق، المنية شرعاً، ومن أهم أمثلة هذا القسم فى المجال البيئى: مكافحة الآفات التى تصيب الثروات النباتية أو الحيوانية.

✽ التحسينى: ويراد بهذا القسم المصالح والمفاسد التى يترتب على رعايتها الرفاهية والجمال، ومن أمثلة هذا القسم فى المجال البيئى: الحفاظ على البيئة جميلة نظيفة، وإزالة التشوه عنها، وتبعاً لهذا التقسيم وتطبيقاً لمبدأ تقديم الأهم والأهم: تقدم رعاية المصالح والمفاسد الضرورية على الحاجية، والحاجية على التحسينية.

وتطبيقاً لذلك، إذا اجتمعت مخاطر بيئية من شأنها القضاء على حياة البشر كالملوثات النووية، ومخاطر تهدد الثروة الحيوانية، ومخاطر تهدد جمال البيئة، ولم يمكن دفع هذه المخاطر جميعاً فى وقت واحد، قُدم إزالة المخاطر النووية؛ لأن إزالتها من قبيل الضرورى، ومن ثم المخاطر التى تهدد بهيمة الأنعام؛ لأنها من قبيل الحاجى، وبعد ذلك يأتى دور تحسين البيئة وتجميلها.

٢- من ناحية تحقق وقوعها

تختلف المصالح والمفاسد من حيث تحقق وقوعها إلى ثلاثة أقسام:

✽ مقطوع بها: بمعنى أن يجزم بالمصلحة أو المفسدة يقيناً، وهذا النوع قليل الوجود بالنسبة إلى النوعين التاليين.

✽ مظنونة: بمعنى أن تكون المصلحة أو المفسدة راجحة الحصول، وهذا هو أغلب أنواع المصالح والمفاسد، على أن رتب الظنون تتفاوت والحكم لأعلاها فى نظر المجتهد.

* موهومة: بمعنى أن تكون المصلحة أو المفسدة مرجوحة، وهذه الرتبة لا اعتبار لها في الغالب إلا من باب الاحتياط.

وتبعاً لهذا التقسيم تقدم رعاية المصالح والمفاسد المقطوع بها، ثم المظنونة، ثم الموهومة، وعليه فالواجب مكافحة الأضرار الواقعة أو المحققة الوقوع، ثم المتوقع حدوثها، فبدلاً من الانشغال ببنزك يسبح على بعد ملايين السنوات الضوئية، وحساب احتمال اصطدامه بالأرض خلال مئات الآلاف من السنين، يجدر الاهتمام بالمخاطر الجسيمة التي تتهدد وجود البشرية حالياً مثل مشكلات: التصحر، وشح المياه، والأمطار الكبريتية، وانتشار الأوبئة المستعصية على العلاج ونحوها.

٢- من ناحية العموم والخصوص

هناك مصالح ومفاسد عامة، وهناك مصالح ومفاسد خاصة، وعموم المصالح أو المفاسد وخصوصهما يكون باعتبار ما يلي:

* العموم والخصوص باعتبار الأشخاص: حيث تكون المصلحة أو المفسدة عامة بهذا الاعتبار إذ نالت أعداداً غير محصورة من الأشخاص، وتكون المصلحة أو المفسدة الخاصة التي تطال فئة مخصوصة منهم.

وقد سبق أن من القواعد: «يُتَحَمَّلُ الضرر الخاص لإزالة الضرر العام»، وتطبيقاً لذلك يمكن إغلاق مصنع يلوث البيئة دفعاً للضرر العام، ولو على حساب ملاك المصنع والعاملين فيه؛ لأن الضرر الواقع عليهم ضرر جزئي خاص، والضرر الخاص بالتلوث ضرر كلي عام.

* العموم والخصوص باعتبار الزمان: على هذا الاعتبار تكون المصلحة أو المفسدة المؤقتة متصفة بالخصوص، أما المصلحة أو المفسدة الدائمة فهي تنصف بالعموم. وتطبيقاً لذلك تقدم المصلحة أو المفسدة الدائمة على المصلحة أو المفسدة المؤقتة.

(د) في حال تساوى المصالح والمفاسد يقدم درء المفاسد

قد تتساوى المصالح والمفاسد في الدرجة وبالذات في المجال البيئي، كما لو أريد إنشاء سد لرى جانب من المزروعات، ولكن يترتب عليه هلاك جانب مماثل منها، ففي هذه الحال يُلجأ إلى درء المفسدة لأنه الأسلم؛ ولأن المفسدة تعتبر بمثابة المحققة، أما المصلحة فقد لا تتحقق لوجود مانع من تحقيقها، كما لو هاجمت المزروعات آفة من الآفات في المثال السابق.

(هـ) جلب المصلحة ودروء المفسدة بأيسر الطرق الممكنة

هذا من يسر الشريعة الإسلامية، والنبى ﷺ قال: «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً»^(١)، وتطبيقاً لذلك وأخذاً من قاعدة "الدفع أسهل من الرفع"، فإن الاحتياط بمنع الكوارث البيئية قبل وقوعها قدر الإمكان هو أولى من انتظار وقوعها ثم محاولة إزالة آثارها.

خامساً: مجالات تطبيق قاعدة "جلب المصالح ودروء المفاسد" في شئون البيئة

(أ) السعى لصالح البيئة

القاعدة عامة في جميع المصالح الدينية والدينية، ولا شك أن الحفاظ على البيئة من الأمور المطلوبة دينياً ودنياً، ويكفى للدلالة على مشروعية الاهتمام بالبيئة أن النبى ﷺ عد أحد مظاهره من شعب الإيمان حيث قال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق»^(٢). وإمتثال قاعدة جلب المصالح يجعل المسلم حريصاً على المبادرة إلى تحصيل ما يصلح البيئة، بدلاً من انتظار حصول المخاطر البيئية ثم محاولة مكافحتها بعد ذلك.

(١) الحديث متفق عليه من رواية أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنهما-، حيث رواه البخارى في صحيحه: ٢٤٩١/٦، وكذلك رواه مسلم في صحيحه: ١٨١٣/٤.

(٢) الحديث متفق من رواية أبى هريرة -رضى الله عنه- مرفوعاً، حيث رواه البخارى في صحيحه: ٨٧١/٢، وكذلك رواه مسلم في صحيحه: ٦٣/١.

(ب) الوقاية مما يضر بالبيئة

سبق بيان المنهج الشرعى فى تطبيق قاعدة "جلب المصالح ودرء المفسد"، وأن ذلك يكون بحسب الوسع وبأيسر الطرق، ولاشك أن الوقاية من أضرار البيئة أيسر من مكافحتها بعد وقوعها، والقاعدة الفقهية تقضى بأن: "الدفع أسهل من الرفع".

(ج) إزالة ما يضر بالبيئة

تطبيق قاعدة "جلب المصالح ودرء المفسد" يقتضى إزالة كل ما يلحق الضرر بالبيئة، للأمر بدرء المفسد والنهى عن إيقاعها.

(د) الموازنة بين حفظ البيئة والتنمية

يُعد تعارض المصالح البيئية مع المصالح التنموية من أكبر المعضلات التى تواجه المهتمين بشأن البيئة فى المجتمعات المعاصرة، فكيف يمكن الحفاظ على البيئة دون الإضرار باحتياجات الناس ورفاهيتهم، وما الذى يمكن احتماله من المضار البيئية، وما الذى يمكن الاستغناء عنه من الأنشطة المضرة بالبيئة.

والقاعدة تقضى بحفظ جميع المصالح، ودرء جميع المفسد، لكن قد لحظ علماء الشريعة أن المصالح والمفسد لا تتمحض إلا نادراً، والغالب احتواء كل مصلحة على نوع مفسدة، واحتواء كل مفسدة على نوع مصلحة؛ لذلك استنبط فقهاء الشريعة قواعد شكلت منهجاً للموازنة بين المصالح والمفسد، وهذه القواعد تصلح للتطبيق فى مجال البيئة للموازنة بين المصالح البيئية والاحتياجات الإنسانية.

وقد سبق ذكر شىء من هذه القواعد التى يقتضى تطبيقها تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، سواء كان العموم: باعتبار الأشخاص، أو باعتبار الأوقات، إذ تغلب المصلحة المستمرة على المصلحة المؤقتة، وتحتمل المفسدة المؤقتة لدفع المفسدة الدائمة.

كما سبق تقديم درء المفسدة على جلب المصلحة في حال التساوى في الدرجة، وفي حال الاختلاف ترتكب المفسدة الأخف لدفع المفسدة الأعلى، أو تهمل المصلحة الأدنى لحفظ المصلحة الأعلى.

لكن ينبغي التنبيه إلى أن هذه الموازنة بين المصالح والمفاسد يجب أن ينبري لها علماء متخصصون في المجالات الشرعية والبيئية، حتى يمكن أن يعطوا لكل جانب حقه، وأن يصلوا إلى الاجتهاد الصائب بإذن الله - تعالى -.

(هـ) كونها مرجعية للتنظيمات البيئية

تُعد الأنظمة من أقوى الوسائل المعتمدة للحفاظ على البيئة؛ نظراً لأن تغليب المصلحة الفردية ربما شجع على التساهل في شئون البيئة، مما يستلزم سن الأنظمة الكفيلة بالمحافظة على البيئة من الانتهاك.

وتمثل قاعدة 'جلب المصالح ودرء المفاسد' أساساً مناسباً تبنى عليه الأنظمة الرامية إلى إصلاح البيئة ودفع الفساد عنها.

بل إن من العلماء من عد المصلحة بشروطها - من عدم معارضتها بنص، وكونها محققة، وكونها ملائمة للمصالح التي شهد لها الشرع بالاعتبار - دليلاً يعتمد عليه في إثبات الأحكام الشرعية في غير وجود نص.

ومن القواعد المقررة أن: 'تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة'، وهذا يعنى أن على الإمام أن يراعى فيما يقدم عليه من تصرفات مصلحة من هو موالي عليهم، فيحق للإمام المنع من التصرفات التي تضر بالبيئة تحصيلاً لمصلحة حفظ البيئة، كما أن له أن يلزم من تحت ولايته باتباع إجراءات تصلح شأن البيئة انطلاقاً من هذه المصلحة أيضاً.

(و) المحافظة على البيئة في النزاعات والحروب

تطورت وسائل الفتك والتدمير في هذا العصر تطوراً مذهلاً بحيث أصبحت

تشكل تهديداً مباشراً للبيئة في حال استخدامها، بحيث يمتد تدميرها لأجيال، ولا بد من وجود ضابط يمنع من الوصول بالحرب إلى مرحلة لا تهلك بالحرب والنسل فقط، بل تحو الحياة عن المناطق المبتلاة بها.

ويمكن اعتبار قاعدة "جلب المصالح ودرء المفسد" مع قول النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار» ضابطاً يمنع من استخدام أسلحة الدمار الشامل؛ لأن الحديث يمنع الإضرار ابتداءً كما يمنع المجازاة على الضرر بالضرر، فالأصل أنه لا يجوز القصد إلى تدمير البيئة عند الحرب، بل يكون الهدف درء مفسدة العدو بأقرب الطرق وأسهلها، مما يعني محاولة إلحاق أقل قدر ممكن من الضرر بالبيئة.

والخلاصة

أن الاجتهاد في شئون البيئة من الأمور الدقيقة التي تحتاج إلى مختصين في العلوم الشرعية وفي العلوم التجريبية؛ لتوزن كل حالة بوزنها وتفرد بحكمها، وأن قاعدة "جلب المصالح ودرء المفسد" وما تفرع عنها من قواعد تُعد أساساً يرجع إليه في معظم النوازل البيئية، حيث يُعتمد عليها في التدليل على مشروعية حفظ البيئة بجميع أشكالها: الحيوانية، والنباتية، والأرضية، والمائية، والهوائية، ومنع الإضرار بها، كما أنها تحكم حالات تعارض المصالح التنموية مع المصالح البيئية، وحالات التعامل مع اجتماع المضار البيئية.



obeikandi.com

إشكالية البيئة والتنمية في العالم الإسلامي

(رؤية اجتماعية)

بقلم: أ.د/ نبيل السمالوطي (*)

تحتل قضايا البيئة وما لحقها من مشكلات أهمية كبرى سواء على مستوى البحث العلمي، أو على مستوى القرارات والمعاهدات السياسية، أو على مستوى الفكر والتنظيمات الاقتصادية ومختلف مؤسسات المجتمع المدني.

وقضايا البيئة متنوعة وتهتم بها العلوم الاجتماعية والإنسانية كما تهتم بها العلوم الطبيعية. ويمكن إيجاز أهم قضايا البيئة ومشكلاتها فيما يلي:

أولاً: الحفاظ على التوازن البيئي. فقد خلق الله سبحانه وتعالى الأرض وما عليها من نبات وحيوان ومناخ وثروات وغازات.. بشكل يلائم تماماً حاجات الإنسان، وبشكل متوازن. يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجن: ١٣]. لكن تدخل الإنسان سواء على المستوى الفردي أو على المستوى الدولي والتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية وتنظيمات المجتمع المدني، هذا التدخل أخل كثيرا بتوازن البيئة. فقد أزلت بعض الدول أجزاء من الغابات وأحلت مدن مكانها، وقامت دول بردم أجزاء من البحار لتوسيع رقعة اليابس في الدولة، وهناك دول قامت بإقامة بحيرات صناعية ذات ثقل كبير. كل هذا من شأنه أن يخل بالتوازن الإلهي للكثرة الأرضية عليها بسبب اختلال التوازن في الثقل على الأرض، وبسبب الاختلال بين البحار واليابس، واختلال الغازات المحيطة بالكثرة الأرضية... الخ.

ثانياً: مشكلة التلوث بكل أبعادها.. سواء بسبب الغازات الضارة المنبعثة من المصانع وأجهزة الاحتراق المختلفة أو بسبب العوادم الصناعية والبشرية، ولعل أخطر أنواع التلوث الإشعاعي، ودفن النفايات النووية تحت الأرض وفي قاع البحار. ويشمل التلوث هنا، تلوث الهواء، وتلوث الماء، وتلوث التربة. وهناك

(*) أستاذ علم الاجتماع بجامعة الأزهر، مقرر لجنة المؤتمرات والندوات برابطة الجامعات الإسلامية.

التلوث السمعي والبصري والشمي.. كل هذه الأنواع تضر بصحة الإنسان وتحدث آثارا مدمرة للتوازن الكوني. هنا تأتي مشكلة ثقب الأوزون ضمن القضايا التي احتلت مساحات واسعة من الاهتمام خلال عام ٢٠٠٢م، لما تسببه من آثار مدمرة للحياة على كوكب الأرض بشكل مباشر. وقد بلغ اتساع هذا الثقب فوق القطب الجنوبي مساحة قياسية هائلة وصلت إلى ٣٠ مليون كيلو متر مربع. وقد بشر بعض المشتغلين بقضايا البيئة أخيراً، بأن طبقة الأوزون تتجه حالياً إلى تجريد نفسها، بعد إن سجل هذا الثقب انكماشاً خلال السنوات الأخيرة.

ثالثاً: مشكلة الاستغلال المسرف لثروات الأرض^(١) الذي يعد أحد الأسباب الرئيسية المدمرة للبيئة فقد أوضح العلماء أن معدل استغلال الإنسان بعض المنتجات والثروات البيئية بشكل يفوق قدرة الأرض على تجديدها بنسبة ٢٠٪ سنوياً.

وقد حذر الصندوق الدولي للحياة البرية من عواقب هذا الإسراف البيئي، وقال إنه في حالة استمرار معدلات الاستهلاك العالية للإنسان، ستصل نسبة عجز الأرض عن تجديد مصادرها البيولوجية والطبيعية إلى ٢٢٪.

وقد ثبت أن التغيرات المناخية المستمرة التي تؤدي إلى زيادة استهلاك الإنسان للغاز والفحم والنفط، هي أساس انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون وغيره من الغازات الملوثة للجو.

هذه المشكلة أدت إلى مشكلة أكبر وهي ظاهرة الانبعاث الحراري (ظاهرة الصوية الزجاجية) التي يعاني العالم منها اليوم. هذه المشكلة تؤدي إلى ارتفاع درجة حرارة الأرض. وهذه الظاهرة الأخيرة تؤدي إلى اختلال بيئي آخر يتمثل في ذوبان جبال جليد في القطب الجنوبي، تهدد بارتفاع منسوب مياه البحار. هذه النتيجة الأخيرة تهدد بفرق الكثير من مناطق اليابس بما عليها من مجتمعات وحياة بشرية وحيوانية ونباتية.

رابعاً: مشكلة انقراض بعض الثروات الحيوانية في العالم. فقد أعلن^(٢) خلال عام

(١) جيلان الحميل: البيئة وسوء الاستغلال: الأهرام- أول يناير ٢٠٠٣م ص ٧.

(٢) المصدر السابق.

٢٠٠٢م أن أكثر من (١١) ألف نوع من الحيوانات مهددة بالانقراض في العالم خلال السنوات المقبلة. ولاشك أن الإنسان هو المتهم الأول في هذا الانقراض نتيجة لعمليات الانتهاك المستمر للبيئة الطبيعية بإزالة بعض الغابات والبحيرات واستعمارها وإحلال غابات من الأبنية الخرسانية مكانها.

خامساً: مشكلة تناقص المياه العذبة النقية في العالم. فالانخفاض^(١) في معدلات مياه الأمطار تؤدي ببعض المناطق إلى التصحر، لكن المشكلة أكبر من هذا بكثير. فقد ثبت أن نصف أنهار العالم تقريبا تعاني تلوثا شديدا، وانخفاضا شديدا أيضا في مستوى مياهها. كذلك فقد ثبت أن بعض بلدان الشرق الأوسط ومناطق مختلفة من الهند والصين وآسيا الغربية والاتحاد السوفيتي سابقا تعاني من تناقص مستوى المياه الجوفية بمعدلات عالية. وقد أكدت بعض الدراسات العلمية أنه بحلول عام ٢٠٢٥م سوف يعاني فردان من كل ثلاثة، من تصور شديد في المياه.

سادساً: مشكلات تآكل التربة، وهي من المشكلات الكبرى المدرجة على أجندة العالم سنة ٢٠٠٣م نتيجة للنمو الديمجرافي المتسارع الذي يشكل ضغطا كبيرا على مساحات كبيرة من الأرض الزراعية الخصبة. وهذه المشكلة تعاني منها المجتمعات كثيفة السكان ذات المعدلات العالية من النمو السكاني، والتي تعيش على الزراعة في مساحات محددة مثل المجتمع المصري حيث تتآكل الأراضي الزراعية القديمة الخصبة بسبب بناء المساكن وتبوير الأرض وإدخال أجزاء منها في كردونات المدن والقرى. هذا بالطبع فضلا عن التجمعات السكنية العشوائية التي تصل في مصر إلى الآلاف، وهي كلها أو أغلبها على حساب الأرض الزراعية.

سابعاً: المشكلات الخطيرة التي تهدد الإنسان بسبب اختلال التوازن بين الغازات على سطح الكرة الأرضية، خاصة في المناطق السكنية كالمدين. فقد حذرت منظمة الصحة العالمية في تقريرها لسنة ٢٠٠٢م من تزايد انبعاث غاز ثاني أكسيد

(١) جيلان الحميل: البيئة وسوء الاستغلال: الأهرام - أول يناير ٢٠٠٣م ص ٧.

الكربون عالميا بنسبة ٤٠٠ مليون طن عن معدلاته السابقة. ونبه التقرير إلى أن نصف سكان الأرض معرضون لتلوث الهواء نتيجة حرق الوقود الصلب المتمثل في الأخشاب والفحم لاستخدامه في أعمال الطهي والتدفئة داخل منازلهم. كل هذا يسبب مشكلات صحية خطيرة في الجهاز التنفسي ويؤدى إلى العديد من الأمراض مثل حساسية الصدر وأمراض الرئة.

ثامنا: الكوارث البيئية بسبب إهمال المسئولين والفنيين مثل كارثة التلوث الإشعاعى التى نجمت عن مفاعل تشيرنوبل خلال فترة الاتحاد السوفيتى ومثل الكوارث البحرية الناجمة عن غرق ناقلات البترول والمواد الكيميائية والمشعة فى البحار والمحيطات. وتشير التقارير إلى أن أخطر الكوارث البيئية البحرية سنة ٢٠٠٢م كانت غرق ناقلة النفط (برستيغ) أمام الشواطئ الأسبانية بعد انشطارها إلى نصفين فى المحيط الأطلنطى. وقد قدرت منظمات البترول كميات النفط المتسربة بحوالى ٢٠ ألف طن، مما يسجل أعلى نسبة تلوث فى مياه البحار. وقد كان من نتائج مثل هذه الكوارث المتعددة انهيار الحياة تحت سطح الماء وموت العديد من الثروات السمكية.

تاسعا: الكوارث الناجمة عن الحروب العالمية والإقليمية ولعل المثال الأشهر استخدام القنابل الذرية من جانب أمريكا فى ضرب هيروشيما ونجازاكي فى اليابان فى الحرب العالمية الثانية. وهناك العديد من الحروب المحلية والإقليمية التى تستخدم الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية، مما يتسبب فى العديد من الكوارث.

عاشرا: الكوارث البيئية الناجمة عن الإرهاب المحلى والدولى. والمشكلة أن المنظمات الإرهابية أصبحت تستخدم غازات سامة كما حدث فى اليابان، وأسلحة بيولوجية - مثل (الجمرة الخبيثة) وغيرها من أسلحة محرمة دوليا. وهذه يذهب ضحيتها ملايين الأبرياء سنويا.

حادى عشر: الكوارث البيئية الناجمة عن البحوث العلمية غير المرشدة، وغير المنضبطة

بالضوابط الأخلاقية أو الدينية - مثل إجراء التجارب النووية، والتفجيرات الملوثة للهواء والماء والتربة، ودفن النفايات النووية في الأرض أو البحار والمحيطات، مما يسهم في إلحاق أضرار بالبيئة وسواردها الطبيعية، والحياة البحرية والبرية والإنسان والنباتات... الخ.

ظهور علم لدراسة البيئة

ظهر علم دراسة البيئة سنة ١٨٦٠م أي منذ حوالي ١٤٢ سنة لدراسة الظواهر المختلفة المحيطة بالإنسان. أما الاهتمام العالمي بقضايا البيئة فلم تظهر إلا في أواخر الستينات من القرن العشرين، عندما ظهرت مشكلة تلوث البحيرات ونسوق الأسماك بها. الاسكندنافية (السويد والنرويج)، وهي مشكلة تلوث البحيرات ونسوق الأسماك بها. هنا لجأت هذه الدول إلى الأمم المتحدة لبحث القضية، وبالفعل عقد مؤتمر لدراسة هذه الإشكالية. ومن هذا التاريخ ظهر الاعتراف الدولي بقضايا البيئة لدى الأجهزة الدولية^(١). وهذا ما سوف نعالجه في الفقرة التالية.

حدائثة الجهود الدولية في مناقشة ومواجهة مشكلات البيئة

إن التعدي على البيئة، وعلى نظمها المتوازنة والتكاملة والمتناغمة التي خلقها الله عليها، أمر قديم يرجع إلى وجود الإنسان على وجه الأرض، ذلك الإنسان الذي قالت عنه الملائكة قبل ظهوره، وبمجرد أن نبأهم الله بخلقه أنه سوف يفسد في الأرض. وما زال لأن الله أعلمهم هذا وبسبب عوامل وتفسيرات متعددة ذكرها المفسرون، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقد اتخذ هذا التعدي على النظام البيئي Ecosystem عدة صور منذ ظهور الإنسان مثل تلوث الهواء بعد اكتشاف النار وحرق الأخشاب للطهي والتدفئة.

(١) ضياء الدين عطية: مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة: رابطة الجامعات الإسلامية ٢٠٠٠م ص ١٨.

لكن الجهود المنظمة لحماية البيئة والحفاظ عليها لم تظهر بشكل منظم إلا في القرن التاسع عشر، في شكل تنظيم مجارى مياه الأنهار والبحيرات الذى بدأ مع إعداد معاهدة باريس ١٨١٤م لتنظيم استخدام مياه الأنهار الراين بين الدول التى يمر بها النهر^(١). كذلك فقد عقدت العديد من المعاهدات والاتفاقيات منذ ١٨١٥م لتنظيم حقوق الصيد والرقابة الملاحية فى الأنهار الدولية، ومناطق المياه العذبة التى توجد على الحدود بين الدول. هذا إلى جانب الاتفاقيات المتصلة بالحفاظ وحماية الحياة الفطرية والطيور النافعة للزراعة. على أن الاهتمام الجدى بحماية البيئة بشكل متكامل لم يبرز بشكل واضح إلا خلال النصف الثانى من القرن العشرين، فقد تم عقد بعض الاتفاقيات الدولية، مثل اتفاقية لندن سنة ١٩٥٤م التى تتعلق بمنع تلوث مياه البحر بالزيت أو النفط، واتفاقيات لاحقة^(٢).

ولم تصدر جهود دولية لحماية البيئة ومكافحة إفسادها إلا حديثاً. فبعد ظهور العديد من التبعيات الدولية على مكونات النظام البيئى دعت الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٦٨م إلى مؤتمر دولى لمناقشة الأخطار التى تهدد النظم البيئية. ولم يعقد أول مؤتمر دولى إلا سنة ١٩٧٢م فى بنكهولم بالسويد المؤتمر الدولى الثانى حول البيئة إلا بعد عشرين عاماً من المؤتمر الأول فى ليدوى جانيرو بالبرازيل فى يونيو سنة ١٩٩٢م. وقد صدر قرار عن الأمم المتحدة رقم ١٩٩/٥٥ بإعداد تقرير كل عشر سنوات عن التقدم الذى يتم إحرازه فى مجال تنفيذ قرارات وتوصيات المؤتمر الدولى الأول سنة ١٩٩٢م، يعرض فى مؤتمر دولى. يعد عشر سنوات من المؤتمر الدولى فى جوهانسبرج بجنوب أفريقيا. وبالفعل عقد هذا المؤتمر فى الفترة من ٢٦ أغسطس إلى ٤ سبتمبر سنة ٢٠٠٢م تحت عنوان (القمة العالمية للتنمية المستدامة)^(٣).

(١) فاروق العادلى: الصياغة الاجتماعية لعلاقة الإنسان بالبيئة فى مصر: دراسات اجتماعية فى البيئة: جامعة الملك عبد العزيز. سهر عبد العزيز: دراسات اجتماعية فى البيئة: جامعة الأزهر ٢٠٠٢م ص ٥.

(٢) راجع أحمد سلامة: التلوث النقطى وحماية البيئة البحرية: المجلة المصرية للقانون الدولى ١٩٨٩م. وراجع أيضاً أحمد سلامة: قانون حماية البيئة: عمادة شئون الطلاب: جامعة الملك سعود-الرياض ١٤١١/١٩٩١م. وراجع كذلك ضياء عطية: مصدر سابق.

(٣) الإيسيكو: العالم الإسلامى والتنمية المستدامة: ٢٠٠٢م: تقرير حول جهود تسبق التحضير للقمة العالمية الثانية حول التنمية المستدامة وتنفيذ الأجندة ٢١ ص ٩ وما بعدها.

وقد جاء مثل الاجتماع الدولي في شكل مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية في ليدو سنة ١٩٩٢م، حدثا دوليا مهما في طريق زيادة الاهتمام بقضايا البيئة والتنمية والحفاظ عليها في توازنها وتكاملها ومنع أو تقليل الاعتداءات الصارخة عليها بكل الإشكال. وكان الهدف من هذا ضمان تحقق الرخاء الاقتصادي والاجتماعي والبيئي للأجيال الحاضرة والقادمة.

وقد كان من أهم نتائج ما أطلق عليه قمة الأرض في (ليدو) سنة ١٩٩٢م أن قادة العالم حددوا وتبنوا جدول أعمال واضح للتنمية المستدامة أطلق عليه (الأجندة ٢١)، وهو (إعلان ليدو للبيئة والتنمية)، وإعلان المبادئ غير الملزم قانونا بشأن اجتماع دولي حول التدبير والمحافظة والتنمية المستدامة لجميع أنواع الغابات والاتفاقيات المرتبطة بمؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية سنة ١٩٩٢م.

وكان من بين الأهداف متوسطة المدى التي حاول هذا المؤتمر تحقيقها، تحقيق التنمية، تفعيلًا للتوازن بين أمرين وهما: الأول إشباع حاجات الإنسان الاقتصادية والاجتماعية من جهة، والثاني مراعاة قدرة موارد الأرض والأنظمة البيئية على إشباع هذه الحاجات الإنسانية للأجيال الحالية، والأجيال المستقبلية أيضا^(١).

وبالرجوع إلى المرصد العالمي للبيئة سنة ٢٠٠٢م نجد أن حالة العالم بالنسبة للتنمية وسلامة البيئة، حالة ليست جيدة. ورغم المبادرات التي قامت بها الحكومات والمنظمات الدولية وأوساط الأعمال والمجتمع المدني والأفراد لتحقيق التنمية المستدامة، فإن معدلات تحقيق الأهداف المخططة كانت بطيئة جداً بالنسبة لما هو متوقع. وفي بعض المجالات صار الأمر أكثر سوءا مما كان عليه قبل عشر سنوات أي قبل سنة ١٩٩٢م.

وقد جاء بتقرير الإيسيسكو، أنه بينما ازداد الوعي بقضايا البيئة (وتم تحقيق تقدم تحقيق تقدم واضح في مجالات محددة مثل الطاقة الريحية، والزراعة

(١) الإيسيسكو: العالم الإسلامي والتنمية المستدامة: ٢٠٠٢م: تقرير حول جهود تنسيق التحضير للقمة العالمية الثانية حول التنمية المستدامة وتنفيذ الأجندة ٢١ ص ١٤.

العضوية، فإن جميع المؤشرات البيئية تقريبا تتقدم في الاتجاه الخاطئ (المرصد العالمي للبيئة سنة ٢٠٠٢م).

أن حالة البيئة العالمية لا تزال هشة، ولا تزال الإجراءات الرامية إلى حمايتها غير كافية. ففي أغلب مناطق العالم النامي تم في أحسن الأحوال تحقيق تقدم في التخفيض من معدلات الفقر. كما تم تحقيق بعض التقدم في المجالات الصعبة، إلا أن مشاكل أخرى برزت، مثل فيروس فقدان المناعة المكتسبة - الإيدز (الأمم المتحدة ٢٠٠٢م)^(١).

ويشير تقرير الإيسيسكو حول جهود تنسيق التحضير للقمة العالمية الثانية حول التنمية المستدامة وتنفيذ الأجندة ٢١، إلى أنه (على الرغم من التقدم الذي تم إحرازه في مجال تطبيق مبادئ التنمية، هناك تحديات رئيسية يتعين مواجهتها. فآثار العولمة لم تناقش على الإطلاق في قمة لديو. ويتعين على الدول الفقيرة والفنية معا بذل المزيد من الجهود لجعل التنمية المستدامة في صميم أهداف سياساتها على جميع المستويات، ولتنفيذ المخططات التي تم الاتفاق بشأنها من قبل.

وتقرير الإيسيسكو يؤكد الحاجة إلى التعاون بين كل دول العالم لتحقيق أهداف التنمية المستدامة. وهنا يذكر التقرير (أن الدول الفقيرة بحاجة إلى الموارد والتكنولوجيا والأسواق والإدارة الجيدة حتى تتقدم نحو التنمية المستدامة. وسيتعين على الدول الغنية إظهار التزام حقيقي لتغيير أنماط الاستهلاك والإنتاج غير المستدامة ولتحقيق فعالية أكبر في استخدام الموارد. ويعد عمل المجتمع المدني والقطاع الخاص أساسيا لتلبية هذه الحاجيات... ويتعين على المخلوقات أن تظهر التزاما أكبر وتخلق أو تسمع بخلق مناخ يسمح بالتغيير)^(٢).

وقد جاء بتقرير الإيسيسكو حول جهود تنسيق التحضير للقمة العالمية الثانية حول التنمية المستدامة وتنفيذ الأجندة ٢١، إنه على الرغم من أن لكل إقليم خصوصياته وأولوياته المرتبطة بالتنمية المستدامة، فإن المجالات التالية تشكل قضايا تحظى باهتمام

(١) الإيسيسكو: العالم الإسلامي والتنمية المستدامة: ٢٠٠٢م: تقرير حول جهود تنسيق التحضير للقمة العالمية الثانية حول التنمية المستدامة وتنفيذ الأجندة ٢١ ص ١٥.

(٢) المصدر السابق ص ١٦ وما بعدها.

مشترك من الجميع. هذه المجالات تتركز في مجالى التنمية المستدامة والحفاظ على البيئة، ومن ثم يجب التركيز عليها في قمم البيئة المختلفة:

أولاً: تنفيذ مبادئ قمة الأرض في لديو، خاصة في مجال مواجهة كل الاعتداءات على البيئة بسبب التلوث في الدول المتقدمة صناعياً، وفي مجال إقرار مبدأ المسؤوليات المشتركة والمتباينة في مجال الحفاظ على البيئة، وفي مجال التنمية.

ثانياً: العولمة. فهناك جهود لجعل العولمة منصفه، وتوظيفها في خدمة التنمية المستدامة ومواجهة مشكلات الفقر والتخلف في قطاع كبير من دول العالم.

ثالثاً: القضاء على الفقر. فهناك خطط لخفض الفقر بنسبة النصف بحلول ٢٠١٥م، وتعزيز الروابط الموجودة بين التنمية والفقر والتجارة والأمن البشرى.

رابعاً: الاستهلاك والإنتاج المستدامان، من خلال آليات مثل الرفع من فعالية الطاقة، والفصل بين النمو الاقتصادى والضغط الممارسة على البيئة والموارد الطبيعية الرئيسية.

خامساً: تدبير الموارد الطبيعية، كالمياه العذبة. والتطهير ومواجهة التصحر، وتوفير المعادن والغازات وتنقية الهواء.

سادساً: الفلاحة والأمن الغذائى. ومن الأهداف المرجوة مضاعفة الإنتاج الفلاحى فى أفريقيا خلال خمس سنوات وتشجيع ما يسمى بالفلاحة المستدامة والتنمية الريفية.

سابعاً: الطاقة يجب على القمم إيجاد وسائل لتشجيع الدول على الحصول على الطاقة، والقيام بمبادرات لاقتسام الطاقة المتجددة والسهلة المنال.

ثامناً: المياه العذبة والتطهير. والمطلوب هنا تحقيق هدف إعلان الألفية الخاص بالحصول على المياه وخدمات التطهير وتدابير موارد المياه.

تاسعاً: الاستيطان البشرى المستدام. من خلال خلق وتنظيم المدن وحل مشكلات المدن الضخمة.

عاشراً: الصحة. تحسين الخدمات كجانب من استراتيجيات مواجهة الفقر.

حداً عشر: التنمية البشرية: فى مجال التربية والتعليم والتشغيل وإدماج قضية النوع البشرى وتنمية الشباب.

ثاني عشر: تمويل التنمية المستدامة، من خلال تعبئة جميع مصادر التمويل، ودعوة الدول المتقدمة بتخصيص ٧,٠٪ من الناتج القومي الخام للمساعدة الإنمائية الرسمية للدول المحتاجة. هذا إلى جانب استخدام آليات إلغاء ديون الدول الأكثر فقرا، وإيجاد مصادر جديدة للتمويل عن طريق المؤتمر العالمي لتمويل التنمية.

ثالث عشر: التجارة وولوج الأسواق: السماح لمنتجات الدول النامية لدخول أسواق الدول الأكثر تقدما، خاصة في مجالات الفلاحة أو المنتجات الزراعية، والنسيج، وإلغاء المساعدات وإجراءات تشجيع التصدير التي تضر بالأسواق، والتخفيض من المساعدات التي تضر بالبيئة.

رابع عشر: نقل التكنولوجيا وبناء القدرات. فقد طوّل مؤتمر القمة الثاني للبيئة الذي عقد في جوهانسبرج في نهاية ٢٠٠٢م تعزيز خلق وسائل فعالة لتسهيل نقل التكنولوجيا، وإجراءات تشجيع بناء القدرات.

خمس عشر: إرساء الإدارة الجيدة، والبنية المؤسسية للتنمية المستدامة. فقد طالب الإيسيسكو بأن تناقش القمة الثانية للبيئة سبل تحسين الإطار المؤسسي للتنمية المستدامة على المستويات الوطنية والإقليمية والعالمية. ويركز البعض على تفعيل الإدارة الوطنية، وخلق الشراكات الفاعلة. وقد تم تحديد السلم والأمن كشرط رئيسي للتنمية.

سادس عشر: متطلبات صنع القرار والإعلام. كل هذا يتطلب تطوير سياسات واستراتيجيات مدروسة وفعالة لتحقيق التنمية المستدامة، وتحقيق المشاركة بكل أشكالها وآلياتها - شعبية - حكومية - إقليمية - دولية... وتطوير الإجراءات لمراقبة التنمية المستدامة.

سابع عشر: الحفاظ على السلم والأمن كأولويات وشروط مسبقة لتحقيق التنمية المستدامة والحفاظ على البيئة، خاصة في المنطقة العربية والإفريقية. وهذا ما أكدته اللجنة، والإعلان المشترك لمجلس الوزراء العرب المسؤولين عن البيئة، ومجلس وزراء البيئة الأفارقة. والأمن هنا يمتد ليشمل القضاء على الفقر ومواجهة مشكلات تدهور المياه والأرض.

ثامن عشرًا، تحرص منظمة المؤتمر الإسلامي من خلال الإيسيسكو على إدراج الجانب الأخلاقي للتنمية المستدامة في إعلان وزراء البيئة بالدول الإسلامية، من أجل إضفاء الطابع الإنساني على التنمية المستدامة. وخطت الإيسيسكو استنادًا إلى إعلان جدة ٢٠٠٠م، وإعلان طهران ٢٠٠١م لمناقشة الوصول إلى قانون أخلاقيات عالمي لقيادة التقدم والتنمية والحوار بين الحضارات استنادًا إلى قيم الإسلام وتعاليمه في مجال التنمية والبيئة.

البيئة: المفهوم والتطور والأخطار

تعامل الإنسان الأول بشكل مباشر مع البيئة دون اعتداء عليها خلال مراحل كثيرة من حياته. فمنذ اكتشاف النار والزراعة واستئناس الحيوان، واكتشاف بعض الموارد الطبيعية كالمعادن بدأ التطور في العلاقة بين الإنسان والبيئة.

وقد تعقدت هذه العلاقة مع تطور الفكر والممارسة الإنسانية، فمع دخول الإنسان في عصر الصناعة وبناء المدن وتحويل المواد الطبيعية إلى مواد مصنعة، ازداد ضغط الإنسان على البيئة. فقد تحولت البيئة من بيئة طبيعية إلى بيئة مصنعة من جانب الإنسان. فقد استغل الإنسان البيئة باستنزاف الموارد من أجل الطاقة والسكن والصناعة والاستثمار وتحسين مستويات المعيشة، وأصبح يلقي فيها فضلاته المنزلية والصناعية، ويلوث أجواءها ومياهها. ومن هنا بدأت تظهر مشكلات البيئة وتتعقد، مع تعقد المستوى العلمي والتكنولوجي والاقتصادي للإنسان والمجتمعات والأمم.

هذه المشكلات والأزمات البيئية التي خلقها الإنسان لم تعد ذات طابع محلي أو حتى إقليمي، ولكن تفاقمت لتصبح ذات اهتمام دولي. وما زالت مشكلات البيئة - الماء - والجو - والتربة ذات طبيعة مجاوزة للحدود السياسية الدولية. ومثال هذا تلوث الأنهار المشتركة بين عدة دول، وتلوث الهواء والبحار والمحيطات التي يشترك فيها مجموعات كبيرة من الدول، ومثل تراكم ثاني أكسيد الكربون في الجو واختلال طبقة الأوزون التي تهدد بارتفاع حرارة كل

الأرض، وغرق العديد من المناطق، وإصابة سكان الأرض بالعديد من الأمراض الفتاكة... الخ.

إذا كانت الدول الأكثر تقدماً هي الأكثر إفساداً للبيئة، فإن الدول الفقيرة هي الأكثر تضرراً لعدم توافر الإمكانيات الكافية لا على صعيد الوقاية، ولا على صعيد العلاج من آثار هذه الكوارث البيئية.

وقد كانت البيئة تعرف بأنها منظومة تتألف من مكونات مادية غير حية، ومكونات حية، والعلاقة بين هذه المكونات المادية والبيولوجية. لكن الأمر قد اختلف الآن كثيراً بعد أخذ البعد البشرى في الاعتبار. ذلك لأن هذا البعد أفسد كثيراً في توازنات البيئة، وتسبب في تلوثها واختلال مكوناتها الطبيعية التي خلقها الله عليها.

وقد تزايدت أهمية العامل البشرى عند مناقشة مفهوم وقضايا البيئة بعد مؤتمرات مهمين حول البيئة.

الأول: مؤتمر ستوكهولم الذي نظّمته الأمم المتحدة بالسويد في الفترة من ٥-١٦ يونيو ١٩٧٢م حول البيئة البشرية، وكان من أوائل المتديبات الفكرية التي يطرح فيها المكون البشرى كأحد المكونات المهمة في تحديد مفهوم البيئة.

الثاني: مؤتمر تبليس الذي عقدته منظمة اليونسكو في جمهورية جورجيا داخل الاتحاد السوفيتي السابق، وذلك بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للبيئة في الفترة من ١٤-٢٦ أكتوبر سنة ١٩٧٧م، حول التربية البيئية. وهو من أوائل المؤتمرات الذي أدخل فيه البعد البشرى ضمن المعالجات الشمولية لمفهوم البيئة^(١).

ولذا نجد أن مفهوم البيئة أصبح الآن يتسم بالانساع والشمول ليشمل كل الأبعاد البيولوجية، والمادية، والبشرية والجغرافية من أرض وجو وماء... الخ. إلى جانب كل العوامل الأخرى التي تلعب دوراً هاماً في تحقيق التوازن للمنظومة الكلية التي تضم كل هذه العناصر.

(١) الإيسيكو: دراسة عن التنمية المستدامة من منظور القيم الإسلامية، وخصوصيات العالم الإسلامي: الإيسيكو: العالم الإسلامي: الإيسيكو: التنمية المستدامة: مصدر سابق: ص ٥١-٥٣.

ولعل العامل الحاسم في هذه المنظومة هو النشاط البشري الذي يظل محتفظاً بتوازن البيئة وتكاملها، أو يخل بهذا التوازن.

التنمية البيئية في العالم الإسلامي

التنمية كعملية وكسياسة وكخطط وكبرامج تستهدف تحسين نوعية حياة الإنسان، والانتقال من حالة غير مرغوب فيها إلى حالة مرغوب في الوصول إليها. وبما أن التنمية ترتبط بإشباع حاجات الإنسان الفطرية والمكتسبة والمتجددة، وهذه الإشباعات لا حد لها، تظل عمليات التنمية الاقتصادية تعنى زيادة كم وكيف الإنتاج أو الناتج القومي، وتعنى تحديث الصناعة والإنتاج وزيادة القدرة على استخدام واستغلال الموارد، وعلى المنافسة، وعلى التصدير، وعلى تلبية مطالب المجتمع وأبنائه... والتنمية الاجتماعية تعنى بتحسين نوعية حياة الأفراد فور فاهيتهم من خلال توفير خدمات السكن الجيد والطاقة والماء والصحة والتعليم والعمل والتربية والرعاية... الخ.

والتنمية الثقافية تعنى بتحسين نوعية وكمية المنتج الثقافي من خلال التعليم ومحو الأمية وحرية الفكر والإبداع وتنمية المواهب وتنوع الثقافات والفنون والآداب والإعلام. فالتنمية تنطلق من الإنسان ويتحقق من خلال تطوير فكر وحياة وأداء الإنسان، وتستهدف تحسين نوعية الإنسان، سياسياً (حرية الرأي والديمقراطية وحرية التعبير والمشاركة في اتخاذ القرار، وحرية النقد والتجمع والحق في الانتماء إلى مؤسسات المجتمع المدني وتفعيلها في خدمة المجتمع)، وثقافياً، واجتماعياً، واقتصادياً...

والتنمية ترتبط بالموارد البيئية وأساليب توظيفها، وهذه الموارد تضع حدوداً أمام عملية التنمية. على أن استمرار التنمية تتطلب حسن استخدام وتوظيف الموارد وعدم إهدارها، أو تلويثها، أو سوء استخدامها. والاتجاه في علاقة البيئة بالتنمية، أن الإنسان يسعى باستمرار إلى استثمار البيئة، وقد يصل هذا إلى حد الاستنزاف والإخلال بها.

والبيئة لها القدرة باستمرار على امتصاص وتجاوز هذه الاختلالات التي يحدثها الإنسان، ما لم تتجاوز هذه الاختلالات قدرة البيئة على الاحتمال. وفي هذه الحالة الأخيرة تصبح التنمية عاملاً مدمراً لمكونات البيئة. ومنذ دخول الإنسان عصر

الصناعة لم يتوقف إخلال الإنسان بتوازنات البيئة، وذلك على العكس من الحال خلال فترة سيادة المجتمعات البدائية الأولية. في هذا العهد الأول كان التوازن كاملا بين الإنسان والبيئة. وبشكل عام فإن الإنسان مطالب بالتوفيق بين أهداف التنمية وضرورات حماية البيئة، وذلك من خلال إعادة النظر أو مراجعة أنماط التنمية التي سار عليها الإنسان حتى اليوم.

هذه الأنماط التي كانت في غالبية الأحوال في مواجهة مستمرة مع البيئة.

وإذا كان الإفراط في الاستهلاك لموارد البيئة في الدول الغنية والمتقدمة اقتصاديا وتكنولوجيا عاملا أساسيا من عوامل تدمير البيئة، فإن الفقر والامية يسهمان كذلك في تخريب البيئة في الدول النامية، ومن بينها دول العالم الإسلامي. ففي البيئات القروية والبدوية، وفي ظل ضعف الإمكانيات، قد تحدث عمليات تسهم في تدمير البيئة مثل حرائق الأدغال، واستصلاح الأراضي، وإزالة الغابات، والرعي المفرط، والتعرية، والتصحر، وإنهاك التربة نتيجة لزراعة نوع واحد من الزراعة، واستغلال الأراضي الهامشية^(١).

وكما تشير دراسة الإيسيسكو فإن هذه المشكلات تزيد حدة وخطورة عندما يصاحبها ظروف مناخية سيئة، وعندما يزامنها تبني بعض الدول الإسلامية نماذج للتصنيع ثبت خطورتها وفشلها في دول أخرى. فقد تكون هذه النماذج الصناعية مهددة للطاقة، أو ملوثة للبيئة، أو مدمرة لصحة الإنسان... الخ.

وإشكالية تدمير البيئة في الدول الإسلامية لا تقتصر فقط على سلوكيات أبنائها، وعلى النمو السكاني المتسارع فيها فحسب، وإنما يسهم في أحداثها مشروعات الدول الصناعية المتقدمة داخل هذه الدول. فالغابات الاستوائية داخل العالم الإسلامي يتم تخريبها بمعدل (٢٥) مليون هكتار سنويا بواسطة المستثمرين الأجانب بسبب نمط المعيشة التي تقوم على التبذير لديهم. وهكذا لا يكون هذا الوجود والاستثمارات

(١) الإيسيسكو: دراسة عن التنمية المستدامة من منظور القيم الإسلامية، وخصوصيات العالم الإسلامي: الإيسيسكو: العالم الإسلامي: الإيسيسكو: العالم الإسلامي والتنمية المستدامة: مصدر سابق: ص ٥٦-٥٧.

الأجنبية داخل العالم الإسلامي عاملا من عوامل النمو، بقدر ما يكون عاملا من عوامل تدمير الثروات الوطنية فيها. وهذا يؤثر على مستقبل الجيل الحالي والأجيال المقبلة. وعلى الرغم من كل هذا تقع هذه الدول الإسلامية في شرك المديونية والتبعية واختلال الميزان التجاري لصالح الدول المتقدمة.

كل هذا يعنى أن تدمير موارد العديد من الدول الإسلامية، والاعتداء على البيئة فيها لا يرجع كله إلى تصرفات أبناء هذه الدول، ولكن يرجع إلى استنزافات تاريخية ومعاصرة لدول أجنبية من جانب الدول الصناعية الغربية.

هذه الأخيرة كانت هي الدول المستعمرة، ثم أصبحت لها حق استثمار الثروات في بعض هذه الدول دون رقابة فعالة من الحكومات المحلية لانعدام الوعي وانعدام القدرة. كما تشير دراسة الإيبسيكو فإن (البيئة في الدول الإسلامية تعاني من ويلات التأخر في عين المكان، ومن تأثيرات التنمية في العالم المتقدم. في عين المكان يعد الفقر والامية والجهل والأحوال الاقتصادية والبيئية والنمو الديمجرامى من أهم أعداء البيئة، بينما عن بعد تأتى التنمية الاقتصادية للدول الغنية التى غالبا ما تملى على الدول الفقيرة بكيفية غير معلنة طريقة استغلال بيئتها^(١)).

وإشكالية لامبالاة سكان الدول الإسلامية تجاه قضايا البيئة، وانخفاض وعيهم بأهمية هذه القضايا وتأثيرها المدمر عليهم وعلى الأجيال القادمة، يرجع إلى عدة عوامل متكاملة. وأهم هذه العوامل نسبة الأمية الهجائية العالية التى تصل إلى ٥٠٪، فضلا عن الأمية العلمية أو الثقافية أو الدينية. وحتى لدى المعلمين والمثقفين، فإن قضايا البيئة عادة ما لا تكون واضحة لديهم. كذلك فإنها غالبا ما تنحصر فى مسائل التلوث والنظافة وغرس الأشجار. وغالبا ما يناقش المثقفون فى العالم الإسلامى مشكلات البيئة فى ضوء التقدم الصناعى والتكنولوجى، متجاهلين أثر الفقر والتخلف على تدمير البيئة وهو أمر شائع فى العالم الإسلامى.

(١) الإيبسيكو: دراسة عن التنمية المستدامة من منظور القيم الإسلامية، وخصوصيات العالم الإسلامى: الإيبسيكو: العالم الإسلامى: الإيبسيكو: العالم الإسلامى والتنمية المستدامة: مصدر سابق: ص ٥٨.

ويضاف إلى هذا كله أن غالبية سكان الدول الإسلامية لا يعرفون معنى وجود مشكلات بيئية، فالوعى البيئى لديهم فى أدنى درجاته. وهم غالبا ما يرجعون ما يصيبهم من مشكلات ناجمة عن البيئة، إلى القضاء والقدر. ولعل عدم ظهور الآثار المدمرة للبيئة إلا بعد وقت طويل، هو السبب فى عدم استجابة قطاعات كبيرة من سكان العالم الإسلامى للمشاركة الإيجابية فى حملات ودعوات حماية البيئة. والكثير من الدول الإسلامية لا يتوافر لها معايير محددة بسلامة الإجراءات أو السلوكيات أو انحرافها من منظور البيئة. كذلك لا يتوافر الرقابة الكافية على سلوكيات الناس، والمزارعين، والقطاع الخاص، والاستثمارات الأجنبية... وهكذا تصبح غياب المعايير، وغياب الرقابة عاملا جوهريا فى سيادة اللامبالاة إزاء قضايا البيئة. وإذا كان انعدام الوعى واللامبالاة من عوامل انتهاك البيئة فى الدول النامية والإسلامية، فإن القصور التشريعى عامل آخر مهم. وإذا وجدت بعض التشريعات، فإنها غالبا ما لا تكون مناسبة للواقع الاجتماعى والثقافى والاقتصادى، أو منقول من دول أخرى، الأمر الذى يجعل هذه التشريعات تولد مية لعدم مراعاتها للواقع الثقافى للمجتمع.

تحديات التنمية البيئية فى العالم الإسلامى:

أولاً: التحدى الثقافى المتمثل فى الجهل والامية والفقر الثقافى وانعدام الوعى البيئى. هذا إلى جانب عدم كفاءة نظم التعليم فى هذه الدول كما وكيفا، وعدم قدرة التعليم - ما قبل الجامعى وما بعده على تنمية الوعى البيئى على المستويات الثلاثة للوعى - المعرفة، والاعتقاد، والسلوك لدى منتجات هذه النظم التعليمية.

ثانياً: المشكلات البيئية مشكلات عابرة للحدود وللدول وللقارات، ولعل أكبر هذه المشكلات هى:

أ- مشكلة التغيرات المناخية. وتحمل الدول الصناعية المتقدمة المسئولية الأولى عنها. فصناعة هذه الدول الضخمة بإفرازاتها المختلفة أدت إلى تهتكات فى ثقب الأوزون، وانبعاث ثانى أكسيد الكربون بنسب كبيرة، وإلى ارتفاع معدل حرارة الكرة الأرضية ودول

العالم النامي والإسلامي، خاصة في أفريقيا هي الأكثر تضررا على الرغم من أنها ليست السبب في هذه الكارثة. هذه الدول لا تملك الإمكانيات والوسائل على المستوى الوقائي أو العلاجي. وأبرز النتائج لهذه الكارثة البيئية: اختلال الدورة المائية، مما نتج ويتج عنه الشح في توافر مياه الشرب والزراعة والصناعة في العالم الإسلامي.

ثالثا: تعد الدول الإسلامية من أكثر الدول تأثرا وتضررا من التراجع البيولوجي والتصحر. فالتنوع البيولوجي من أهم عوامل تحقيق التوازن في البيئة. هذا بالطبع إلى جانب كونه من أهم عوامل التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الدول. ولعل من أهم الأمثلة على هذا التراجع البيولوجي، انقراض العديد من الأسماك والحيوانات أو قلة عددها وضعف نموها. كذلك من الأمثلة انهيار الغابات نتيجة الحروق والإزالة، وبالتالي انهيار ثروات نباتية هائلة. أما إشكالية التصحر نتيجة لقلّة المياه قد أصابت العديد من دول العالم الإسلامي، وما تزال تهدد العديد من دوله. والتصحر يعني فقدان ثروات نباتية ومائية شاسعة، كان يمكن استثمارها في التنمية الزراعية والسياحية والبنية التحتية للدول.

رابعا: إشكالية عوامة الاقتصاد. فتحرير التجارة والاقتصاد وإزالة الحواجز الجمركية سيكون لها انعكاساتها على قضايا البيئة لجميع الدول. فالدول النامية والفقيرة ومنها الدول الإسلامية ملزمة بمراعاة معايير الجودة للسلع المصدرة للخارج. وفي مقدمة هذه المعايير مراعاة عدم تلوث البيئة أو الاعتداء عليها خلال عملية الإنتاج. ولهذا سوف تحرم الدول الإسلامية من تصدير الكثير من منتجاتها الزراعية والصناعية لعدم توافر هذه المعايير (الأسمدة، والكيماويات، والمبيدات، وعمالة الأطفال... الخ).

ولتجاوز هذه المعوقات تحتاج الدول الإسلامية لرؤوس أموال وخبرات وتكنولوجيات وأساليب إدارة وإنتاج تعجز عنها ميزانياتها المثقلة.

obeikandi.com

تتمية البيئة وحمايتها من منظور إسلامي تربيوي

بقلم: أ.د. مصطفى محمد رجب (*)

لقد خلق الله الدنيا بما فيها من منافع و ثروة وخيرات، وسخرها جميعاً تسخير تمكين وانتفاع، واقتضت حكمته تعالى أن يخلق فيها من يستعمرها ويفيد من خيراتها ويحافظ على نعم الله فيها، فلا بد أن يتق الله فيما أنعم عليه، ويشكره بالحفاظ على نعمه الكثيرة، ويلتزم بمنهج الإسلام في حماية البيئة.

البحث الأول

الإنسان ومسئولية الخلافة في الأرض

أولاً: تكريم الإنسان واستخلافه

خلق الله الإنسان في الأرض ثم استعمره فيها، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [مؤد: ٦١]. في حين يشارك الإنسان على هذه الأرض مخلوقات وكائنات أخرى من حيوانات ونباتات وغيرها، غير أن الله - سبحانه وتعالى - فضل الإنسان على سائر المخلوقات، وسخرها لخدمته، ومكنه من الانتفاع بها. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وحتى يتمكن الإنسان من الانتفاع من هذه المخلوقات فقد^(١) أوجدها الله على هيئة من التوازن، بحيث لا يطغى بعضها على بعض، ولا يدمر بعضها بعضاً، الأمر الذي قد يحول بين الإنسان والانتفاع بها، أو قد يحيل بعضها إلى مصادر ضرر عليه. قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَشْبَتْ فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

وقد فتح الله للإنسان أبواب العلم على مصارعها؛ لعمارة الأرض التي استخلفها للإنسان؛ ليكون معمرًا لها غير أنه اكتشف تفتت الذرة، فصنع منها القنابل، وخرّب بها الديار، وقضى على الإعمار، وخلق بعد ذلك مشات الألوف من المشوهين والعجزة الذين يرون بطن الأرض خيراً من ظهرها^(٢).

(*) أستاذ بكلية الشريعة - جامعة اليرموك.

(١) زيد محمد الروماني، "المنظور الإسلامي لمشكلة البيئة"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٥٩ ديسمبر ١٩٩٥م، ص ٤٢.

(٢) عاصم محمد بهجت البيطار، التلوث أولاً، التلوث ثانياً، التلوث ثالثاً، مجلة الفصيل، العدد ٢٢٠ يناير

١٩٩٦م، ص ١٠٠-١٠١.

ولكن معالم الرسالة الإسلامية في المحافظة على ما استخلف فيه الإنسان^(١) تنبعث من القرآن الكريم حيث قال الله -تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نَسْبِحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وقد نبه الله في الآية والآيات السابقة على إعمار الأرض وعدم الإفساد فيها، فقال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [مورد: ٦١]، وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [مورد: ٨٥].

لذا فإن الإنسان مقيد بمراعاة الاعتدال وتجنب الإسراف والبطر والتجبر، وكل ما من شأنه الإخلال بالتوازن البيئي. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

إن كل مكونات البيئة في هذا الكون الفسيح قد أعدها المولى سبحانه وتعالى لاستقبال الحياة، ولكفالة الأحياء، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

ثانياً: الحكمة من خلق الإنسان واستخلافه في الأرض

إن الحكمة من خلق الإنسان واستخلافه على الأرض، وتسخير الكون، أدركها المسلمون وفسرها العلماء؛ لهذا تعامل المسلم مع بيئته بصورة متطورة، وحرص على استغلال المحيط الذي سخره الله بالعلم والوعى، فكان التغيير الذي عرفه المجتمع الإسلامي، ثم بوتيرة سريعة أفادت وأذهلت العالم. أمة انطلقت من صحراء قاحلة جرداء استطاعت في ظرف وجيز أن تسيطر على بيئتها وتتحكم فيها بطرق ووسائل مبتكرة، واستغلت الموارد الطبيعية والبشرية لخدمة التنمية الشاملة.^(١)

ومما ورد في كتاب "في ظلال القرآن الكريم"، للشيخ سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

(١) راغب محمد السعيد، "الإنسان والكون في انقرآن الكريم"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٣٩ إبريل ١٩٩٤م، ص ٤٧.

(٢) الزبير مهدي، "العمل في الفكر الإسلامي"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٤٢، يوليو ١٩٩٤م، ص ٧٣-٧٤.

.. وإذن فهي منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان فى نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة، وهو التكريم الذى شاء له خالقه الكريم...".

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]

يوحى قول الملائكة هذا بأنه كان لديهم من شواهد الحال، أو من تجارب سابقة فى الأرض، أو من إلهام بصيرة ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق، أو من مقتضيات حالة على الأرض، وما يجعلهم يتوقعون ويعرفون أنه سيفسد فى الأرض ويسفك الدماء.. "لقد حفيت عليهم المشيئة العليا فى بناء الأرض وعمارتها وفى تنمية الحياة وتنويعها، وفى تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود فى تطويرها وترقيتها وتعديلها على يد خليفة الله فى أرضه"^(١).

ثالثاً: الإسلام والاهتمام بالإنسان جسمياً وعقلياً وروحياً

التعليم الإسلامى لم يكن أبداً جانباً فى الاقتصاد فقط، بل كان الوسيلة لإنشاء الفرد المسلم المستوعب للقيم الدينية، المتشبع بها، فاعتبر المسلمون التكوين المهنى جزء من عمل المؤسسة التعليمية الإسلامية، التى من أهدافها تربية الناشئة تربية شاملة تحقق الكمال الإنسانى الدينى والعقلى والبدنى.

يقرر ابن سينا (ت: ٤٢٩ هـ) أن توجيه الطفل نحو التكوين المهنى يجب أن يتم بعد انتهاء الطفل من تعلم القرآن الكريم، ومعرفة الدين الإسلامى، وحفظ أصول اللغة العربية، بعد ذلك ينظر إلى ما يراد أن تكون صناعته فيوجهه لطريقه^(٢).

ويشترط ابن سينا لمؤدب الطفل إذا أراد توجيهه إلى صناعة ما أن يزن طبعه ويختبر ذكائه، وعلى ضوء نتائج هذه الفحوص والاختبارات يختار له الصناعة الملائمة.

(١) سيد قطب، "فى ظلال القرآن الكريم"، المجلد الأول، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٠م، ص ٥٦-٥٧.

(٢) الزبير مهاد، "الإسلام والتربية العقلية"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٤٢، يوليو ١٩٩٤م، ص ٧٤.

... إلى جانب التكوين المهني الخاص السليم والشامل، يجب توجيه الاهتمام إلى صحة الإنسان النفسية؛ لضمان سلامة نموه العقلي والنفسى، وتحقيق تكيف ذاتي واجتماعي متوازن؛ لأن السبيل نحو سلامة المجتمع يمر حتماً عبر سلامة الأفراد. لكي تصبح التربية العقلية قدرات ومهارات فعلية لا بد لها من حافز يخرجها من حيز العلم والمعرفة إلى تجربة عملية يتنفع بها الفرد والمجتمع^(١).

كما أكسب الإسلام التربية العقلية هذا الحافز عندما فرّق بين الذين يعملون والذين لا يعملون، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال ﷺ: «من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة...» (رواه مسلم عن أبي هريرة).

رابعاً: الشريعة والبيئة والإنسان

إن الشريعة الإسلامية - ومن خلال القرآن الكريم والسنة النبوية - وضعت تصوراً شاملاً للبيئة شمل الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد، والماء، والهواء، وجعل الإنسان مكرماً على سائر المخلوقات، وسخرت له انطلاقاً من قاعدة الاستخلاف.

لقد أسست الشريعة الإسلامية مبدأ سد الذرائع إلى الفساد أيًا كان نوعه؛ تفسيراً للتعامل مع البيئة بما يدرأ عنها المفسدة إبان التصرف السيء في المباحات أو الحقوق، فضلاً عن المجاوزة والعدوان. إن الالتزام بنظافة البيئة من الأمور الأساسية التي حرص عليها الرسول الكريم ﷺ، وأوحى بها إلى المسلمين إذ نص أكثر من حديث على أن النظافة من الإيمان، والحق أن إفساد البيئة وتلويثها المضنى لها إنما يبدأ من تلويثها السير أو عدم الالتزام بالنظافة وإماطة الأذى عن البيئة^(٢).

(١) محمد السيد الملبجي، 'الإسلام والتربية العقلية'، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٦٥، يونيو ١٩٩٦م، ص ٢٦.

(٢) زيد محمد الرماني، 'المنظور الإسلامي لشكلة البيئة'، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٥٠، ديسمبر ١٩٩٥م، ص ٤٣.

وقد قال الرسول ﷺ: «إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، فنظفوا أنفسكم ولا تشبهوا باليهود» (رواه الترمذي). وقد عنى الإسلام عناية خاصة بنظافة البيئة باعتبارها المحل الذى يقيم فيه الإنسان، ويحصل فيه على احتياجاته، ويمارس فيه عبادته لربه، وأعماله التى تعينه على مواجهة متطلبات الحياة، كما ترتبط نظافة البيئة فى الإسلام ارتباطاً مباشراً بالطهارة، والطهارة فى اللغة هى: النزاهة من الأقدار، وفى الشرع تعنى: "رفع ما يمنع الصلاة من حدث أو نجاسة"^(١).

(١) محمد السيد أرتاؤط، "التلوث البيئي وأثره على صحة الإنسان"، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الدار اللبنانية، ١٩٩٧م، ص ٢٢٨-٢٣٧.

المبحث الثاني

الإسلام ودعوته إلى الحفاظ على البيئة ومواردها

إن موارد البيئة هي من أجل نعم الله على البشر، وأن الله قد أعطانا جميعاً حق الانتفاع بها، فلا يحق لطائفة الاستئثار بها دون غيرها، والإنسان وصى على البيئة؛ لأنه خليفة الله في الأرض، ووصى على البيئة وليس مالكاً لها، فعليه من هذا المنطلق أن يأخذ منها بقدر مع أداء حق هذه النعمة وشكرها بالمحافظة عليها، وبإعطاء حق الله فيها للمحتاجين.

أولاً: دعوة الإسلام إلى المحافظة على نعم الله

إن شكر النعمة عامل من عوامل استدامتها. قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ [إبراهيم: ٧]. وكفران النعمة مدعاة لزوالها. قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ [النمل: ١٢].

إن المحافظة على مكونات البيئة جزء من عقيدة المؤمن. قال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق» (رواه البخاري ومسلم).

ويجب علينا أن نتعامل مع البيئة من منطلق القواعد الفقهية الأصولية العامة، مثل درء المفاسد مقدم على جلب المصالح (ولا ضرر ولا ضرار)^(١).

ثانياً: حرص الإسلام على حماية البيئة

لقد حذر الإسلام من كل تغيير كمي وكيفي في مكونات البيئة الحية وغير الحية؛ لأن ذلك سوف يؤدي إلى عدم مقدرة الأنظمة البيئية على استيعابها دون أن يختل توازنها، وبالتالي حدوث التلوث البيئي، ولقد خلق الله - سبحانه وتعالى - الكون وفيه

(١) عبدالحكم عبد اللطيف الصعدي، "البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني"، الطبعة الثانية، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٦، ص ١٤٩.

توازن بيئي متكامل بين الكائنات الحية وغير الحية^(١)، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

كما أن السنة المطهرة تذخر بما يؤكد هذا التصور الإسلامي بين الإنسان وما تحويه بيئته من موجودات حية وغير حية، فقد كان رسول الله ﷺ يقول عن جبل أحد وهو يدلله تدليل الصديق: «هذا جبل يحبنا ونحبه». ومن البين أن افتقاد البشرية لهذا البعد الإيماني، والشعور النفسى القائم على المعرفة الصحيحة لطبيعة العلاقة بين الإنسان والبيئة^(٢)؛ لذا يجب علينا اتباع المنهج الإسلامى فى تحقيق الأمن البيئى.

ثالثاً: مراقبة الله والحفاظ على جمال البيئة

لما كان الجمال مقصوداً قصداً فى خلق الكون، وكان البعد الجمالى ضرورياً فى علاقة الإنسان بالبيئة، فإن ما يحدث فى عصرنا فى علاقة الإنسان بالبيئة، وما يحدث فى عصرنا من أشكال التلوث البيئى المختلفة يجب النظر إليه على أنه اعتداء أليم على توازن البيئة المحكم، وتشويه متعمد لشكلها الجمالى الذى جعلها الله عليه، ومن ثم يكون العمل على حماية البيئة من مختلف أشكال التلوث والفساد والإبقاء على الجمال فى صفحات الكون مطلباً إسلامياً تستحث لأجله الهمم، وتُستثار العزائم^(٣).

رابعاً: حرص الرسول ﷺ على النظافة وحماية موارد البيئة

يأمر الرسول ﷺ -حفاظاً على البيئة وعلى الإنسان- أتباعه بالنظافة البدنية، ونظافة المسكن، ونظافة الشوارع والساحات العامة المحيطة بالبيوت؛ لأن نظافة المسكن من نظافة ساكنيه، ونظافة المدينة من نظافة أحيائها، فالقمامة المتراكمة تجذب الحشرات الناقلة للمرض، فالذباب المنزلى، وذبابة اللحم تنقل أمراضاً متعددة^(٤).

(١) حمدى عبد العزيز السعداوى، "التلوث البيئى والإعجاز العلمى فى القرآن الكريم"، مجلة الوهى الإسلامى، العدد ٣٨٠، أغسطس/ سبتمبر ١٩٩٧م، ص ٥٢.

(٢) أحمد فؤاد باشا، "البيئة ومشكلاتها من منظور إسلامى"، مجلة الأزهر، الجزء السابع نوفمبر/ ديسمبر ١٩٩٦، ص ١٠١٩.

(٣) أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص ١٠٢٠.

(٤) أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص ١٠٢٠.

ولم يفت المصطفى ﷺ أن يوصى الإنسان بأمن بدنه ونظافته لحمايته من الأوبئة والأمراض. عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من بات وفي يده ريح ضمير فأصابه فلا يلومن إلا نفسه» (١).

وكان ﷺ أحسن الناس مظهراً وأجملهم ثياباً، وكان يحث أصحابه على نظافة ملابسهم، فقد رأى ﷺ رجلاً عليه ثياب متسخة فقال: «أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه» (رواه أبو داود). فالرسول بقوله هذا يدعو المسلمين إلى عدم تقليد هذا الرجل بترك ملابسهم متسخة، وقد جعل الإسلام طهارة الثياب شرطاً لصحة الصلاة (٢).

ونظافة المكان دليل على الإيمان، فقد حث الرسول ﷺ على نظافة البيوت فقال: «إن الله طيب يحب الطيب جواد يحب الجواد، كريم يحب الكريم، نظيف يحب النظافة، فنظفوا أفئيتكم ولا تشبهوا باليهود» (رواه أبو الترمذ).

خامساً: الاقتداء بالسنة النبوية يحفظ الإنسان من خطر التلوث

ولم يفت المصطفى ﷺ أن يوصى الإنسان بأمن بدنه ونظافته لحمايته من الأوبئة والأمراض. عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من بات وفي يده ريح غمر فأصابه فلا يلومن إلا نفسه». وريح الغمر أثر الأطعمة والدهون العالقة بيد الإنسان، وهنا يأمرنا الرسول ﷺ بالنظافة لحماية بيتنا الذاتية الشخصية الخاصة بكل فرد منا، فهناك العديد من الحشرات التي تمرح ليلاً باحثة عن طعامها، وتجذبها رائحة الدهون والفضلات، ولعل من أهم هذه الحشرات الصراصير والجراد والبراغيث، فالصراصير التي ترد على القاذورات وتلوث أطعمتنا وبعض أجزاء من جسمنا هي خير ناقل ميكانيكي لكثير من الطفيليات البدائية والترشيحات (الحمى الراشحة) (٣).

(١) هواد جاسم الجدي، «الأمن البيئي من منظور إسلامي»، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٥٠ شوال ١٤١٥، ص ٧١.

(٢) محمد السيد أرناؤوط، «التلوث البيئي وأثره على صحة الإنسان»، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الدار اللبنانية،

١٩٩٧م، ص ٢٢٨-٢٣٧.

(٣) المرجع السابق.

لا يزال التاريخ يحتفظ بسجلاته عن كوارث الطاعون، ذلك الوباء الخطير، ولا تزال في الذاكرة حوادث انتشار الطاعون في الهند في الأعوام السابقة، حيث عزلت عن العالم، وأوقفت كافة الخطوط الجوية العالمية رحلاتها إلى هناك، وقد قال الرسول ﷺ عن الطاعون: «الطاعون بقية رجز أو عذاب أرسل على طائفة من بني إسرائيل، فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه، وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تهبطوا عليها» (رواه البيهقي والترمذي). في هذا الحديث الشريف إشارة واضحة ودليل قاطع على الاحترام والمحافظة على البيئات النظيفة الخالية من الأمراض والتلوث، وحصر البلاء والوباء في بيئة المنشأ؛ لكي لا ينتقل إلى البيئات الأخرى.

سادساً: الإسلام والبيئة والتربية الجمالية

لا شك أن الإسلام يدعو إلى الجمال في كل شيء؛ ولذا قال المولى -تبارك وتعالى-: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]. ففي هذه الآية حث على التزين والجمال عند الذهاب إلى المسجد، وحث على النظافة لأنها دليل الإيمان. التربية الجمالية تعبير يقصد به الجانب التربوي الذي يوافق وجدان الفرد^(١) وشعوره، ويجعله مرهف الحس مدركاً للجمال، فيبعث ذلك في نفسه السرور والارتياح، ويرتقى وجدانه، وتهذب انفعالاته، وكل هذا يساعد على قوة الإرادة وصحة العزيمة، ومن هنا نقصد بذلك دعوة القرآن الكريم للنظر والتدبر في آيات الكون ومفردات الطبيعة، والانفعال بها؛ لأن ذلك يربى عند الإنسان شعوراً جمالياً يتمثل في الانسجام الدافئ بينه وبين الطبيعة يقوده من خلال جمالها إلى معرفة جلال الله -تعالى- إلى إدراك وحدانيته سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاهُ مُصْفراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

(١) محمد السيد المليجي، 'الإسلام والتربية الجمالية'، مجلة الوحي الإسلامي، العدد ٣٧٤، فبراير ١٩٩٧، ص ٧٦-٧٧.

والترية الجمالية تدعو أيضاً إلى المحافظة على الأشجار وتحث على زرعها؛ لأن ذلك يؤدي إلى تحسين البيئة وجمالها لأن "... الأشجار والنباتات ليست فقط مصدر للغذاء، وإنما تشكل مخزون للطاقة التي تنطلق عند تحلل المواد العضوية المعقدة أو عند احتراق أعشابها أو عند التغذية على ثمارها، كما أن الأشجار والنباتات منظومة أخذ وعطاء مع الهواء والأرض، فهي تمتص أكاسيد الكربون وتطلق غاز الأكسجين في الهواء، وتثبت التربة وتحميها من التصحر منها العناصر المعدنية وتنقل إليها المواد الأزوتية العضوية"^(١)؛ لذا يجب المحافظة على الأشجار والدعوة إلى التشجير.



(١) جهاز شئون البيئة، "البيئة علم وسلوك"، القاهرة، دار إلياس العصرية، ١٩٩٤م، ص ١٢.

المبحث الثالث التلوث البيئى ودور الإسلام فى الوقاية منه

أصبحت قضايا ومشكلات البيئة محل اهتمام مكثف على مختلف المستويات، فهى موضوع الساعة فى الوقت الحالى، بعد أن تبين للعالم أنها ذات تأثير عظيم الخطر على بنى الإسلام أينما وجدوا، ليس فقط فى الحاضر، وإنما أيضاً فى المستقبل، والإسلام بدعوته يقوم على وجوب المحافظة على البيئة وجمالها التى خلقها الله - سبحانه وتعالى -؛ لكى ينعم الإنسان بجمالها ويستفيد من خيراتها، ولكى يشكر الإنسان ربه عظيم الشكر على ما أنعم عليه. ويجدر بنا أن نخص هذا العنصر بمزيد من الاهتمام والتوضيح والتفصيل وذلك من خلال العناصر الآتية:

أولاً: النظافة أولى خطوات حفظ البيئة

الالتزام بنظافة البيئة من الأمور الأساسية التى حرص عليها الرسول ﷺ، وأوصى بها إلى المسلمين، إذ نص أكثر من حديث على أن النظافة من الإيمان، والحق أن إفساد البيئة إنما يبدأ من تلوثها اليسير أو عدم التزام النظافة، فعن معاذ بن جبل -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز فى الموارد، وقارعة الطريق، والظل»، هذا الحديث الشريف قاعدة عظيمة وقانون من قوانين الأمن البيئى؛ حيث تسعى الأمم المختلفة اليوم جاهدة لسن المزيد من هذه القوانين، فى حين أشار الرسول ﷺ إلى ذلك منذ زمن بعيد، كما أشار إلى الموارد المائية والنباتية حيث يعتبر المورد المائى اليوم من الموارد الهامة التى تعرضت للتلوث.

ثانياً: التلوث البيئي والإعجاز العلمي للقرآن الكريم

لقد نهانا القرآن الكريم عن الإخلال بالنظام البيئي^(١) وإحداث خلل في التكامل البيئي الذي خلقه الله الكون عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

لعل الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في هذا المقام يتمثل في التنبؤ بظاهرة التلوث البيئي ثم بيان أسبابه حينما ينبهنا المولى - عز وجل - إلى أن التلوث يكون نتيجة لإخلال الإنسان للنظم البيئية المتكاملة التي خلق الله الكون عليها، وفي النهاية حذرنا الله سبحانه وتعالى من العبث بقانون التكامل البيئي، ولقد أدرك الإنسان هذه المعاني الكريمة في الآونة الأخيرة، وقامت الحملات، وعقدت المؤتمرات الدولية التي من شأنها التحذير من تدخلات الإنسان.

لقد أدرك الإنسان معاني القرآن الكريم، وأنه صالح لكل زمان ومكان، وأنه خالد لتوجيه وإرشاد الناس إلى كل خير وإلى ما فيه صلاح حالهم؛ ولذلك قامت الحملات وعقدت المؤتمرات الدولية التي من شأنها التحذير من تدخلات الإنسان للإخلال بالنظم البيئية، ومن الآيات التي حذرت الناس من إهدار البيشة بتلويشها وإتلاف مواردها الطبيعية. قال الله - تعالى -: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

ثالثاً: ملوثات البيئة وآثارها الحضارية

من الجدير بالذكر أن تأثير الإنسان على توازن البيشة بدأ منذ ظهوره على الأرض، ولقد مر ذلك بمراحل مختلفة، فالإنسان البدائي من القناص والصياد، وحتى الراعي والزارع، كان تأثيره على البيشة بسيطاً، شأنه في ذلك شأن الكائنات الحية التي كانت

(١) حمدي عبد العزيز السعداوي، 'التلوث البيئي والإعجاز العلمي في القرآن الكريم'، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٨٠، أغسطس/ سبتمبر ١٩٩٧م، ص ٥٢ بتصرف.

تعتبر منافسة له، وكان سلوك الإنسان وتأثيره جزئياً بنظام البيئة. ولكن إشعال الحرائق في الغابات لا يزال يستخدم كوسيلة للصيد تعتمد إلى ذلك مجتمعات بدائية لإكراه الحيوانات على الفرار مما يسهل صيدها.

وأضيف إلى الحرق قطع الأشجار وأكل الجذور وقطع الثمار؛ لتجعل كل هذه الأشياء حياة الإنسان ممكنة في هذه العصور القديمة.

وفي بداية عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى كانت هناك مناطق شاسعة غير مستعملة عملياً، غير أن هذه الحالة لم تستمر وفي أقل من مائتي عام عمّدت الدول الاستعمارية الأوروبية، - وكانت تملك وسائل قوية للتدمير - إلى استخدام سياسة حرق الأرض ودون أن تنتبه إلى الآثار البيئية التي يمكن أن تحدث نتيجة لاستخدام تلك السياسة^(١).

ومن الآثار السلبية للتلوث فقد "كثرت التلوث الذي تعرضت له مياه سانت لورانس والبحيرات العظمى في أمريكا الشمالية"^(٢)؛ وذلك بسبب النفايات الصناعية التي طالما ألقيت وما زالت تلقى في تلك المياه، فقد دلت الإحصاءات الكندية مؤخراً أن هذا التلوث قد بطش بحيتان تلك المياه إن لم يدمر حياتها تدميراً.. "كما وصل التلوث في بعض البحيرات (بحيرة ايريا)^(٣) التي تساوى مساحتها مساحة إقليم بريتاني الفرنسي إلى درجة جعلت السلطات المسؤولة تمنع الاستحمام فيها وتعلن محذرة أن الواجب يقضى تلقح كل من يسقط فيها بمصل التيتانوس".

رابعاً: التلوث بالمبيدات الحشرية وخطره على صحة الإنسان

تستخدم المبيدات الزراعية لحماية الإنتاج الزراعي في مختلف الآفات بهدف زيادة الإنتاج، وتتواجد متبقيات المبيدات في معظم أنواع الخضار والفاكهة ودهون اللحوم والطيور والأسماك والألبان، والأحشاء الداخلية، وبعض الغدد الغنية بالدهن.

(١) إبراهيم سليمان عيسى، "تلوث البيئة أهم قضايا العصر"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٤٩، رمضان ١٤١٥ هـ ص ٦٦.

(٢) "سلامة البشرية في سلامة البيئة"، مجلة العربي، العدد ٣٥٧، أغسطس ١٩٨٨ م، ص ١٢٩.

(٣) إبراهيم سليمان عيسى، "تلوث البيئة أهم قضايا العصر"، مجلة الوعي الإسلامي، مرجع سابق ص ٦٤.

ترجع خطورة هذه المبيدات إلى أنها تؤثر على الجهاز العصبي بصفة خاصة وتحدث خللا في وظائف أعضاء الجسم المختلفة مثل: الكبد، والكلية، والقلب، وأعضاء التناسل، بل يسرى التأثير إلى أهم مكونات الخلية، حيث تحدث تأثيرات وراثية أو سرطانية أو تشوه خلقى في المواليد، وخطورة هذه المبيدات ليس فقط في إحداث التسمم الحاد الذي قد يؤدي إلى الوفاة، وإنما إلى حدوث سمية مزمنة من خلال تناول الأفراد جرعات ضئيلة ولفترات طويلة من حياتهم.

ومن أسباب التلوث بالمبيدات الإسراف والاستخدام السيئ لها خلال إنتاج وتجهيز وتناول الغذاء، ويزيد من خطورة المبيدات الكيماوية عدم الإلمام بكيفية التخلص أو التليل من بقاياها بالأغذية المختلفة^(١).

ولا بد من وضع برنامج للحد من هذه المشكلة وذلك عن طريق:

- ١- تحديد المشكلة ووضع ضوابط لها لمنع الأخطار البيئية والتأكيد على النواحي المرتبطة بالصحة.
- ٢- تنمية المهارات في متابعة القضايا البيئية والتنبؤ بما قد يحدث من مشكلات.
- ٣- تنمية الوعي وتكوين الاتجاهات الخاصة بالعناية بالبيئة وحمايتها.
- ٤- تشجيع إجراء البحوث المتعلقة بختلف النواحي البيئية.

خامساً: التلوث وتأثيره على طبقة الأوزون

لم يقتصر عبث الإنسان بالتوازن البيئي إلى حد التأثير على الظروف المناخية للأرض، بل إن الأمر وصل إلى حد التأثير على طبقة الأوزون، فالأوزون هو شكل من أشكال الأكسجين موجود في الطبقات العليا من الجو، يحول دون وصول كميات كبيرة من الإشعاع الذي تبثه الشمس على الموجات فوق البنفسجية، فإذا فسد أو قضى عليه

(١) جهاز شئون البيئة، 'الأسرة والغذاء والتلوث'، القاهرة، مطابع الأهرام بكونريش النيل، ١٩٩٤م، ص ٧-٩.

فإن الأرض تصبح عندئذ معرضة لمزيد من الأشعة الضارة، مما يؤثر على حياة كل الكائنات الحية^(١).

هناك مؤشرات عديدة تؤكد أن حزام الأوزون يتعرض للدمار والتحليل نتيجة لتدخل الإنسان والإخلال بنظام التكامل البيئي، فالنفايات التي تخرج من مداخن المصانع والمواد الكيماوية المستخلصة من الفلور كربونات مثل الأيروسول وغاز الفريون وغيرها من الملوثات.

من الآثار الضارة الناتجة عن الغازات السامة مثل غاز أول أكسيد الكربون، فقد يتعرض الفرد العادي للإصابة بتسمم غاز أول أكسيد الكربون، نتيجة لتسرب الغاز من الأنابيب الناتج من إحراق الفحم المستخدم في التدفئة، أو من مواقد الغاز، وكذلك في الحمامات، وذلك لعدم وجود تهوية جيدة كافية، وأكثر ما تحدث الإصابة إذا أدت محرك السيارة وبخاصة إذا كان حظيرة السيارة مغلقة^(٢).

كما يحتل التحطيط مكاناً بارزاً من بين مشاكل البيئة جميعها، فتقطع الأشجار لاستعمال خشبها وقوداً للطبخ والتدفئة هو الذي يقضى على غابات العالم فيؤدي إلى تلف الأوزون وهو الذي يتسبب في تعرية التربة بحيث تفقد القدرة على الاحتفاظ بمياه الأمطار^(٣).

سادساً: أثر تلوث المياه على البشرية

يعتبر الماء من أساسيات الحياة على الأرض وكل مخلوق عليها، وقد أصبحت البحيرات والأنهار مستودعاً كبيراً لنفايات بعض أكثر المواد ضرراً على الإطلاق،

(١) حمدي عبد العزيز السعداوي، "التلوث البيئي والإعجاز العلمي في القرآن الكريم"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٨٠، أغسطس / سبتمبر ١٩٩٧م، ص ٥٣.

(٢) أحمد عبد المنعم عربود، "التسمم بأول أكسيد الكربون"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٦٧، أغسطس ١٩٩٦م، ص ٤٢.

(٣) "سلامة البشرية في سلامة البيئة"، مجلة العربي، العدد ٣٦١، ديسمبر ١٩٨٨م، ص ٣٠.

والنفايات الأشد سمية التي يمكن التخلص منها في المجارى المائية تشمل النسبة الكبرى من الـ ٧٠ ألف مادة كيميائية تركيبة تكرر في بيئتنا، فتسبب مجارى المياه الطبيعية ويدمر النظم البيئية التي تعتمد عليها حياتنا نحن بنى البشر.

يلاحظ أن مياه البحيرات تتلوث وتتحول إلى بحيرات سامة بسبب الأسمدة التي تزيد من تكاثر الطحالب.

وما يذكر في هذا الصدد أن نسبة الأكسجين انخفضت في بعض البلدان، ويلاحظ أن البحر المتوسط يتعرض لخطر التلوث والتسمم خلال الخمسين سنة القادمة؛ لأنه أقل اتساعاً من المحيط الأطلنطي والمحيط الهادى^(١).

ومن مصادر تلوث المياه أيضاً "الزراعة: ثمة مصادر ثلاثة للتلوث الزراعى، وتمثل في المبيدات والأسمدة الكيماوية والأسمدة الحيوانية، فبقايا المبيدات التي تترشح إلى المياه الجوفية تقوم بتسميم مصادر المياه الصالحة للشرب، وتصبح مركزة في السلسلة الغذائية، وتساهم الأسمدة الفسفورية والنيتروجينية في عملية التفاعل في المجارى المائية، حيث يؤدي تزايد الإنتاج النباتى إلى استنفاد موارد الأكسجين^(٢).

ومن مصادر تلوث المياه.. المجارى. إن مياه الصرف الصحى التي تعتبر أشهر أنواع الملوثات المائية تتألف من النفايات الحضرية والصناعية.

سابعاً: التلوث السمعى وآثاره الضارة

التلوث كما عرفه العالم هو: أى تغيير فيزيائى أو كيميائى أو بيولوجى مميز، ويؤدى إلى تأثير ضار على الهواء أو الإضرار بالعملية الإنتاجية كنتيجة للتأثير على حالة الموارد المتجددة، إذن من خلال التعريف نجد أن من أنواع الملوثات هو الضوضاء التي تؤثر على الإنسان وهو التلوث السمعى^(٣).

(١) عصام الشيخ قاسم، "أزمة تلوث المياه فى العالم"، مجلة الكويت، العدد ١٤٣، سبتمبر ١٩٩٥م، ص ٨٢.

(٢) إبراهيم سليمان عيسى، "تلوث البيئة أهم قضايا العصر"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٤٩، فبراير ١٩٩٥م، ص ٦٤.

(٣) منى قاسم، "التلوث البيئى والتنمية الاقتصادية"، الطبعة الثانية، القاهرة، الدار اللبنانية المصرية ١٩٩٧م، ص ٤٨.

والضوضاء لها نتائج خطيرة وهي: الإرهاق السمعي، والصمم المهني، والصدمات السمعية، وإن الإرهاق السمعي يتسم بزيادة مؤقتة في قوة السمع، وهو يبدأ من ٩٠ ديسيبل، وأن الإحساس لضوضاء معينة يقل بتأثير ضوضاء أوضح وأقوى.

وهناك نتائج أخرى قد تكون أكثر خطورة مثل الخلل في العصب السمعي الناتج عن الضوضاء (اضطرابات سمعية) الذي يتميز بفقدان القدرة على السمع، وقد ترجع أسباب الضوضاء إلى الانفجارات.

وهناك نتائج نفسية للضوضاء^(١)، وتظهر بصفة أساسية في الأحلام والآلام في الرأس، وفقدان الشهية، والشعور بالضيق والتعاسة، وبالنسبة للعمل والمهام الذهنية والعقلية والفكرة نجد أن للضوضاء آثاراً ضخمة، ولقد لاحظنا فروقاً محسوسة في الإنتاج بين العمل الذي يؤدي في جو هادئ والعمل الذي يؤدي في جو كله ضوضاء، ومن الثابت أن الضوضاء تسبب ٥٠٪ من الأخطاء في العمل.

ثامناً: الرسول هو القدوة الحسنة في عدم الضوضاء ومراعاة شعور الآخرين

أمرنا الرسول ﷺ أن نقدم كل ما هو خير للمسلمين؛ لأنهم أخوة في الله، وقد نهانا عن إيذاء الناس في أحاديث كثيرة منها ما ورد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال رسول الله ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه، التقوى ها هنا...»^(٢).

اتصف ﷺ بحسن معاملته لكل من خالطه ليستوى في ذلك الخادم والسيد، والفقير والغني، والمرأة والرجل، فيروى أنه ﷺ ما نهر خادماً وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يكون جهاداً في سبيل الله، قال أنس -رضي الله عنه-: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ولا قال لشيء صنعته لما صنعته، ولا لشيء تركته لما تركته»^(٣).

(١) روبرت لافون، 'التلوث'، ترجمة: نادية القباني، جنيف (سويسرا)، ١٩٧٧م، ص ٩٥.

(٢) الإمام النووي، 'رياض الصالحين'، القاهرة، دار النيل، ص ٩٥.

(٣) عبد العظيم سيد الطنطاوي، 'خصائص الأخلاق في الإسلام وغاياتها'، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٥٠،

مارس ١٩٩٥م، ص ٦٦.

كما أن القرآن الكريم نهى عن الجلبة والضوضاء في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ [لقمان: ٨]. وقال أيضًا في سورة الحجرات نهياً عن رفع الصوت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تعلمون﴾ [الحجرات: ٢].

تاسعاً: حل مشكلة التلوث البيئي للمحافظة على البيئة ومواردها

خلال العقود الأخيرة تعالت صيحات التحذير من أخطار التلوث البيئي التي تصيب الحرث والنسل، في عام ١٩٨٨م أعلن العلماء في مؤتمر عقده برنامج البيئة التابع للأمم المتحدة أنهم يتوقعون لمستوى البحر الأبيض المتوسط أن يرتفع بسبب تزايد سخونة الجو، بما يتراوح بين ٥٥ و ١٣ سم قبل حلول عام ٢٠٢٥، وأن يرتفع بحدود ٢م خلال قرنين من الزمان، ويغمر أغلب المدن الساحلية^(١).

ولم يعد موضوع تلوث البيئة مشكلة إقليمية محسورة في منطقة دون أخرى، وعلى العالم كله السعى لمعالجة الآثار السلبية المترتبة عليها، ويعتبر موضوع تلوث البيئة من قضايا الساعة التي تواجه البشرية جمعاء، وعلى كل البشرية أن تجد وتجتهد حتى تجد خلاصاً من هذه المحنة، ولحل هذه المشكلة يجب اتباع الآتي:

١- يجب الاهتمام بالاستثمارات لحل هذه المشكلة في علاج المخلفات بأنواعها، ودراسة الآثار الاقتصادية لعمليات إعادة الاستخدام لما لذلك من أثر إيجابي من حيث درء مشاكل التلوث من ناحية، وإيجاد عوائد مادية للمشروع من جهة أخرى نتيجة إعادة تصنيع المخلفات.

٢- يجب العمل على القضاء على ظاهرة المقالب المفتوحة (القمامة) لما لها من آثار ضارة سواء على صحة الإنسان أو الحيوان.

(١) أحمد فؤاد باشا، 'البيئة ومشكلاتها من منظور إسلامي'، مجلة الأزهر، الجزء السادس، أكتوبر/ نوفمبر ١٩٩٦، ص ٨٦١.

- ٣- إنشاء هيئات متخصصة للتعامل مع القمامة من الجمع والنقل، أو التخلص، على أن تكون مستغلة، وإنشاء إدارة مركزية تشرف على متابعة هذا الموضوع.
- ٤- التوسع في إنتاج أكياس القمامة، والعمل على تخفيض أثمانها عن طريق استخدام مخلفات البلاستيك.
- ٥- حث الناس على الإقلاع عن التدخين، لما له من آثار ضارة على الصحة والبيئة.

عاشراً: المنهج الإسلامي للإصلاح البيئي

إن المنهج الإسلامي في التعايش السلمي مع البيئة منهج شامل، فهو كل لا يتجزأ ووحدة متماسكة، والإسلام يضع لكل تصرفات الإنسان الضوابط والقيود التي تحمى من طغيانه وطموحه، ففي الحديث: «نعم المال الصالح للعبد الصالح» ففي نماء ثروة الأفراد ونقائها نماء لثروة الأمة ونفعاً لأبناء الكون كافة؛ ولهذا فقد حرم الإسلام الإسراف والتبذير وجعل المبذرين إخوان الشياطين، كما نبه الإسلام إلى النظافة وعدم الإفساد بالبيئة، ومن الأدلة القرآنية على عدم إفساد البيئة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

والرسول ﷺ له أحاديث كثيرة ينهى فيها عن الإضرار بالغير وعدم الإفساد بالبيئة؛ لأنها نعمة من الله يجب الحفاظ عليها، وواجب على من يرى ذلك أن يمنع هذا الضرر، فقال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(١)، وقد نهى الله - سبحانه وتعالى - في آيات كثيرة عن الإفساد في الأرض فقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأمراء: ٥٦].

ومن خلال ما تقدم يجب وضع حلول للوقاية من هذه المشكلة، ومن هذه الحلول:

- ١- تنمية الوعي البيئي، وإيجاد حلول للمشكلات البيئية، والحث على عدم إقامة مشكلات بيئية جديدة، وتقدير عظمة الخالق في الكون.
- ٢- وقاية المجتمعات البشرية من التأثيرات الضارة لبعض عوامل البيئة، ووقاية البيئة من النشاط الإنساني الضار، وتحسن نوعية البيئة وتطويرها لصحة الإنسان ورفاهيته.

المبحث الرابع

دعوة الإسلام إلى العمل وتنمية الموارد وعمارة الأرض

إن العمل غاية إنسانية وواجب اجتماعي ووسيلة لتحقيق الرخاء البشري، وتلبية حاجات الناس، وهو في الإسلام من القيم الدينية التي ترقى إلى مستوى العبادة؛ لأنه يحقق الحكمة من خلق الإنسان ووجوده على الأرض.

أولاً: العمل في الفكر التربوي الإسلامي

التربية الإسلامية عملية إعداد للإنسان بتثقيفه ورعايته وإصلاح شأنه، وتعهده - ليكون شخصية إسلامية مهتدية، قادرة على القيام بمسئولية الاستخلاف على الأرض بالالتزام بالمسئوليات والواجبات التي حددها الله - تبارك وتعالى -.

العمل وسيلة لتفتيح شخصية الإنسان وتهذيبها وصياغتها بما يتفق وما جاءت به العقيدة الإسلامية من تشريعات وآداب^(١). وقد حث القرآن الكريم على العمل في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

ولما كان الإسلام يريد تحرير الإنسان من الداخل، بمعنى أن يشعر بعزته وكرامته معتمداً على نفسه، كان نظام المكاتبه حيث يكاتب العبد سيده على جعل يؤديه إليه في مدة زمنية، فإذا وفى بعهده يكون قد اكتسب مهارة وقدرة على الاعتماد على النفس، فإذا كان وقت عتقه كان حراً من الداخل^(٢).

ثانياً: أهمية العمل في الإسلام

اهتم الإسلام بالعمل وأعلى من قيمته في المجتمع؛ لما له من دور هام في بناء الأمة الإسلامية، وتحقيق نهضتها بين الأمم والمجتمعات المعاصرة. العمل في الإسلام يقصد

(١) الزبير مهتداد، "العمل في الفكر الإسلامي"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٢٤٢، يوليو ١٩٩٤م، ص ٧٢-٧٣.

(٢) حيدر فته، "معالجة الإسلام للبطالة والفقر"، مجلة منار الإسلام، العدد العاشر، فبراير ١٩٩٨م، ص ٧٣.

به الكسب فرض عين على المسلم؛ لأن إقامة الفرائض تقتضى حتماً قدرة بدنية ونفسية وهذه لا تتأتى إلا بطعام ونفقة. (١)

هناك أدلة على أهمية العمل فى الإسلام، منها قول الرسول ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل» (رواه أحمد من أنس بن مالك).
العمل والتنمية وجهان لعملة واحدة، فالعمل طريق للتنمية، والتنمية نتيجة للعمل؛ ولذا... إن إحداث التنمية والتقدم ورفع مستوى معيشة المجتمع ومواجهة القضايا الجوهرية، والاستخدام الأمثل للموارد هى المعايير التى ينطلق منها التاريخ فى إصدار أحكامه الموضوعية والقطعية على مجتمع من المجتمعات، وتقرير ما إذا كان هذا المجتمع على مستوى تحديات عصره ومتغيرات زمانه أم إنه كان مجتمعاً قاعداً قانعاً بدور المشاهد لفصول الحياة، مفضلاً ذلك على أداء دور فاعل يكفل له المنزلة والمكانة على المسرح الدولى (٢).

إن العمل لا يقتصر على المتمتعين بالصحة، وإنما يشارك المعوقون بقدر المستطاع فى العمل؛ وذلك لرفع روحهم المعنوية، وإشعارهم بوجودهم وإفادتهم لأنفسهم ومجتمعهم؛ ولذا حددت الأمم المتحدة فى قرارها خمس أهداف رئيسية: (٣)
١- مساعدة المعوقين على التكيف الجسمانى مع المجتمع.
٢- تشجيع كل الجهود المبذولة على الصعيدين الوطنى والدولى.
٣- تشجيع مشاريع الدراسة والبحث الرامية إلى تيسير مشاركة المعوقين فى الحياة.
٤- تثقيف الجمهور وتوعيته بحقوق المعوقين.
٥- تشجيع اتخاذ تدابير فعالة للحماية من العجز، وإعادة التأهيل.

(١) السيد أحمد المخزنجي، أهمية العمل فى الإسلام، مجلة الأزهر، العدد الخامس، أكتوبر ١٩٩٦م، ص ٦٧٢.
(٢) عبدالرحمن بن سبيت السبيت، القوى البشرية والمسئولية الوطنية، مجلة كلية خالد العسكرية، العدد ٤٣، ربيع وصيف ١٩٩٤م، ص ١١.
(٣) أحمد خليفة المهدي - محمد توفيق أحمد، المعوقون بين مطرق الحياة وسندان المجتمع، مجلة الضياء، العدد ٤١، فبراير ١٩٩٦م، ص ٤٢.

ثالثاً: الإسلام ومعالجته للبطالة والفقير:

إن مشكلة البطالة والفقير ليست مشكلة حديثة تعاني منها مجتمعات اليوم، بل هي مشكلة قديمة قدم التاريخ، وبرزت مع الإنسان منذ الخليقة، إلا أنها تظهر بوضوح في مجتمعات أو بيئات وتستر في أخرى.

مما لا شك فيه أن الحضارة والتقدم زاد هذه المشكلة^(١) بروزاً ووضوحاً؛ وذلك لأن البطالة -على سبيل المثال- لم تكن ظاهرة في المجتمعات الرعوية ولا في المجتمعات الزراعية فيما بعد، بيد أنها تظهر مع ظهور المجتمعات الصناعية، وازدادت أكثر في المجتمعات المدنية التي نال أفرادها حظاً من التعليم.

ومن المفارقات العجيبة أن يكون التعليم أحد أسباب البطالة؛ ذلك لأن الذي نال حظاً من التعليم يرفض العمل الذي لا يتوافق مع الدرجة العلمية التي وصل إليها، وكلما صعد في مدارج الشهادات المكتسبة قلت فرص العمل أمامه؛ لفارق المستوى بين الواقع والمفترض التخيل، ولكن على الشباب الكفاح والعمل من أجل لقمة العيش بأى عمل مناسب.

الإسلام تصدى لمشكلة البطالة لأنها يتولد عنها الفقر^(٢) ويتولد عن هذا الثنائي المتلازم سلوك معوج يؤدي إلى الجريمة، ومن فضل الله أن الجريمة الناشئة عن ذاك الثنائي -بطالة وفقير- قليلة النسبة في معظم المجتمعات، فالجريمة ليست نتيجة مطلقة تتولد عن البطالة والفقير، وقد حث الإسلام على العمل في قول المولى -عز وجل-: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

رابعاً: الإسلام والعمل يحرران الإنسان من الداخل

رسخ الإسلام في نفس المسلم عقيدة أن الرزق من الله، فهو الرزاق ذو القوة المتين،

(١) حيدر فقه، "معالجة الإسلام للبطالة والفقير"، مجلة منار الإسلام، العدد العاشر، فبراير ١٩٩٨م، ص ٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٤.

وأن لكل نفس منقوسة رزقها، ولن تموت حتى تستوفي هذا الرزق بكامله، ولا يملك أحد منع الرزق عن صاحبه إن أراد الله ذلك، ولا أن يأتي به أحد إن حجه الله - تعالى، كما أن الخلق كلهم - مهما علا شأنهم - لا يملكون الرزق لأحد، فإن جاء رزق على يد^(١) واحد منهم فهو من الله - سبحانه وتعالى -، وما الناس في ذلك إلا وسائل ووسائط ليس إلا، فالله تعالى يقول: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَرَزَبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣].

وقد وردت أحاديث وآيات قرآنية تدل على فضل العمل، وأن العمل وسيلة وسبب في الرزق، وفي هذا يقول المولى - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]. ويقول الرسول ﷺ: «يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم»^(٢).

ويقول الرسول ﷺ في حديث نبوي: «إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله»^(٣).

خامساً: حث الإسلام على العمل وعدم التواكل

إذا كان الرزق من الله - تعالى - وهو متكفل به، وإن النفس لن تموت حتى تستوفي رزقها، وأن الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، إلا أن هذا الرزق غيب محجوب عن العبد؛ ولذا لا يعلم العبد ما هو رزقه، فترتب على ذلك السعي من أجل هذا الرزق، فالرزق سيأتي سيأتي ولكن يحتاج إلى وسيلة، ولا بد أن تكون وسيلة شريفة، ومن هنا كره الإسلام الكسل والانتكالية، وحض على العمل والسعي.. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. وهنا

(١) حيدر قفه، 'معالجة الإسلام للبطالة والفقر'، مرجع سابق، ص ٧٤.

(٢) رواه ابن ماجه، واللفظ له، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم، الترغيب والترهيب.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، والطبراني، 'منار الإسلام'، ص ٧٤.

ربط عجيب بين أمور أربعة: تذليل الله للأرض، وجعلها سهلة حض المسلم على الحركة، والدعوة للمشي في مناكبها مقاومة للكسل والخمول، والأكل من رزق الله الذى يتج عن هذه الحركة، ثم التذكير باليوم الآخر لاستقامة الوسيلة.

قال رسول الله ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده»^(١). وكان من دعائه: «اللهم بارك لأمتي فى بكورها»^(٢)، وكان عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يقول: "لا يعقد أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وأن الله -تعالى- يرزق الناس بعضهم من بعض"، وكان يقول أيضاً: "إنى لأرى الرجل فيعجبني فأقول أله حرفة فإن قالوا: لا. سقط من عيني".

(١) رواه البخارى فى "الترغيب والتهذيب"، ج٢، ص٥٢١، رقم (١).

(٢) رواه النسائى والترمذى وابن ماجه وأبو داود وابن حبان، "منار الإسلام"، ص٧٤.

المبحث الخامس استراتيجية إسلامية للتنمية الاقتصادية

كيف نصل إلى استراتيجية إسلامية لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية؟ وما هي وسائل تحقيق هذه الاستراتيجية؟ وكيف يمكن تحقيق أهداف هذه الاستراتيجية؟ تشكل الإجابة عن هذه الأسئلة هدف هذه السطور والتي تتركز حول الوصول إلى استراتيجية لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية في ضوء الإسلام ومبادئه وأصوله.

أولاً: المبادئ الإسلامية لتحقيق التنمية^(١)

المبدأ الأول: الاستعانة بالمبادئ الإسلامية

الاستعانة بالمبادئ الاقتصادية الإسلامية، فقد ثبت بالدليل القاطع أن الإسلام دين ودنيا وسلوك وعمل وأداء للتواصل والتقدم المنشود، فلا بد من تكثيف الجهود من أجل الكشف عن الأصول والمبادئ الاقتصادية الإسلامية بلغة العصر.

المبدأ الثاني: وعى الفرد بدوره في صنع المستقبل

إن وعى الفرد بدوره في صنع المستقبل، فلا بد من تحقيق الثقة للفرد، وتوفير المناخ الملائم لكي يبذل كل جهد نافع، فالاهتمام بالفرد كشريك أساس في العملية الإنتاجية من أئمن ما يملكه الوطن.

المبدأ الثالث: تطوير وسائل الإنتاج

فالإسلام وضع ضوابط للإنتاج بالمال والملكية، وتوزيع الدخل واستخدام عناصر الإنتاج المتاحة للمجتمع، وترك لنا أن نستخدم عقولنا في تطوير وسائل الإنتاج لنصل إلى الصيغ التي تتفق مع الدين.

المبدأ الرابع: تطوير الفكر الاقتصادي

إننا نحتاج إلى تطوير كامل للفكر الاقتصادي للوصول إلى التنمية^(٢).

(١) حمدي الحلواني، "استراتيجية إسلامية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية"، مجلة الوحي الإسلامي، العدد ٣٤٨، يناير ١٩٩٥م، ص ٥٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٧.

ثانياً: حث الإسلام على تنمية الثروة النباتية

لقد أنعم الله على الإنسان بنعم كثيرة منها أن سخر له الأرض ليقوم بزراعتها والاستفادة من خيراتها ومحاصيلها، ومن أهم هذه النعم محاصيل البقوليات، ولهذه الزراعة أهمية كبرى حيث أنها تمثل زاد التربة، ولحم الفقير، وأهمية البقوليات كثيرة منها: أن للبقوليات مكانة هامة في سلم التنوع البيولوجي لما لهذه المجموعة النباتية من مميزات بيئية واقتصادية^(١).

والثروة الخضراء التي أحدثتها العلوم والتكنولوجيا في الزراعة خلال فترة الستينات والسبعينات من هذا القرن، بدأت تواجه خطر الثورة المضادة بدعوة جديدة للعودة إلى الطبيعة وإقامة أنظمة زراعية بيئية تحاكي الطبيعة، وتدعو إلى التعلم من الفلاحين طرق الإنتاج التقليدية^(٢).

النظام البيئي القائم في التربة يعتبر نظاماً أيكولوجياً متوازناً قوامه الأجزاء الثلاثة للتربة: الصلب، والسائل، والغازي، وتكمن الفكرة الأساسية وراء الثورة الزراعية الجديدة بتصميم نظام زراعي بيئي يحاكي هياكل ووظائف أنظمة البيئة المحلية الطبيعية، وعلى الصعيد الاقتصادي والاجتماعي تركز الثورة الجديدة على المزارعين، وبهذا الأسلوب تصبح الزراعة الجديدة متوافقة ثقافياً؛ لأنها تبنى مشروعاتها على أساس الجمع بين المعرفة التقليدية للمزارعين وعناصر العلوم الزراعية^(٣).

ثالثاً: دعوة الإسلام إلى تنمية الثروة المائية والحيوانية

إن نظافة المياه من أهم وسائل الحفاظ على الصحة؛ ولذلك لما كان الماء أصل الحياة في الكون كله حيث يقول الله -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فإن المحافظة على نظافته من التلوث والفساد تعد أساس المحافظة على الحياة بأشكالها

(١) عواد جاسم الجندي، "البقوليات زاد التربة ولحم الفقير"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٦ يونيو ١٩٦٦، ص ٥٨.

(٢) سيف الدين الاناسي، "في بعض الرجوع تقدم بيئي"، مجلة العربي، العدد ٤٤٢، يناير ١٩٩٩، ص ١٥٠-١٥١.

(٣) المرجع السابق نفسه.

المختلفة، وتحفل الشريعة الإسلامية بنصوص كثيرة تحث على حماية الماء من التلوث، فعن جابر رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «لا يبولن أحدكم فى الماء الراكد، ثم يغتسل فيه»، وقوله ﷺ: «أو كثرو قربكم واذكروا اسم الله وغطوا آنتيكم واذكروا اسم الله»^(١).

والثروة المائية وما تحتويه الأنهار والبحيرات من أسماك مختلفة، لذا يجب علينا تنمية هذه الثروة المائية بشتى الطرق؛ وذلك لأن الماء يعتبر من أساسيات الحياة على الأرض، وكل مخلوق عليها، فمن الإنسان حتى أصغر الكائنات الحية لا تعيش بدون الماء، وفي عالمنا هذا كميات وافرة من المياه تتركز معظمها فى البحار والمحيطات، والماء كمصدر طبيعى متوفر مباشرة للاستهلاك البشرى^(٢)، لذا يجب علينا تنميته والحفاظ عليه.

الثروة الحيوانية عنصر هام من عناصر الإنتاج القومى، فالإسلام بدعوته الصريحة إلى العمل والكسب الحلال يحثنا على بذل قصارى جهدنا للاعتماد على النفس، ومن وسائل هذا الإنتاج الحيوانى تربية الماشية بأنواعها المختلفة، لما تحتوى عليه من بروتينات وفوائد تعطى الإنسان المسلم القوة لكى يعمل ولكى يقوى على عبادة ربه سبحانه وتعالى.

رابعاً: التربية الاقتصادية وترشيد الاستهلاك

يجب تشجيع الفرد على الأخذ بأسلوب وأسباب التنمية فى الدول النامية مثل مصر، كما يجب تفهم عوامل البناء الاقتصادى مثل الادخار والاستهلاك والترشيد فى الاستخدام، والاستثمار الطويل المدى والقصير المدى، والتدريب على الإنتاج وتأصيل روح الخدمة والنظافة، وتشجيع الابتكار والادخار، وفى حديث رسول الله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» رفع الكفاءة مطلوب فى هذه الفترة وذلك بالتربية السليمة منذ الطفولة^(٣).

(١) محمد السيد أرناؤوط، التلوث البيئى وأثره على صحة الإنسان، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الدار اللبنانية، ١٩٩٧م، ٢٣٧.

(٢) عصام الشيخ قاسم، أزمة تلوث المياه فى العالم، مجلة الكويت، العدد ١٤٣، سبتمبر ١٩٩٥، ص ٨٠.

(٣) حسين كنفانى، رؤية عصرية لخريطة مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م، ص ١٨٥.

وبالنسبة للتصنيع فهو عامل هام من عوامل زيادة الاقتصاد والإنتاج، والصناعة وتطوير الزراعة وتنوع الإنتاج تشكل الجوانب الأساسية لكل جهد يرمى إلى تنمية سريعة لقوى الإنتاج، فإن شكل التصنيع ومعدلاته ومداه وطبيعته أمور تتوقف كلها بالنسبة لكل بلد على ظروفها المحددة وطبيعة موارده الزراعية والمعدنية والمالية، وعدد سكانه، وكثافته، ولكن التصنيع يظل دائماً شرطاً ضرورياً للتنمية الاقتصادية^(٢).

إن الكفاية الإنتاجية تستخدم في تنمية الثروة القومية وزيادة الدخل القومي، فإنها أيضاً من العوامل الهامة في تمكين العمال من الحصول على مستوى أعلى في الدخل، ورفع مستوى المعيشة وزيادة قدرتهم على شراء ما يحتاجونه من سلع وخدمات، ومنحهم أكبر قسط من الرعاية الاجتماعية والصحية، وبمعنى آخر تعد الكفاية الإنتاجية دعامة هامة من الدعائم التي تبنى عليها أسباب السعادة لبني البشر وتحقيق الرفاهية.^(٣)

خامساً: استهلاك المياه وآثارها المدمرة ودور الإسلام في الحفاظ على المياه

هناك آثار مدمرة ناشئة عن الإسراف في استهلاك المياه، حيث يؤدي إلى إفساد عذوبتها، ومع استمرار الاستهلاك الزائد للموارد المائية تصبح عرضة للندرة؛ مما يؤدي إلى مشكلات لا حصر لها على المستويين الداخلي والخارجي، ويكفي أن ندرة المياه والصراع عليها كانت السبب في تفجر معظم المشكلات التي ظهرت في التسعينات^(٤)، ويمكن أن يقوم الإعلام بدور فعال في التوعية في استهلاك المياه، والحرص على استغلالها الاستغلال الأمثل الذي يحقق الفائدة دون إسراف، وإعلامنا المصري يقوم بهذا الدور الفعال الذي يثمر نتائج تفيد المجتمع كله من حيث توفر المياه الكافية لإقامة المشروعات الجديدة واستصلاح الأراضي الصحراوية مثل مشروع "توشكى" الذي

(١) شارل بتليم، "التخطيط والتنمية"، ترجمة: إسماعيل صبرى عبد الله، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٦، ص ٢٤٦.

(٢) سعد عبد السلام حبيب، "مجتمعنا الجديد"، القاهرة، مطابع الدار القومية، ١٩٦٣م، ص ١٧٨.

(٣) بركات عبد العزيز، "الإعلام الإسلامي ومشاكل البيئة"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٥٨، فبراير ١٩٩٥م، ص ٦٠.

سوف ينهض بمصر زراعياً واقتصادياً، ويحقق الاكتفاء الذاتي الغذائي... لا بد من توافر الوعي لدى المجتمع من حيث المحافظة على الأراضي الزراعية وعدم البناء عليها؛ لأن ذلك يهدد الثروة الزراعية، ويعتبر هذا إهدار لنعمة كبرى منحها الله - سبحانه وتعالى - للمجتمع.

سادساً: دعوة الإسلام إلى عدم الإسراف في الأكل والمشرب

دعا الإسلام إلى التمتع بنعم الله - سبحانه وتعالى - من مأكلاً ومشرباً، ولكن هذه الدعوة كانت تتصف بالتوسط والاعتدال وعدم الإسراف؛ لذا يقول المولى تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]. وفي هذه الآية تناول فضيلة من فضائل الإيمان وهي الاقتصاد في المعيشة بعيداً عن سفة الإسراف وحماسة الشح، وهو خلق نبه عليه الإسلام مما يدل على ما يتسم به من سلوك المسلم الملتزم من حكمة وبصيرة في التعامل مع المال وغيره.^(١)

سابعاً: الإسلام وضرورة تطوير القوى البشرية

يرتبط تقدم الأمم والشعوب ارتباطاً وثيقاً بالمسيرة التطويرية لأبنائها، فتوقف مسيرتها عند مستوى ما يحمله هؤلاء في صدورهم من إيمان، وفي رؤوسهم من علوم، ويرتبط حركتهم إيجاباً وسلباً بما يدخرونه من معارف في عقولهم، ومن ثم يظل الإنسان مهما مدت له الحياة مُطالباً بتطوير علومه وإثراء معارفه؛ ليدفع حركة التقدم ويعزز قدرتها على الاستمرار.

إن أحداث التقدم والتنمية ورفع مستوى معيشة المجتمع، أو مواجهة القضايا الجوهرية والاستخدام الأمثل للموارد هي المعايير التي ينطلق منها التاريخ في إصدار أحكامه الموضوعية والقطعية على مجتمع من المجتمعات، وتقرير ما إذا كان هذا المجتمع على مستوى تحديات عصره ومتغيرات زمانه، أم أنه كان مجتمعاً قاعداً قانعاً بدور المشاهد من فصول الحياة.^(٢)

(١) السيد رزق الطويل، "الوسطية وموقعها في القرآن"، مجلة منبر الإسلام، العدد ٥٠، أكتوبر ١٩٩٦، ص ٢٢.

(٢) عبد الرحمن بن سبيت السبيتي، "القوى البشرية والمسئولية الوطنية"، مجلة كلية خالد العسكرية، العدد ٤٣، ربيع وصيف ١٤١٥هـ ص ١١.

إن الحصول على نتيجة أفضل يتطلب بالطبع بالطبع سياسات وبرامج قومية أفضل للتنمية الريفية - في مصر خاصة- مما عليه الآن؛ لأن الهدف من التنمية هو توسع نطاق النظام الريفي بزيادة حجم العناصر القائمة، وتقوية الروابط الراهنة، وإدخال آلات حديثة حتى تصل إلى درجة عالية من التطور والتنمية.

إن الزراعة المعتمدة على الأيدي العاملة^(١) تميل إلى الأسلوب التقليدي، وهي زراعة جامدة وليس ثمة شك في أن تحديث الأساليب الزراعية بالميكنة ضروري.



(١) لورانس هيود، "التنمية الريفية"، ترجمة: نور الدين الزراري، القاهرة، مؤسسة التعاون للطبع والنشر، ١٩٨٢م، ص ٢٣٥.

المبحث السادس

دور المؤسسات التربوية والدينية والإعلامية في تنمية موارد البيئة والحفاظ عليها

أولاً: دور المدرسة في الوعي البيئي

للمدرسة دور فعال في المحافظة على موارد البيئة وتنميتها ' وذلك حينما يشارك التلاميذ في العمل الميداني في البيئة المحلية، ويدركون آثار التفاعل بين الإنسان والبيئة، وكيف استطاع الإنسان أن يبذل جهوداً متواصلة من أجل استغلال موارد البيئة ومن أجل تطوير حياته وحياة الأجيال التالية^(١).

والمدرسة لها دور في إعداد التلميذ ليكون مواطناً مستنيراً ومشاركاً بفاعلية في تنمية وتطوير مجتمعه وبيئته، ومساعدته على إدراك وفهم ما له من حقوق وما عليه من واجبات تجاه مجتمعه، ومساعدته على فهم ما يدور في بيئته من مشكلات.

وللمدرسة دور في تزويد التلاميذ بالقدر الضروري من المعارف والمهارات التي تمكّنهم من أن يكونوا مواطنين منتجين في مجتمعاتهم وبيئتهم، ومشاركين في ميادين التنمية الشاملة المستدامة التي تضع في اعتبارها صيانة البيئة وحمايتها.

كما أن للمدرسة دور في التنمية الريفية وذلك في 'التعليم العام الأساسي، ويشمل محو الأمية والحساب ومبادئ أولية في العلوم عن بيئة الطالب من أهداف المدارس الابتدائية والثانوية.. وأيضاً التعليم المهني وهدفه تنمية بعض أنواع المعرفة والمهارات ذات الصلة بأنشطة اقتصادية مختلفة'^(٢).

كما لا يكفي أن تعمل الدولة على محو الأمية^(٣) من الريف، بل يجب أن يدرك

(١) أحمد حسين اللقاني، فادعه حسن محمد سليمان، 'التدريس الفعال'، الطبعة الأولى، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٥م، ص ١١٤.

(٢) فيليب هـ كوميز، منظور أحمد، 'مكافحة الفقر في الريف'، ترجمة: إلياس إسكندر، القاهرة، مؤسسة التعاون للطبع والنشر، ١٩٧٧م، ص ٣٩.

(٣) نصحى عبد الفتاح، 'القرية المصرية'، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ص ٤٦٣-٤٦٤.

الفلاحون أن محو أميتهم مسألة ضرورية للحفاظ على مصالحهم وحقوقهم، بل إن عليهم ألا ينظروا دائماً إلى ما تقدمه إليهم أجهزة الدولة المختلفة، بل يقومون هم بأنفسهم بمبادرات ذاتية سواء في محو الأمية وإنشاء النوادي.

ثانياً: دور الجامعات في تنمية الوعي البيئي

للجامعة دور فعال وهام في التنمية بشتى أنواعها، وأيضاً في التوعية والمحافظة على البيئة ومواردها؛ ولذلك تتيح الجامعة الفرص أمام طلابها للحصول على قدر كافي من الوعي والمعرفة والثقافة العامة والتدريب على مهن كثيرة في كليات الجامعة، من أجل التنمية، ومن أجل تحقيق الرخاء للوطن، ويمكن تلخيص دور الجامعة في أربعة وظائف هي:

١- الثقافة العامة

عندما نتحدث عن الثقافة العامة نقصد حالة عقلية معينة، إلى جانب كونها حصيلة من المعرفة، فهي ترمي إلى تحرير الفرد المتعلم من الخزعبلات والجهل، وفي نفس الوقت تمنحه الإمكانيات والقيم التي يتفاعل معها في محاولة لأن يبدأ في لعب دوره في مجتمعه.

٢- مدد المجتمع بالأفراد المتخصصين

تمد الجامعة المجتمع بالأفراد المتخصصين في شتى المجالات والناشط لإعداد أفراد قادرين بعد دراستهم الجامعية أن يعاونوا في تسيير دفة الأمور في المجتمع لخدمة أفرادهم، فلن تشق طرق بدون مهندسين، ولا يجد المرضى من يصف لهم الدواء بدون أطباء، بل لن يجدوا مستشفى ما لم تبُن لهم...^(١).

٣- الدراسات العليا والبحوث

الدراسات العليا والبحوث تسعى باستمرار إلى توسيع آفاق المعرفة البشرية، فالإنسان بطبيعته يحب الاستطلاع، ويتميز العالم بروح وثابة للكشف عن الغامض والتعرف على المجهول.

(١) مصطفى رجب، "أهداف التعليم الجامعي"، مجلة الرسمى الإسلامى، العدد ٣٤٤، سبتمبر ١٩٩٤م، ص ٢٨.

٤- الخدمة العامة

أصبحت الجامعة مركزاً للمعلومات، ومدت أذرعها في مراكز بعيدة تعلم كما نتعلم مسهمة في الإثراء العلمى للأفراد والجماعات، صار إذاً تراوح بين الفكر والعمل لتحقيق أهداف المجتمع ككل، وتقدم الجامعات اليوم خدمات عامة على مستويات شتى لترضى رغبات عديدة للمواطنين. (١)

ثالثاً: دور المؤسسات الدينية في التوعية البيئية

المسجد أول مدرسة في الإسلام تبنى الأجيال وتصنع الأبطال، وتعدهم خير إعداد، وعن طريقه يقوم كيان الأمة الروحي، كما أنه الأساس الذى يدعم وجودها المادى، وفى المسجد يتدارس المسلمون كتاب الله ويتلونه، ويؤدون الشعائر الدينية بإقامة الصلاة وذكر الله، وتبصير المترددين على المسجد فى شئون الدين والدنيا، وصبغهم بالصبغة الإسلامية؛ لتكون لهم سلوكاً فى حياتهم، وحتى لا يجرفهم تيار الرذيلة فيقضى عليهم. (٢)

فرسالة المسجد على هذا تعليمية، تخلص الإنسان من عار الجهل، وتخلع عليه لباس الفضيلة من الرذيلة، وهنا ندرك معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [المكوت: ٤٥]. إذن فالصلاة والخطب المنبرية تدعو الإنسان إلى الالتزام بالضوابط الدينية التى تنهى عن الفحشاء وعن إيذاء الناس، وعن الإضرار بالبيئة، وتدعو أيضاً إلى النظافة وإلى التنمية بجميع أنواعها، وإلى العمل الذى يحقق الحرية للإنسان، وأيضاً إلى الوعى البيئى الصحيح.

رابعاً: دور الإعلام الإسلامى فى تزويد المجتمع بالمفاهيم والتوعية البيئية

إن الإعلام التابع من الإسلام الملتزم بتعاليمه يطوع التكنولوجيا الحديثة، وكذلك أساليب الأداء فى ضوء تعاليم الإسلام وتصوراته وحدوده فى التخطيط والتنفيذ والمتابعة، سواء أكان ذلك على مستوى النظام الاقتصادى ككل أو على مستوى كل

(١) المرجع السابق، ص ٢٧.

(٢) جاد الحق على جاد الحق، "المسجد: إنشاء، ورسالة وتاريخاً"، هبة مجلة الأزهر، رمضان ١٤١٦هـ ص ١٢-١٣.

عنصر من عناصر العملية الاقتصادية ..^(١)، ويتميز الدور الديني للإعلام بقوة مصداقيته وسرعة تأثيره وفاعليته؛ لأنه يجمع بين العمل الديني والإعلامي معاً، كما يحشد الجهد إلى التعليم ومحو الأمية..^(٢).

يمكن للإعلام الإسلامي أن يسلط الأضواء على الإمكانيات غير المستغلة ويوجه أنظار أصحاب الرأي إلى مزايا وكيفيات استغلالها الاستغلال الأمثل، وأن يبذل الإعلام في سبيل ذلك جهوداً منظمة لإقناع الناس خاصة الشباب بالانتقال إلى المجتمعات والمدن الجديدة، التي بدأت العديد من الدول الإسلامية في إنشائها بتخفيف الضغوط على المدن الكبيرة الذاخرة بالمشاكل خاصة التلوث بأوسع معانيه.^(٣)

.. كما أن الإعلام الإسلامي باعتباره دين العقل والعلم يجب أن يكون كجسر رابط بين العلماء والمتخصصين وصانعي القرار؛ للاستفادة من القاعدة العلمية المستمدة من البحوث والدراسات البيئية بحيث توضع موضع التنفيذ، ثم تأتى المرحلة الأخيرة من الجهود البحثية متمثلة في توصيل النتائج بما فيها من دلالات للرأي العام..^(٤)، وذلك لأن الإعلام الإسلامي يهتم بالأخبار بشرط الواقعية والصدق فيها، ثم الفائدة العائدة على الناس من وراء نشر هذه الأخبار^(٥).

.. وقد أصبحت مشكلة التلوث الشغل الشاغل لجهات أجهزة علمية كثيرة، وأخذت الاهتمام الكبير في معظم صحف ومجلات العالم، وأقيمت الكثير من المؤتمرات والندوات بهدف توعية الإنسان في كل مكان بأبعاد وحجم مشكلة التلوث، ووضع القيود والقوانين التي تهدف إلى المحافظة على البيئة.^(٦)



(١) بركات عبد العزيز: 'الإعلام الإسلامي ومشاكل البيئة'، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٥٨، فبراير ١٩٩٥م، ص ٥٩.

(٢) جلال حمام، 'كيف يكون الإعلام سبيلاً لتحقيق الأمن'، المجلة العربية، العدد ٢٤٧ ديسمبر ١٩٩٧م، ص ٨٤.

(٣) بركات عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٦٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٥) حسن عى محمد، 'الإعلام الإسلامي'، هدية مجلة الأزهر، شعبان ١٤١٨هـ ص ٢٢.

(٦) إبراهيم سليمان عيسى، 'تلوث البيئة أهم قضايا العصر'، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٤٩ فبراير ١٩٩٥م، ص ٦٣.

ملوثات البيئة الفكرية (رؤية إسلامية)

بقلم: د/ عمار جيدل (*)

مقدمة

البيئة الفكرية من حيث هي ليست سوى الوسط الفكري الذي تتحرك فيه الأفكار، وتتفاعل مع الواقع المعيش بجميع مكوناته، أما من حيث المتعلقات، فهي ذلك العامل المؤثر في صياغة الأفكار وتحديد المواقف من الحياة ومشاكلها على تنوع مناحيها وموضوعاتها، سواء كان هذا الموقف متصلاً بالواقع أو منفصلاً عنه وفق ما أسلمته تصورات هذا الإنسان أو ذاك.

ولهذا ستبقى البيئة الفكرية أهم عناصر تهيئة الظروف الموضوعية لإنشاء النموذج الاجتماعي المطلوب في إطار أنموذج الإنسان التوحي، من خلال المنظومات القانونية المجسدة في التربية والتعليم، والاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والثقافة، وسائر دواليب الحياة.

من هذا المنطلق، تظهر أهمية الحديث عن ملوثات البيئة الفكرية وفق الرؤية التوحيدية، بوصفها نظرة شاملة ومتكاملة تخضع لها جميع أفعال الإنسان السليم، في إطار تناغم جميع مكونات الكون معها.

ستبقى تلك البيئة صالحة لتحقيق ما جعلت له، إذا تفاعل معها المسلم وفق ما تقتضيه طبيعتها التي خلقها الله عليها، بشرط أن تكون بيئة سالمة من التلوث.

يتبادر إلى الذهن في هذا المقام مجموعة من الأسئلة تعبر في إطارها الكلي عن الإشكالات المركزية في هذا البحث.

كيف يكون الإنسان - من حيث هو - في الرؤية التوحيدية عنصراً مهماً من عناصر التأسيس للبيئة الفكرية وحائلاً دون تلويثها.

(*) أستاذ بكلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر.

وبالإضافة إلى ما سلف، كيف يمكن أن يكون الإنسان عنصراً من عناصر البيئة؟
بينما الشائع هو أن البيئة هي العناصر المادية المحيطة بالإنسان؟

وفي ضوء السؤالين السابقين يطرح السؤال الآتي: هل للرؤية التوحيدية تصور خاص لأصل البيئة التي خلق عليها الإنسان؟ وما هي أهمية تلك البيئة في تحقيق الغاية من وجود الإنسان؟ بل وما هو دورها في تهيئة الظروف البيئية في جانبها الفكري.

تمهيد

يريد الإسلام من خلال نظريته التوحيدية لتأسيس بيئة فكرية تساعد على تبيين استعدادات- البيئة الفطرية في جوانبها المتعددة^(١)- الإنسان المتنوعة والمختلفة، وتتوخى تحقيق مقاصده وفق خطة تجعل الغاية النهائية- عبادة الله تعالى- محركاً رئيسياً في بناء الحضارة الإنسانية الراشدة، وقد جعلت من غايتها النهائية في الدنيا تحقيق إنسانية الإنسان، فكان من مقاصد دور الإنسان، وفق النظرة التوحيدية السعي نحو الإنسانية في السلوك الفردي والاجتماعي.

وتحقيق هذه المقاصد النهائية والمرحلية، يقتضى وجود بيئة فكرية- في أصل الإنسان ووسطه الاجتماعي- تساعد على إنتاج نخب تحمي المقاصد وتعمل على إشاعتها، بمعنى حمايتها من جانبي الوجود والعدم كما يقول الشاطبي^(٢).

وتماشياً مع تلك الغايات، في إطار نظريته المتناغمة مع الكون بجميع مكوناته، خلق الله الإنسان مزوداً في أصل خلقته بمشتمات تلك البيئة، بل وزود بعوامل نفسية ومعرفية واجتماعية تيسر له الحفاظ على البيئة والحيلولة دون تلويثها، وجماع تلك العوامل الفطرة الإنسانية التي فطر الإنسان عليها في أصل خلقته.. فما هي الظروف البيئية التي توفرها الفطرة وفق النظرة التوحيدية؟

(١) البدنية والاجتماعية والنفسية والعقلية والدينية.

(٢) الموافقات، الشاطبي، ج٣، خصصه للكتابة عن مقاصد الشريعة.

أولاً: النظرة التوحيدية وتجلياتها

١- النظرة التوحيدية

محور نظرة الإنسان المسلم للكون مبدأ التوحيد، وهو أساس العقيدة الإسلامية، ومحرك فعاليتها المعرفية والفكرية والسلوكية والنفسية والاجتماعية، إذ تنسحب على جميع ميادين الفعل الإنساني، حتى صار بمقدورها تحويل الأفعال العادية إلى عبادات بالنية، ولهذه النظرة امتدادات جليلة في علاقة الإنسان بربه، وموقفه من الكون، وصلته بأخيه الإنسان، ومن ثم كان للنظرة التوحيدية تجليات عدة هي:

٢- الجانب الإلهي في النظرة التوحيدية

أساس فاعلية الإنسان وإنسانية علاقته بالآخرين التوحيد في جانبه الإلهي، إذ يعتبر التوحيد حجر الزاوية في العلاقة بين الإنسان وسائر مكونات الكون، فتوحيد الخالق في ذاته وصفاته وأفعاله يحرر الإنسان الموحد من الخوف، ويمده بعناصر البقاء والقوة من خلال ربط قلبه بالقوى الذي لا يضعف، والغنى الذي لا يفقر ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. وهكذا يكون التوحيد من هذا الجانب منسحباً على جميع ميادين الفعل الإنساني، ورأسماً لعلاقات إنسانية في الميادين الاجتماعية، والسياسية، والفكرية، حتى جعلت ديمومة التوحيد في النفس الإنسانية متأثرة وجوداً وعدمًا بدرجة تحقق غاياته وآثاره على مستوى الفعل اليومي، أي درجة الإيمان مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمدى فاعلية المؤمن في تغيير العالم على وفق مراد الله - تعالى -، ويؤكد ذلك جعل الشارع تحصيل ثواب العبادة بتحقيق العبادة لأصل أبعادها الوظيفية: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [التكوير: ٤٥] «من لم تنهه صلواته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له» (رواه أحمد في الزهد عن ابن مسعود موقوفاً، ورواه ابن جرير عنه مرفوعاً).

٣- الجانب الإنساني:

النظرة التوحيدية للإنسان تبيّن أن أصل بنى الإنسان واحد يرجع إلى أب واحد «آدم»، وتوالدوا بطريقة واحدة، وهذا يؤصل لأفكار رئيسية مفادها أن الإنسان فعل من

أفعال الله الكونية، خلق جميع أفرادها من مادة واحدة - تراب -، جعل تخلقهم على نسق واحد (التناسل)، ويصيرون إلى مصير واحد، وهو ما يجعل الإنسان أو النوع الإنساني مصون الكرامة محفوظ الجانب في كل أحواله، بصرف النظر عن انتمائه العرقي أو الجنسي أو الترابي، إذ الأصل في النظر إليه جوهره، أي ما هو به إنسان، وهذا يؤسس النظرة التوحيدية للإنسان، ويدعوهم للعيش في كنف المساواة وجوهرها.

ويقرر هذه الحقيقة ويؤكدها تصوير القرآن الكريم للإنسان، فهو مخلوق مكرم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، فكان الإعلان الإلهي عن جعله خليفة تنبيه وإعلام لهم بهذه الوظيفة، وهي وظيفة شاملة لجميع بني آدم؛ لهذا كان التكريم عاماً بالنسبة لأفراد البشر، ومنسحباً على جميع مكونات الإنسان، فهو كريم ونفيس وغير مذلول ولا ذليل في صورته وحركته.. وخلاصة ذلك أن الإنسان مفضل على كثير من الخلوقات، بعقله وإرادته، ومن جهة أخرى هو كائن تافه (من ماء مهين) خلق من تراب ثم من سلالة من ماء مهين، وإن طال به العمر عاد إلى الضعف الذي كان عليه في البداية، ومع ذلك يغلب عليه التكبر والتعجرف، قال تعالى منبهاً ومرشداً: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥١﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٥٢﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧]. ويعتبر تنبيه الإنسان بهذين الأمرين من مقاصده بعث الفاعلية الحضارية بوظيفته.

وهكذا في النظرة التوحيدية يظهر جلياً أن جانبها الإنساني يقرر مجموعة من الحقائق، أولها أن الإنسان كائن مكرم، وغفلته عن تلك الميزة توقعه في حضيض التناهة المتعلقة أساساً في تغليب الجانب الأرضي منه على الجانب السماوي أو الروحاني، بمعنى إذا نسى تكريمه وقع تحت طائلة الغرائز وسلطانها، وبهذا تغيب أصل ما جعلت له تلك الغرائز والأشواق، فينتقل الإنسان من طور الإنسانية إلى طور البهيمية الضارية المقترسة.

كما أنها من جانب آخر تقرر حقائق ذات تأثير عظيم في تهيئة جو الحوار والتفهم والتعاون بين البشر، ويتجلى هذا الأمر فيما يأتي:

التوحيد الإلهي يجسد في جانبه العقدي أن الله موصوف بكل صفات الكمال، منزّه عن جميع صفات النقص، وهذا يقتضى أنه سبحانه وتعالى غنى ونحن الفقراء إليه، وهذه المعرفة سواء في جانبها المعرفى السبحت أو في جانبها الجوانى، تؤسس لبيئة فكرية تساهم في تحسين أداء الإنسان في جميع مبادئ حياته، ويتلخص هذا فيما يأتي:

١- البشر جميعاً من أب واحد، فلا تفاضل بينهم، بل هم إخوة ينبغي أن يكون التعاون والتآزر على المعروف والتقوى شرعة أساسية لحكمهم، كل ذلك بسبب علمهم بأبوة واحدة.

٢- البشر ينتهون في أصل مادة خلقهم إلى أب واحد خلقه الله -تعالى- من تراب، فمادة خلقهم واحدة، وبالتالي لا يحق لأحدهم أن يحقر أخاه أو أن يستخف به؛ لاشتراكهم جميعاً في مادة الخلق.

٣- توالد البشر بطريقة واحدة (التناسل البشرى)، وهذا يقتضى التساوى المطلق بينهم وخاصة من جهة الإحساس بالتكريم الإلهي، ويكرّس هذا أن مدة الحمل بكل فرد منهم واحدة إلا ما شذ.

٤- الإحساس بالجمع بين كونه كائناً مكرماً من جهة، وتافهاً من جهة أخرى، بمثابة تذكير دائم لبني آدم، فمن أهين أو قبل الاستهانة، فليتذكر أنه كائن مكرم، ومن رام التكبر على بني آدم فليتذكر أنه مخلوق تافه خلق من ماء مهين، وهو حين يتذكر ذلك يسقط القناع وتطرّد الطاووسية التي ركبته أو ركبتها، وأحسن الأوضاع التوازن بين الأمرين.

التذكير بهذه المبادئ المستقاة من العقيدة الإسلامية سعى مستمر لإبقاء البيئة الفكرية طاهرة من الملوثات، وهو في ذات الوقت عمل على تطهير ما كان ملوثاً منها؛ لأن فقد تلك المبادئ حين مباشرة العمل الاجتماعى أو السياسى أو الحضارى يوقع المسلم تحت طائلة سلطان الشهوات والغرائز، وبذلك يفقد إنسانية تصرفاته، ويضيع أصل الهدف من وجوده.

ويعتبر التوحيد في جانبه المشار إليه من أهم محددات التفكير في جانبه المتعلقين بالموضوع والمنهج، فلا حرج على التفكير، ولا حرج على الاختيار والتعبير، وبهذا يتحقق للباحث التحرر من عوامل تعتبر من مكبلات الإدارة البشرية، لعل أهمها:

١- الخوف في الموضوع أو المنهج باعتباره من أهم موانع البحث العلمي الموضوعي، ويظهر هذا الأمر في عدة أشكال وأنماط لعل أهمها: مراعاة السامع حين تبليغ البحث فيخضع لشروطه المحددة سلفاً، وبهذا لا يزيد الباحث أن يكون عربة في قاطرة مجرورة محددة الأهداف والغايات، والسامع في هذا المقام قد يكون سلطة علمية وقد يكون سلطة سياسية أو طلبية أو مجتمعاً أو...

٢- الزهو بالعلم أو المنصب أو الجاه أو الدرجة العلمية، فيخضع الباحث السامع إلى ضغط الألقاب، فيكون الاستحضار الدائم للألقاب حين الخطاب مانعاً من التوجه مباشرة إلى الموضوع المبحوث ويقرب من هذا الضغط بالمؤلفات أو ما شبهها.

٤- الكون من النظرة التوحيدية:

الكون في النظرة التوحيدية مخلوق لله -تعالى- كالإنسان، سخره له وجعله في خدمته بشرط أن يأتيه باسم الله بواسطة ما منحه من استعدادات عقلية وبدنية، ووفق سنن الله -تعالى- في خلقه^(١)، وتؤكد مجموع مظاهر الكون تميز الإنسان عن سائر المخلوقات تميزاً ذاتياً بما استودع من استعدادات، وتتميزاً وظيفياً بما كلفه الله -تعالى- به "التكليف بعمارة الكون وفق مراد الله لأنه مخلوق مكلف مسؤول".

يُستشف مما سلف أن للإنسان صلة وطيدة بالكون، ومبنى ذلك منزلة الإنسان في الكون نفسه، وتتجلى في النقاط الآتية:

١- وحدة الإنسان والكون فكلاهما مخلوق لله -تعالى-، إذ تكرم عليهما الخالق بعناصر الوجود والبقاء.

(١) الإسلام ومتطلبات التغيير الاجتماعي، محمد حسين الطبطبائي، ص ٢٩.

٢- الإنسان كسائر مكونات الكون محكوم بقوانين يسير وفقها، وليس له أى استقلال عن الظواهر الكونية وقوانينها، فهي مؤثرة فى وجوده وبقائه بوصفها الخزان المعرفى والغذائى لجميع حاجاته، وهو بدوره مؤثر عليه من جانب بقاءه صالحاً أو طالحاً، نافعاً أو ضاراً.

٣- الإنسان والكون مشتركان من حيث المصير، إذ يتحركان معاً إلى نهاية قدرها الله - تعالى -: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

٤- وحدة من حيث المالك والمسير

وفى ضوء ما سلف يتبين أن للإنسان فى التصور التوحيدى صلة وثيقة بالكون، تتجلى فيما يأتى:

(أ) صلة اعتبار وتأمل وتفكر:

حيث يعتبر الكون وفق التصور الإسلامى مسرحاً للتأمل وموضوعاً عظيماً للتفكر، بدليل توظيف القرآن الكريم لألفاظ مشجعة على إعمال الحواس فى الكون (نظر، بصر، ومشتقاتهما...) كما وظف ألفاظاً تحث على التفكير والتأمل فى الكون (يعقلون، ويتفكرون، وتدبرون، ويوقنون، ويفقهون...).

(ب) صلة استثمار وتسخير وتذليل:

تبدو صلة الانتفاع والاستثمار والتسخير واضحة جلية فى القرآن الكريم: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٦٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [النحل: ٥-٦]، إنها خطابات تدفع الإنسان وتحفزه ذاتياً وموضوعياً على استثمار الكون وتسخيرها، باعتباره نعمة إلهية خلقت للاعتبار والتدبر والانتفاع والاستثمار، بشرط التعامل معها بما منح من قدرات عقلية وعلمية وبدنية ونفسية^(١).

يتجلى مما سلف أن الرؤية التوحيدية للعالم تؤسس -وبما لا يدع مجالاً للشك فيه

(١) نظام الإسلام عقيدة وعبادة، محمد المبارك.

من خلال نظرتها للإنسان - لبيئنة فكرية متميزة عمدتها الإنسان المكلف بعمارة الكون وفق مراد خالقه، وهذا يقتضى التعامل مع الكون فى إطار تلك الوظيفة أولاً، وفى كنف الحفاظ على أصل البيئنة التى خلق عليها من حيث ثانياً.

فى ضوء ما سبق، وفى إطار الخطة التى رسمناها، سأعرض أصل البيئنة التى خلقت عليها الإنسان وأثرها فى نهئنة البيئنة الفكرية من خلال الحديث عن إصلاح التصورات؛ لأن إصلاح الفكر لا بد أن يقوم على عقيدة صالحة^(١) بمفهوما الإيمانى الجامع بين نباهة العقل وحضوره من جهة، وخشوع القلب من جهة أخرى، وبهذا تهئ الإنسان المسلم فكرياً للتفاعل الموضوعى والإيجابى مع الكون.

ثانياً: إصلاح التصورات أساس إصلاح البيئنة الفكرية

الفكر كما مر معنا، هو تفاعل العقل مع الواقع المعيش بجميع مكوناته، لكن هل يمكن التفاعل مع هذا الواقع بغير تصور كونى مسبق؟

النظرة التوحيدية وكغيرها من التصورات والعقائد تحدد الفكر وترسم سيره، وتشحن قلب المسلم بشحنات تدفعه دفعاً فى مسار تحقيق المسلم الإيديولوجى أو العقدى بواسطة الفكر سواء فى عالم الأشياء أو فى عالم الأشخاص، ويمكن تجلية هذا الأمر من خلال الحديث عن أصل البيئنة التى خلق عليها الإنسان وأثرها فى استنطاق الأوامر والنواهى الإلهية، وتمثلهما فى الحياة اليومية بجميع مضامينها.

١- أصل بيئنة الإنسان من حيث هو؛

خلق الله الإنسان على الفطرة فى جانبها المعرفى والدينى، فقد "خلق الله - تعالى - الإنسان على الحنيفية السمحة فأجلته الشياطين عنها"^(٢)، وما ذلك إلا بمثابة إفساد لبيئته الأصلية، ويشهد له أيضاً حديث الفطرة: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو

(١) إصلاح الفكر الإسلامى، طه جابر العلوانى، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ص ١٩.

(٢) ورد هذا المعنى فى جزء من خطبة النبى ﷺ فيما أخرجه مسلم: "ألا إن ربي أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى. إني خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً...".

بمجانسه»^(١)، فأصل البيئة التي خلقت عليها الإنسان قابلة للتلوث والتغير، ومن حكمة الله أن جعل عودته إليها بواسطة الفطرة المعرفية (العقل الفطري)، فيذكر الإنسان بأصل ما جعل مركزاً فيه من المعارف وأكبر شاهد على ذلك أساليب القرآن الكريم في التذكير، الجامعة بين مخاطبة العقل والوجدان في ذات الوقت.

وتركيز النظرة التوحيدية على أصل البيئة التي خلقت عليها الإنسان من حيث هو، يدل على أنها أساس التعامل مع الإنسان والكون، إذ الغفلة عنها مهتة لبيئة فكرية خاصة منافية لذلك الأصل المشار إليه، بل وتندر بخطر كبير على البيئة بجميع مكوناتها والفكرية منها على وجه الخصوص، بما يجعلها ناقلة للإنسان من طور الإنسانية حين الغفلة إلى طور البهيمية الضارية؛ لأن الفطرة أساس فكرة التكريم، ومن ثم كانت لها أهمية عظيمة في تهيئة البيئة الفكرية.

وفكرة التكريم الإلهي للإنسان تجسد التذكير بأصل البيئة الفكرية والنفسية التي وجد الإنسان عليه في أصل خلقته، كما تذكره بوجوب العودة إليها، بتهيئتها من جديد في جانبها المعرفي والتربوي، ويتج هذا التذكير آثاراً عظيمة على العقل والقلب، يمكن تلخيصها فيما يلي:

٢- آثار فكرة التكريم في تهيئة البيئة الفكرية:

(أ) الآثار المعرفية:

وتشمل: اكتشاف منزلة الإنسان في الكون، والتحرر المعرفي من الأساطير، وتشجيع الروح النقدية، وتدفع إلى التبليغ بعد الاقتناع، وإشباع الفضول.

(ب) الآثار التربوية:

وتشمل: رفض الإذلال أو الذل، ونشر التكريم والتأسيس للتفكير الحر، ورفض فكرة التمييز بين البشر، ورفض الاستخفاف بالآخر، والدفاع عن المستضعفين.

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه "كتاب الجنائز".

٣- آثار الرؤية التوحيدية في تهيئة البيئة الفكرية:

سبق وأن أشرنا إلى أن البيئة الفكرية تتناول أمرين، أولهما يتناول الاستعداد المعرفي، ويتناول الثاني الاستعداد التربوي، ويشكلان في إطار تناغمي الدعوة إلى الحفاظ على البيئة والتعامل معها وفق شروطها الموضوعية، واستثمارها وتسخيرها وفق ما خلقت عليه من استعدادات تجعلها مهيئة للثمين، والتسخير، والاستثمار.

ويمكن تلخيص ما سبق الإشارة إليه فيما يلي:

آثار النظرة التوحيدية للكون على البيئة الفكرية:

(أ) الآثار المعرفية:

وتشمل: الحقيقة الموضوعية للكون، وتبطل فكرة العداوة، وترسخ فكرة الاستثمار، واستعلاء الإنسان، وفرصة التأمل والبحث، وتشجيع العلم التجريبي.

(ب) الآثار التربوية:

وتشمل: التعامل الإيجابي مع الكون، والنظرة الواقعية، وإصلاح التصورات، وتنمية إرادة البحث، والصبر على البحث، وأداء حق الله -تعالى- فيها.

إذا كانت البيئة الفكرية في أصلها على وفق ما صورنا، فما هي ملوثاتها؟ بين مما سبق أن الملوثات تتناول أمرين رئيسيين، يتناول أولهما ملوثات البيئة الأصلية للإنسان، ويتناول ثانيهما نظرة الإنسان إلى الكون والحياة؛ لهذا سأعرض المسألة من الزاويتين المشار إليهما في نسق واحد، وألحق بهما الملوثات المتعلقة بغياب المعرفة، وأختتمها بالملوثات النفسية والسلوكية.

ثالثاً: ملوثات التصورات التوحيدية

١- مدخل عام

قررنا فيما سبق أن الله -تعالى- خلق الخلق على الفطرة في جانبي المعرفة والدين بما يحمله من مضامين تربوية وأخلاقية تعرف بأخلاق الفطرة.

ويظهر تلوث الشق الثاني بما يعرف في العقيدة الإسلامية (التصورات النظرية) بمضادات التوحيد (الشرك، والنفاق، والكفر، ..)، وإذا تلوث أصل الإنسان بمثل هذه الأمراض فإن مجموع أعماله ستنصبغ بمطلبات هذه المضادات، فتتأثر أعماله العلمية ومواقفه الاجتماعية، بل ويفوق ذلك ليؤثر في الأداء الحضارى العام بما يحمله من أثر على الفكر والتفكير.

ولبيان ذلك اخترنا النماذج الآتية:

الشرك والكفر، بوصفهما من مضادات التوحيد ومن الملوثات الأساسية لأصل ما خلق عليه الإنسان، يؤثران في الموقف الفكرى وتفسير الظواهر السننية (الطبيعية) والإنسانية، كما يؤثران أيما تأثير في الموقف السلوكى المؤسس على هذا النمط من التفكير، ويمكن تلخيص هذا الأمر في المناحي الآتية:

١- تفسير الظواهر الكونية في جانبيها الشيسى (عالم الأشياء)، أو الإنسانى (عالم الأشخاص) بمركزية الإنسان، ينجر عن قبول هذا الرأى كمسلم نظرى صحيح عدة أمراض لها تأثير كبير الأثر على تلويث البيئة الفكرية التوحيدية، لعل من أهمها: ظاهرة النفاق فى جوانبها المتعددة والمتمظهرة أساساً فى الموقف السياسى والشقافى والاجتماعى، بل ويجاوز ذلك فيؤثر على العرض الموضوعى للفكر نفسه.

٢- اتخاذ مواقف اجتماعية، وسياسية منسجمة مع تلك التصورات مما يجعلها مؤثرة على الأداء الحاضر والمستقبل للفكر، بل ويجاوزه إلى تلويث البيئة الفكرية سواء فى تفاعلها مع الفكر أو فى تهيئة الجو الصحى لصناعة الأفكار الفاعلة فى الحاضر والمستقبل.

ولتوضيح المسألة أكثر اخترت التفصيل فى النفاق من جهة كونه من مضادات التوحيد المؤثرة على التصورات والأعمال البدنية والعقلية والنفسية، بل يجاوزها بالتأثير على تفسير الظواهر الإنسانية والفلسفية والسياسية والحضارية، وحتى ذات الطبيعة الشبيهة أحياناً.

٢- تجليات أثر النفاق فى تلويث البيئة الفكرية:

نفهم حركة النفاق فى إطار آثارها الوخيمة على تلويث البيئة الفكرية من زاويتي بعديها النفسى والاجتماعى بوصفها العناصر الرئيسية المحددة لعمل الفكر، والممانعة دون انطلاقة وتفاعله الإيجابى والموضوعى مع عالم الأشخاص.

(أ) يضطر البشر من منطلق الخوف من اكتشاف حقيقتهم إلى التخفى إلى حين زوال المخيفات، فإذا زالت دفعوا الأستار وكشفوا عن حقيقتهم، والتستر ليس عملية شخصية لا تطال الآخرين، بل تؤثر فى الموقف الفكرى مما يقع فى هذه البلاد أو تلك.

(ب) يترجم الموقف النفسى السابق فى موقف اجتماعى، فيضطر المنافق إلى مجارة الأحداث والانصياع لها إلى حين، ويتجلى الموقف المنافق فى العمل العلمى، والسياسى، والثقافى، والاجتماعى كالتالى:

* الخضوع لمطالب المستمعين سواء كانوا سلطة أو معارضة، أو شعباً، فيتقن هذا النمط من الباحثين فى تأييد السلط السياسية، بل قد يجاوزونه إلى إبطال آراء جميع مخالفها، وفى ذلك أكبر التجنى على البحث العلمى والمطارحات الفكرية.

* التخاذل عن نصره البحث العلمى الموضوعى، وبالتالى التخاذل عن نصره الدين.

* إثارة الشائعات المدمرة بهدف توجيه الفكر للتفكير فى مشاكل وهمية، وشغله عن القيام بدوره الحضارى المنتظر منه فى إطار التصور التوحيدى.

* التخريب الداخلى لعالمى الفكر والأشياء، من خلال التركيز على التحضير النفسى للمخاطب.

* تأسيس المؤسسات الضرار بغرض توجيه الفكر، ثم الهيمنة على سوق التوجيه أو التشويش على المؤسسات الأصلية أو التشكيك فيها على الأقل.

* إذا فشلت كل محاولات الاستقطاب سيضطر النفاق إلى أعمال مسلك الاستفزاز الفكرى بغرض استنزاف الطاقات فى معارك وهمية الراح فيها خاسر، وهو بمثابة تخريض على استعمال العنف وفق قاعدة الضارب المستعطف 'ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى'، فيظهر المنافق بمظهر المظلوم ليس لهدف سوى تأليب الرأى العام على المظلوم الحقيقى، وأكبر شاهد أماننا الحبلى بهذه النماذج من الظلمة.

* التمكين للنفاق يبعد الكفاءات الفكرية عن مقاليد التوجيه فى المجتمع، بل يبعدهم من الميادين التى يحسنها غيرهم، فيصبح نيل منصب التوجيه والإرشاد -بل وحتى الحقوق- استعطاءً لا استحقاقاً، فيمكن للرداءة الفكرية والانتهازية، بسبب وقوع مقاليد الأمور فى أيدي المنافقين، فيعملون على تهيتة جو ملائم لبقائهم ومساعد على ديمومة أفكارهم.

رابعاً: الملوثات المتعلقة بالمعرفة

تظهر ملوثات البيئة الفكرية فى جانبها المعرفى فى غياب أو تغيب العلم وهيمنة روح الجهل فى علاقاتنا المعرفية، ومواقفنا الاجتماعية، كما يتجلى أيضاً فى هيمنة التقليد، والوقوع تحت طائلة المكبلات الإيدلوجية، والاستخفاف المعرفى أو قبوله، وأحادية المنهج رغم تعدد العلوم من حيث طبيعتها وحقيقتها.

١- الجهل وأثره على البيئة الفكرية

يعد الجهل من أهم أسباب عدم قيام الأمم بأصل وظائفهم، والسير فى طريق الشور، الجهل هو الذى يصور الأشياء على خلاف حقيقتها، وبذلك يوجه الفكر من خلال تهيئة بيئة فكرية جاهلة- إلى ميادين مخصوصة فى الحوار والنقاش والموقف الاجتماعى العام، بل ويتعداه إلى الأداء الحضارى، فتشل الطاقات وتستنزف قوة الأمة فى معارك وهمية.

إن الجهل يصور التطاول على الفكر شهامة وبسالة وشجاعة، ويصور خدمة الأجنبي إنسانية وفخراً وشرقاً، بل قد يجاوز إلى أخطر من ذلك فيغيب الإحساس بتلك الجرائم المقترفة في حق الأمم والشعوب بسببه؛ لهذا فالجهل "أم الشرور والأمراض، بل إن كل بلاء يحل على أى أمة من ابتداء العالم إلى نهايته إنما هو وليد هذه الآلام وثمرها"^(١)، ومن ثم فالجهل رأس ملوثات البيئـة الفكرية، بوصفه سبب العزوف عن التفكير فى طلب العلم فضلاً عن تجسيد متطلبات العلم أو نتائجه، كما يعد من أهم الحوائل دون البحث الفكرى الجاد والهادف، حتى ليعد هذا النمط من التفكير السليم ضرباً من التشويش والجهل وفق ما ورد فى المثل السائر "رمتنى بدائها وانسلت".

٢- هيمنة التقليد

يهيمن على عقل المسلم منذ أمد بعيد القراءة التاريخية وخبرات أسلافه، بفعل شيوع التقليد والوقوف دونه^(٢)، فأصبح دور العقل المسلم التفتن فى الرجوع إلى الماضى بوصفه أتمودجاً كاملاً فى السياسة والحكم والتعلم والتفاعل مع الواقع المعيش، والفكرة فى حقيقة الأمر ليست باطلة بإطلاق، بل هى خطيرة من حيث عملها على دعم الوجود التاريخى المتعلق على حساب الوجود الحضارى المطلوب، إذ رسخ فى قلب المسلم المعاصر ونفسه أنه لا صورة ممكنة ومناحة للعيش فى كنف الإسلام إلا تلك الصورة التاريخية المنقولة، وأى خروج عنها يعد خروجاً عن الإسلام^(٣).

فتحول الإسلام -الذى هو فى حقيقة أمره تحول دائم من التقليد إلى الأصالة^(٤)-

(١) "ضد الاستبداد"، توفيق السيف، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء وبيروت، ١/٣٤٤، ١٩٩٩.

(٢) انظر: ما قاله ريتزر عن التقليدية وتأثيرها فى التراجع الثقافى الإسلامى، "الإسلام المعاصر"، رضوان السيد، دار البراق للنشر، تونس، الطبعة الأولى، ص ٢١٥.

(٣) لا يذهب بك الخيال بعيداً فتظن أن الجيل الأول لم يكن أتمودجاً يحتذى فى تفاعله مع الواقع المعيش، بل المرفوض أن نحاول بحث وضعهم بمكوناته الدينية فى عصر غير عصرهم، وهذا بمثابة بحث ما لا طائل منه.

(٤) "الإسلام ومستقبل الحضارة"، صبحى الصالح، دار الشورى، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، ص ٣٣٩.

إلى تاريخ، عوض التفاعل معه بما يقتضيه من مراجعة دائمة لخبرتنا الفقهية والاجتماعية والفكرية بناء على ما ثبت من نصوص وصح من اجتهادات، في إطار ما طرأ علينا من إكراهات.

فالتقليد في الأوساط العلمية الأكاديمية من أهم موانع الانطلاقة الفكرية المنتظرة من جهة، وأهم ملونات البيئة الفكرية من جهة توجيهها إلى ميادين مخصوصة في البحث من جهة ثانية، والحيلولة دون ولوج ميادين بحثية يفرضها الإكراه الحضاري في الواقع المعاصر.

٣- المكبلات الإيديولوجية (الأفكار المسبقة)

يُساق الإنسان في ميادين البحث - شاء أم أبى في كثير من الأحيان - بقناعته المسبقة، فيقرأ ويحلل كل ما تبلفه عينه بما رسخ في نفسه ووقر في قلبه من أفكار مسبقة، وفي ذلك أكبر بلاء على العلم والمعرفة، فتكون الآثار المسبقة ملوثة للبيئة الفكرية بوصفها مانعاً قوياً من القراءة الموضوعية؛ لما تقتضيه من دخول الباحث مشحوناً بأفكار تسوقه سوقاً إلى نتائج محددة سلفاً، وخطورة هذا الأمر حذرنا الشارع الحكيم من الوقوع تحت طائلته، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء]، أي "إنك أيها الإنسان تسأل عما تسنده إلى سمعك وبصرك وعقلك.. وهذا أدب خلقى عظيم، وهو إصلاح عقلي جليل يعلم الأمة التفرقة بين مراتب الخواطر العقلية بحيث لا يختلط المعلوم والمظنون والموهوم، ثم هو أيضاً إصلاح اجتماعي جليل يجنب الأمة من الوقوع والإيقاع في الأضرار والمهالك من جراء الاستناد إلى أدلة موهومة" (١).

من منطلق ما سبق بيانه يتجلى أن الأفكار المسبقة من أهم ملونات البيئة الفكرية من منطلق شرعي وعقلي؛ لأنها من العناصر التي تعيق سير العقل والفكر سيراً عادياً وموضوعياً. ولعل من أهم الأمراض الفكرية المنبثقة عن الرواسب الفكرية، الاستخفاف المعرفي أو قبوله، كما يظهر في أحادية المنهج المحكم في جميع العلوم والمعارف.

(١) "التحرير والتوير"، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ج ١٥/١٠١.

(أ) الاستخفاف المعرفى أو قبوله

يعد الاستخفاف بالآخر فى ميدان المعرفة من أهم أسباب عدم تصحيح الأخطاء الفكرية أو التفكير فى تصحيحها على الأقل، وهذا الملوث لا يقل شناعة عن قبول الاستخفاف بالعقل والفكر، بل يعدان من العناصر التى تختلط فيها العناصر النفسية (الاستكبار وقبول الاستخفاف) بالعناصر المعرفية، فالذى يستخف أو يقبل استخفاف الآخرين فى الميدان المعرفى لا ينتظر منه أن يكون على خلاف ذلك فى الموقف الاجتماعى والسياسى والفكرى وحتى الحضارى.

(ب) أحادية المنهج

يهيمن على عقول بعض الباحثين والمؤلفين أن العلم واحد وموضوعه واحد لا يتعدد، ويخلص إلى نتيجة مفادها أن منهج بحث ودراسة العلوم والأفكار واحد، بلوى الفكر بهذا الداء فى فترات منقطعة من تاريخ الإنسانية، ففسرت كل مسائل العلم والفكر فى حقبة غلبة التحليل المادى للتاريخ بهذا المنهج، واستولى التفسير التجريبي على عالمى الفكر والشعور حين هيمنة هذا المسلك التحليلى على عقول الناس فى فترة من فترات التاريخ، وهكذا ما كانت الغلبة لمنهج فى فترة من الفترات إلا وكان سيد الموقف فى تحليل كل شىء حتى ما لا ينسجم مع طبيعة ذلك المنهج، ومن نماذج هذا المسلك الإغراق فى المذهب على حساب الدين، فيرى أصحابه الدين من خلال المذهب، وقد كان - وما زال - هذا سبباً فى ضياع الولاء لله تعالى فى أعمالنا، كما كان سبباً فى فقد روح الالتزام، فضاع الإسلام فى صورته الإنسانية الحضارية من جراء هذه التصرفات المنبثقة عن الأحادية المتحكمة فى عقولنا وأفكارنا وسلوكنا، ولا تتوقف أحادية المنهج عند هذا الحد بل قد تتجاوزها إلى تفسير كل أمور الكون المادية والمعنوية تفسيراً غيبياً يلغى كل سلطة للإنسان على عالمى البناء والشهود الحضاريين، وقد يزكى هذا المسلك من قبل مؤسسات علمية هدفها صرف الباحثين عن التفكير فى البناء الحضارى، فضلاً عن المساهمة فيه بغرض تعطيل وظيفة الشهود الحضارى من خلال التشويش الإعلامى بغرض صرف الناس عن الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى -.

٤- غياب النقد المقاصدي (الغائي)

الأصل أن يبادر الناقد قبل النقد إلى التساؤل عما يقدم نقدنا كقيمة معرفية مضافة، وماذا يقدم كموقف حضاري؟ ما هي مقاصد النقد من الناحية المعرفية والحضارية؟ بمعنى ما هي موجبات النقد من الزاويتين المعرفية والحضارية؟ ليس المقصود في هذا المقام التعامل الإيديولوجي مع الأفكار من خلال إخضاعها لمقاصد الإيديولوجية السياسية الاجتماعية^(١)، بل المقصود هو التساؤل عن البعد الوظيفي في إطار غائية التساؤل الموضوعي عن قضاياها.

الجواب الصحيح عن السؤالين وبكل موضوعية، يشهد به السائل على نفسه (دون استجابة لداعى الخوف والضغط الأدبي أو المالى أو السياسى)، استفتت قلبك فإن أفتاك فأقبل، بمعنى إن وجد إجابته عن تساؤلاته موجبة للإقدام أقدم، وإن وجد فيها غير ذلك أحجم، فالامتناع عن مساءلة النفس والفكر يعد من أهم أسباب تلوث الفكر بعناصر تمنع البحث الفكرى الموضوعى، كما هو شأن كثير من البحوث التى يساق إليها الباحث بدافع نصرة أصحابه أو إذلال غيرهم أو ما شابه ذلك، وإدراج هذا الملوث فى خانة الملوثات المتعلقة بالمعرفة؛ بسبب تسريه إلى الفكر من جهة الوسط الثقافى الذى يزكى هذا النوع من الانشغال على حساب النقد الفكرى الفاعل فى حاضرنا والمساهم فى بناء مستقبلنا، ومن ثم كان هذا العامل من ملوثات البيئة الفكرية فى شقيها المعرفى والتربوى.

خامساً: الملوثات النفسية

من نافلة القول البيان التفصيلى لدور العناصر النفسية فى توجيه الفكر، إذ فى الغالب يساق المرء بقلبه حتى فى سير فكره وعقله؛ لهذا كانت هذه العوامل ملوثة للبيئة الفكرية حال تنكّبها عن جادة الصواب والاستسلام لرغباتها ونزواتها، ولعل من أظهر تلك الملوثات جعل الدنيا هدفاً نهائياً من الوجود والاستبداد، وهيمنة روح التسليم للواقع، وفقدان عناصر التربية الفكرية.

(١) انظر: 'مجمع النخبة'، برهان غليون، دار البراق للنشر، تونس، ١٩٨٩م، ط٣، ص٢٤٥.

١- جعل الدنيا هدفاً نهائياً من الوجود

جعل الدنيا هدفاً نهائياً يعرض أصحابه للوقوع تحت طائلة الغرائز، فيعمل المبلى بها على قضاء كل ما تطلبه ولو على حساب الآخرين -وهي دائماً كذلك-، ومادامت منافع الناس متضاربة وتحققها أو منع فقدانها لا يتم إلا بالفكر، فسيضطّر المدافع عن منافعه إلى أعمال كل الوسائل الفكرية من أجل الحفاظ على تلك الغنائم، وبهذا الصدد سيكون فكره مقيداً ممنوعاً من الحركة في غير الطريق الذي رسمته له منافعه المادية، فيتحول الإنسان من جراء ذلك عن إنسانيته إلى حيوان متوحش باستطاعته فعل الأعاجيب من أجل تحقيق رغباته، وهكذا يفقد الإنسان إنسانيته لمجرد ضياع الهدف من الوجود الإنساني، ومن كان هذا شأنه ففكره كما ترى ملوث بل وواقع تحت سلطان الدنيا تجره جراً إلى حيث يفقد إنسانيته، وما الصراع العالمي الذي ضاع في جوه حق المستضعفين من أفراد وشعوب وحكومات إلا بسبب هيمنة حب الدنيا عند الكبار، ويتجلى أثر ذلك على الفكر في الازدواجية المحكّمة في العلاقات السياسية والفكرية والثقافية بين الشعوب والدول، فما يرى حقاً في بلد فهو ليس كذلك في بلد آخر ولو تشابهت كل المعطيات، ودواعي معاونة هذا البلد قد تكون سبباً في الامتناع عن معاونة بلد آخر، كل ذلك بسبب حب الدنيا الذي ولّد الكيل بمكيالين في الثقافة والاجتماع والسياسة بل وحتى الحضارة.

٢- الاستبداد أو قبوله

يذهب العقل حين الحديث عن الاستبداد إلى الميدان السياسي مباشرة، والمسألة حسب تقديرنا أوسع من أن تحصر في هذا الباب، وإن كنا نعيش استبداداً سياسياً لا ينكره إلا مكابر - مستبدون إلى النخاع من خلال علاقاتنا بطلبتنا وأسرنا وأولادنا، ومجتمعاتنا؛ لهذا لا نستبعد أن يكون كل واحد فينا ممارساً للدور السلطة بمفهومه السلبي الذي يعنى التسلط والقهر، بل قد يكون كل واحد منا يتصور نفسه عملياً فوق مقام الاستدراك فضلاً عن النقد، يصدر الأوامر وما على الآخرين إلا التسليم بما يريد، فكيف لمن كان حاله على وفق ما ألمحنا أن يستغرب الاستبداد السياسي؟

والاستبداد يعد من أهم موانع المناقشات الفكرية الهادئة والهادفة لما يقتضيه من كم للأفواه وتقييد للأيدى، وبالتالي سيكون حين العمل به أو الاستجابة له ملوناً خطيراً للبيئة الفكرية؛ لأنه يمنع البحث الموضوعى سواء فى قضايا النزاع الفكرى أو غيره، وتزداد خطورة الاستبداد على الفكر حال تلبسه بالدين من خلال الاستدلال على ضرورته والتسليم به لشواهد نصية أو تجربة تاريخية معينة، فتتحول رغبات ونزعات وإرشادات أشخاص معينين ديناً لا يجوز العدول عنه بفعل بعض المعدودين فى أهل العلم، فيصير الفكر بهذا مصروفاً عن التفكير فى مثل أصل هذه القضايا أو المسألة عنها على الأقل، رغم ما لها من تأثير وخيم على توجيه الفكر، لما يحمله هذا الموقف من خلع نوع قداسة على أشخاص أو أفكار معينة.

إن الاستبداد بمفهومه العام -السياسى، والفكرى، والتعليمى، والحضارى- يعد ملوناً قوياً للبيئة الفكرية، بوصفه من أهم صوارف الفكر بكل حرية فى المواضيع التى يراها ذات نفع فى الحاضر والمستقبل.

والاستبداد نفسه -حسب تقديرنا- لا يقل شناعة عن قبول الاستبداد من حيث تلويثهما للبيئة الفكرية، إذ قبول الاستبداد يترجم فى موقف فكرى يتجلى فى البحوث والمؤلفات، فيتفنن قابلو الاستبداد فى التأييد والمرافعة عن رأى المستبد (قد يكون سياسياً، وقد يكون معلماً أو مثقفاً أو غنياً أو...) ولا شك أن من كان هذا شأنه سيكون بعيداً كل البعد عن البحث الموضوعى، وخاصة فى المسائل المتنازع حولها فى عالمى الأفكار والأشخاص.

إن العقل المبرر للاستبداد 'فكر قمعى لا يستطيع أن يتحمل الأفكار التى تنطوى بسهولة ضمن إطار معطى سلفاً؛ لهذا فالأفكار المخالفة مرشحة للمصادرة الدائمة؛ نظراً لما تقتضيه من تجاوز للمعطى المسلم به، وأساس هذا التحليل السلوك الوسواسى نفى الآخر عقلياً، أى رفض الآخر من خلال رفض حق الاختلاف فى وجهات النظر، ولا شك أن ذلك مقدمة للإتكار الجسدى، أى هو الشكل الأول من أشكال الاغتيال،

والانتقال من هذا الشكل الأول من القتل النفسى إلى الشكل الثانى، أى القتل المادى لا يحتاج إلى تفكير جدياً بقدر ما يحتاج إلى تجسيد القتل النظرى الممثل فى الاستبداد؛ لأنه لا يتطلب تفكيراً جديداً بقدر ما يتطلب حالة انفعالية جديدة، فبمجرد تغير مزاج المستبد يقع ما يحمد عقباه^(١)، وبهذا يصبح الفكر المبرر للاستبداد ملوئاً للبيئة الفكرية، معداً لنفوس انتقامية وظيفتها الاغتيال فى الوقت المحدد فى الظروف المحددة.

وبهذا يتحول الفكر بواسطة هذه الملوثات عن وظيفته الأصلية؛ ليستفرغ - وبشكل كلى - لمهمة تصفية الفكرة المخالفة أو تحميلها مسؤولية جميع الإخفاقات، عوض العمل على تغيير الواقع الفاسد^(٢) والتقارب بين القوى الفاعلة فى المجتمع بهدف مواجهة الخطر المحدق بالجميع.

٣- هيمنة روح التسليم

يعتبر التسليم للواقع بجميع مكوناته امتداداً عادياً لفكرة الاستبداد بمفهومها العام، وقد ظلت فكرة التسليم هيمنة على فكرنا منذ أمد بعيد، فتولدت عنها أمراض أخطر، لعل من أهمها أن يقوم الرجل منا مقام المستبد فى تشييط العزائم، فيؤلب العامة على من رام الحديث عن التغيير فضلاً عن الذى يعمل على تجسيده.

وقد غيبت العناصر الروحية من نفسيتنا ولوثت بيئتنا الفكرية بفعل شيوع تشييط العزائم الذى نخر لأوصال الأمة، فلا مشجع على البحث الموضوعى وخاصة فى المسائل المخالفة لرأى شائع أو حاكم مستبد، أو عالم مهيمن على الثقافة والمال، و...، والمعينون على التزلف والتملق بأصحاب الجاه والسلطان السياسى والثقافى والمالى كثر، ويكاد يكون هذا المرض شاملاً لجميع البيئات العربية والإسلامية، وقد شكوا أحد الصالحين من هذا المرض فى بيئته، حيث قال: "هناك بيئات خاذلة مثبطة، وهناك بيئات دافعة منشطة، وبيئتنا من النوع الأخرى، ما تنهض لواحد من بينها إلا إذا فرضته عليهم

(١) انظر: 'مجتمع النخبة'، برهان غليون، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) المرجع السابق نفسه.

قوة من خارج^(١)، وما أظن بيئتنا العربية والإسلامية مشرقاً ومغرباً بعيدة عنها سواء في الأداء السياسي أو الثقافي أو التعليمي.

إن التسليم بالواقع من أهم ملوثات البيئة الفكرية من جانب توطين السكوت عن البحث الموضوعي والحيلولة دون بعث التفكير الحر، لما يقتضيه من تجاوز لتكبييل الفكر وتحديد لمجالات بحثه، وجبره على السير في مسارات محددة سلفاً من قبل الفكر الإطلاقي المجسد في العقليتين التسليمية والمسلم بها.

٤- فقدان عناصر التربية الفكرية

تنقسم هذه العناصر إلى صنفين، يتناول أولهما العناصر النفسية من التربية، ويتضمن الثاني العناصر المعرفية في جانبيها المنهجي المتعلق بمواضيع العلوم، وهذا يقتضى تكويناً مستمراً في جميع الجوانب المشار إليها.

(أ) العناصر النفسية

أهمل المسلم المعاصر بفعل الإكراهات الواقعية ومتطلبات الحياة البائسة - بفعل الفقر عند البعض والتخمة عند البعض الآخر - كثيراً من عناصره النفسية التي يولد مزوداً بها، وإذا به بفعل التربية الاجتماعية والمدرسية، والمنظومات القانونية، والممارسة السياسية، يكتشف بأنه لا يتمتع بقدرة على التغيير الفكري، ثم يتحول في قابل الأيام بفعل استثمارها الذكي من قبل المخالف - إلى فقدان القدرة على تحقيق التغيير الفكري المنتظر، وتتحول تلك النزعة بعد أيام وبفعل التذكية الرسمية بشقيها السياسي أو الثقافي (الديني) إلى فقدان الرغبة في التفكير في التغيير فضلاً عن القيام به، وهكذا يتحول إنسان المنطقة من كائن مكرم خلقه الله - تعالى - حرراً بالتكليف إلى إنسان فاقد للرغبة والإرادة والقدرة، وكأنه مشلول على طول الخط (بأكل القنوت ومنتظر الموت)، يسلم أمره (لمولاه) يفعل بشأنه ما يشاء، وكأنها

(١) "قصة حياة"، ص ١٧٠.

جبرية بعثت من مرقدتها، ولهذا كان التسليم بفكرة التسليم ملوثاً للبيئة الفكرية وحاتلاً دون انطلاقة العقل والفكر في عالمه الرحب.

وبهذا الصدد تعتبر العولمة من أبرز القوى الخارجية المسلم بها ولها لدى البعض بوصفها عاملاً فاعلاً في البيئة الفكرية، وقد عملت العولمة على القضاء على التنوع والتعدد في المجتمع الدولي، والتي من خلالها تختار الصراع وسيلة للحوار (عوض الحوار الحضاري السلمي الهادي)^(١)، ويؤكد هذه المعاني عدم قبول الغربيين والأمريكان على وجه الخصوص بالديمقراطية الحضارية المعبّر عنها في حقيقة الأمر بالديمقراطية السياسية؛ لأن الفعل السياسي ليس لإنتاجاً لفلسفة كونية مستقلة، لهذا عدّ رفض الديمقراطية الحضارية دليلاً قاطعاً على أحادية النموذج الذي يراد فرضه على المستضعفين.

العولمة لهذا المعنى ليست في حقيقة الأمر إلا تسويقاً جديداً لأفكار سابقة عرفت في ماضى الأيام بـ"الثقافة الواحدة والوحيدة"، وهي النموذج الوحيد للخروج من دائرة التخلف والخلوص إلى التقدم وفق بعض التصورات، وقد عبر عنها الدكتور على شريعتي بمصطلح "Monoculture"^(٢).

ووجه الصلة بينهما جلى حسب تقديرنا، إذ تتجلى في العولمة المنهج العالمي الموحد للاتفاق من التخلف ولولوج طريق التقدم، وقد صورّ هذا المسلك ففي طريق وحيد لا محيد عنه، حتى صور لنا أننا أمام جبرية جديدة ليس في مقدورنا التفكير في مواجهتها فضلاً عن مواجهتها بالفعل، فمن أراد التقدم فهذا هو المسلك^(٣) ولا طريق غيره، كما

(١) قد رام التبشير بهذه الفكرة عالين أمريكيين، يرى أحدهما توقف التاريخ عند النموذج الأمريكي، يرى الثاني أن الصراع الحضاري ضرورة موضوعية وحضارية وفق التصور الأمريكي، انظر: "الحكمة" مجلة عراقية تصدر من بيت الحكمة، العدد العاشر السنة الثانية، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٠م، مقال سامي مهدي، "أهمية ليبرالية أم نظم ديمقراطية"، ص ٥٠-٥١.

(٢) العودة إلى الذات، الدكتور على شريعتي، ترجمة: دسوقي شتا، دار الزهراء، القاهرة.

(٣) حاول وما زال الأوروبيون يحاولون الخلاص من الطوق الأمريكي الذي يراد فرضه باسم العولمة، وقد تجلّى هذا الأمر من خلال المشروع الأوروبي الموحد في مجال المال والأعمال والاجتماع، بل وتعداه إلى النموذج الثقافي الموحد.

تجلى في الثاني (الثقافة الوحيدة) بوصفها المسلك الوحيد للتقدم، فصارت وفق هذا التصور الثقافة تُستورد كاستيراد المواد الغذائية، فمن أراد إمتاع الجسد فهذا طريقه الوحيد، ومن أراد التحضر والتقدم فهذا مسلكه الوحيد أيضاً (وهو طبعاً الطريق الغربي عندهم).

ومن أهم مظاهر الثقافة الوحيدة التي يُراد تبرير فرضها العلمانية والأنموذج الأمريكي للديمقراطية وحقوق الإنسان في الأوساط الإسلامية، بشرط أن لا تكون وسيلة للديمقراطية حضارية؛ لأنها بذلك تصبح خطراً على الأنموذج الذي ييشرون به في العالم كله، وهي ولا شك من أهم عوامل تلويث البيئة الفكرية، إذ ليس بمستطاع للمفكرين المستقلين عن النمط الفكري الأمريكي في ظل النظام الموحد والوحيد كسر الطوق المسلط على المستضعفين وفق رأى كثير من الساسة والمثقفين السائرين في ركابهم.

يتجلى في العاملين السابقين، التلويث المقصود للبيئة الفكرية في العصر الحديث؛ لهذا يقال لنا ولسائر المستضعفين -وفق بعض التصورات-: إما أن تدخلوا الصف مختارين وإما ستدخلونه مرغمين، وفي ظل هذا التلويث ما الذي يجب القيام به؟ وهو السؤال المفروض أن يفكر الجميع في الإجابة عنه بطريقة موضوعية، ولعل من العناصر الأولية للإجابة أن نبتعد عن تولى وظيفة الآخر في تثبيت العزائم، فإننا وإن لم نتمكن من المقاومة الفعلية، يجب أن لا نجهز على بذرة المقاومة فينا كقوة كامنة مبلّغة إلى الأجيال اللاحقة، وبهذا نكون قد قمنا ببعض ما علينا من تكاليف شرعية، وذلك يحقق أقل ما يجب علينا تجاه الأجيال اللاحقة.

والمهم حسب تقديرنا في هذا السياق أن نؤسس لحسن السؤال الوظيفي، وإن كان الجواب التفصيلي صعب المنال في إطار الجهود الفردية، والأهم من ذلك أن نكتشف أثر هذه الأنكار العالمية في تلويث البيئة الفكرية؛ لهذا أدعو إلى الحذر من خطورة التسليم لهذه القوى المهيمنة على الثقافة والسياسة والاجتماع، فإننا -وإن قصرنا في القيام بالواجب- ملزمون شرعاً وعقلاً ومن منظور تبرئة الذمة الشرعية، التي من

متطلباتها تبرئة الذمة الحضارية، وذلك بتعهد بذرة المقاومة الفكرية في نفوس أبنائنا وحملة ميراثنا، فلا تقوم مقام الآخر في تسويق أفكاره ومبادئه التي يهيمن بها على العالم من جهة، وتفجير التفكير في التحرر من جهة أخرى، فضلاً عن التجسيد الحضارى والتربوى لفكرة الانعتاق نفسها.

(ب) العناصر المعرفية

يلاحظ المسلم المعاصر غياب القراءة المنهجية لخبرتنا المعرفية، إذ يغلب على جهودنا الجانب الكمي على حساب القراءة الوظيفية الانتقائية، وبفعل أساليب التعليم غيب السؤال المنهجي والموضوعى فى مناقشة قضايانا الفكرية والحضارية، وقد ولد هذا النمط من التعلم والتعليم منهجاً معيناً فى الأوساط الأكاديمية، ونظراً لغياب هذا التساؤل المنهجي فى كنف نقص فطبع فى الجوانب النفسية من التربية الفكرية، نهتم بمسائل مية ميمته فى تاريخنا الثقافى، فأحييت القضايا الميتة من خبرتنا المعرفية، واشتغل الناس بها عن القيام بالتواصل الحضارى مع الأجيال بل ومع الإنسانية فى كنف الميزة الإنسانية لدينا الختيف، إذ من أهم أبعاده ومقاصده التعامل الإنسانى وإشاعة الإنسانية فى التعامل.

ورأس البلايا فى التربية الفكرية فى جانبها المعرفى قلة الاهتمام بالثقافة العامة بجميع مضامينها، وهيمنة القراءة التماساً للبركة على حساب القراءة الوظيفية، وقد نتج عن هذا النمط من القراءة والكتابة تغييب القراءة المساءلة المنهجية فى جميع قضايانا، وجاوزوا ذلك إلى إنكار المساءلة المنهجية والقائمين عليها بوصفها بدعة لدى البعض، ومدعاة لفتح باب موصد بإحكام لدى البعض الآخر، أو قد يترتب عليها زلزال جديد على مستوى المسلمات الفكرية لدى فريق ثالث، والقطعيات الفكرية - بفعل التاريخ والتكرار - لدى البعض الآخر، ولعل أصدق أمثوزج على الدعوة لقراءة جديدة وظيفية موضوعية علم مقالات الإسلاميين، وهو موضوع شائك حسب تقديرنا يستدعى نوعاً من الحضور الإيمانى المستمر حين القراءة والكتابة أولاً، زيادة إلى وقادة

فكر وتكوين منهجى رسالى (فى موضوع الالتزام والتساؤل الموضوعى والمنهجى).
وبهذا الصدد يعد عدم الالتزام بهذه الضوابط تغييراً للتقوى فى جانبها المعرفى؛
لأن المسلم لا يصعب عليه استحضر التقوى فى جانبها الاجتماعى والأخلاقي
والأدبى، ولكن من الصعوبة أن يستحضر التقوى حين ممارسة البحث أولاً والتعبير عن
نتائج ذلك البحث ثانياً، والمسألة فى غاية التعقيد؛ نظراً للتداخل الكبير بين المذهب
والدين، على مستوى التصور، ولا شك أن التوفيق فى هذا الأمر عزيز جداً، ولعل
أصدق نموذج على ذلك ما كتبه العلامة جمال الدين القاسمى فى كتابيه "الجرح
والتعديل" و"المعتزلة والجهمية".

سادساً: الإعداد الفكرى لمواجهة الملوثات

معلوم أن صرف دواء العلاج يكون وفق التشخيص؛ لهذا فإن مقترحنا منسجم كل
الانسجام مع ما سبق تقريره من ملوثات، فنعرض عناصر الإعداد الفكرى لمواجهة
تلوث البيئة الفكرية على النحو الآتى:

١- عناصر الإعداد فى التصورات (الإعداد الإيمانى).

٢- الإعداد المعرفى.

٣- الإعداد النفسى.

١- عناصر الإعداد فى التصورات؛

(أ) التأثير العام

تبدأ عملية إصلاح التصورات ببيان مركزيتها فى تطهير البيئة من الملوثات،
فالعقيدة الإسلامية ليست من قبيل المعارف الصرف التى لا تبين قصراً ولا تهدم مصرعاً،
بل هى محرك النفوس للتأسيس الحضارى المنشود، إذ هى قوة الدفع الداخلية فى
التعلمية التغيرية على مسوى الأنفس أولاً ثم على مستوى الآفاق ثانياً، وإذا كان
للتصورات وفق النظرة التوحيدية هذه المنزلة فينبغى أن يعمل كل فى دائرة عمله على
ترسيخها فى الضمير الشعبى والوسط التعليمى.

ويعقق هذا التصور بعداً إنسانياً على مستوى التصرفات البشرية عامة، سواء كانت أعمالاً علمية أو سياسية أو ثقافية أو اجتماعية، فمثلاً منتهى الأهداف المحركة للأداء العملى المستمر ربط الهمة بمرضاة الله -تعالى- ومرضاة الله غاية لا تدرك مع كمال الرضا؛ لأن كل من سار فى نهجها أحس بالتقصير، وكلما أحس بالتقصير كان أكثر خدمة للمجتمع، بل كلما سار المسلم فى طريق طلب كمال الرضا كلما ازداد اندفاعاً نحو الخدمة العامة بجميع أشكالها، اجتماعية، وفكرية، وسياسية، وتربوية، وحضارية.. حتى الرياضية، من خلال الإحساس المستمر بالتقصير.

والبعد الإنسانى المشار إليه أعلاه يصبغ الأداء الاجتماعى والأدبى بنفس الدرجة التى يؤثر بها على الأداء المعرفى فى جانبه التعليمى سواء كمعلم أو كمتلقى، هذا بالنسبة للمدخل العام فى مسألة التصورات وصلته بتطهير البيئنة الفكرية، أما تفاصيل المسألة، فسنعرض جزءاً منه فى الفقرات اللاحقة.

(ب) فعالية التوحيد فى تهيئة البيئنة الفكرية

بناء على ما سبق تقريره، نركز على بيان أهمية التوحيد فى تطهير البيئنة الفكرية، ويستشف هذا الأمر من خلال العمل الكبير الذى يقوم به التوحيد فى جانبى التخلية والتحلية، فعمله عظيم فى تخلية القلب من كل مضادات التوحيد، لا بوصفها من مضادات العقيدة الإسلامية من حيث فحسب، بل لكونها ملوثاً قوياً لأصل الفطرة التى خلق عليها الإنسان، وبالتالي فهو ملوث للبيئنة الفكرية الصحيحة، وتعرض العقيدة الإسلامية حقائق التوحيد لتخلية القلب والعقل بها فى اللحظة نفسها التى تقوم بالتخلية (إفراغ القلب من مضادات التوحيد)، وكل ذلك بمثابة إعداد فكرى لأساس التصور الموضوعى لعالمى الأنفس والآفاق؛ ليتسنى للإنسان التعامل الموضوعى مع عالمى الأشياء والإنسان فى إطار غائبة واضحة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بماهية الإنسان (خليفة الله) الراسمة لوظفته الاجتماعية والمحددة لمفهوم حرته المكتسبة بالتكليف.

يوضح المسألة نماذج من مضادات التوحيد، فمثلاً هل يصح أن يكون الكفر أو الشرك

أو النفاق أساس لتحليل الظواهر الكونية والإنسانية، الشرك هو الازدواجية فى الحكم على أشياء من طبيعة واحدة، وكذلك الحال بالنسبة للنفاق، سواء فى بعده العقدى البحث أو من آثاره الأخلاقية المؤثرة فى الجوانب المعرفية، سواء فى القراءة أو تبليغ القراءة أو البحث أو تبليغ البحث؛ لأن النفاق هو اتخاذ موقفين متعارضين اقتضتهما المنفعة (الغنيمة) وليس المعرفة، لهذا يجب العمل على تطهير البيئة الفكرية من مثل هذه الأمراض الخطيرة على التصوات أولاً وأثرها الوخيم على البيئة الفكرية ثانياً.

وطريق الإصلاح العلم، وتبليغ العلم والعمل بمقتضاه، وأول من يوجه إليه هذا الخطاب من أجل المساهمة فى تطهير البيئة من النفاق هم أهل السلطان فى المجتمع سواء كان هذا السلطان ثقافياً أو مالياً أو سياسياً؛ لأنهم أول المسؤولين عن سيادة التزلف والتملق والنفاق فى الحياة العامة^(١)، وعلى جميع الصعد الثقافية والفكرية والسياسية والحضارية، ثم يبلغ بعدها أفراد الأمة من معلمين ومتعلمين ووعاظ ومرشدين، وسائر الناس بخطورة النفاق على الأنفس وتلوثه البيئة الفكرية والأخلاقية.

وبهذا الصدد يحسن التنبيه إلى بعض أساليب النفاق فى تلوث البيئة الفكرية:

أساليب النفاق فى تلوث البيئة الفكرية

* الإعراض عن البحث الموضوعى وتعويضه بالاهتمام المهرجاني فى تحصيل العلوم وتبليغها.

* العمل على تمكين الجنب المعرفى من خلال زعزعة ثقة الناس بأنفسهم.

* الاتصاف بالشح المعرفى.

* التخاذل عن نصرة البحث العلمى الموضوعى.

* زرع البلبلة الفكرية من خلال شغل الناس بقضايا ميتة من تاريخنا، بل قد يشغلوننا بما يهدر طاقاتنا فيما لا طائل منه.

(١) انظر فى هذه المعانى: توفيق سيف، مرجع سابق، ص ٣٦٠.

✽ تأسيس المؤسسات الضرار في المعرفة، بغرض استقطاب العناصر القلقة المضطربة أولاً، وتشكيك الأذكيا ونجباء الطلبة ثانياً، أو على الأقل شغلهم عن أصل ما تصرف من أجله الأموال وتعلق به الهمم^(١).

٢- عناصر الإعداد المعرفي

سبق وأن ذكرنا بأن من أهم ملوثات البيئة من الناحية المعرفية، غلبة الجهل، وهيمنة التقليد، ووقوع العقول والقلوب في هاوية المكبلات الفكرية، مما ولد الاستخفاف وقبوله في بيئتنا العربية الإسلامية، والذي قد يتلبس بأحادية المنهج في بعض الأحيان، ومما زاد الأمر شناعة أو تغيب النقد المقاصدي الذي يستحضر دوماً الأساسيات التي تجتمع ويعد ما يفرق إلى حين (بعد بحث كل ما يلزم الشمل).

(أ) الإعداد لمواجهة الجهل

الجهل بوصفه ملوثاً للبيئة الفكرية ينقسم إلى قسمين: أولهما يدرج فيه أولئك الذين لا يعلمون ويعلمون أنهم لا يعلمون -الجهل البسيط-، وثانيهما يندرج فيه أولئك الذين لا يعلمون ولا يعلمون أنهم لا يعلمون -الجهل المركب-، فالأول أمره من أبسط ما يكون إذ يملك في نفسه استعداداً أولياً للتعلم من خلال الاعتراف بالجهل، فما على القائمين على التوجيه إلا التلطف في التبليغ المعرفي بغرض تخليق القلوب والعقول من الجهل وتحليتها بالعلم مشفوعاً بجانبه الوظيفي، كي لا تكون المسألة المعرفية في مواجهة الجهل مع الجاهل بقدر ما تكون مواجهة للجهل، أي يجب تحرير الأنفس من العناصر النفسية التي تعيق عملية التبليغ، إذ يعد عدم استحضارها حال التبليغ استفزازاً للوث من ملوثات البيئة الفكرية.

أما بالنسبة للفريق الثاني (الجهل المركب) فأحسن أسلوب في تبليغهم، أن يجمع الخطاب بين مخاطبة العقل والقلب في نفس الوقت وبنفس القوة وفق مسلك القرآن الكريم، ومن رام تجاوز هذا المسلك قد يقضى عمله إلى نقيض القصد، فتشتد كراهية

(١) انظر في أساليب النفاق، كتاب 'دراسات في السيرة'، عماد الدين خليل.

المنصوحين لأهل التصحيح ويزداد خبثهم ومكرهم، بل يجاوزون ذلك إلى الإصرار على ما يعتقدون وقد يجرون بفعل الاستفزاز قبل التذكير إلى الانفعال الذي يولد عنقاً لفظياً في بداية الأمر فيتحول في قابل الأيام إلى عنف مادي.

والمهمة -حسب تقديرنا- تستدعي تضافر جهود الجميع وعلى رأسهم أهل التعليم والتوجيه والوعظ والإرشاد وأهل السياسة والقانون من خلال منظوماتهم وممارساتهم، ورجال الفكر والثقافة، كل في اختصاصه، ورغم أهمية عمل الجميع في تطهير البيئة الفكرية من الجهل وتوابعه، فإن للقرار السياسي الراشد دور أهم ومهمة أعظم في إصلاح النفوس وتطهيرها من الجهل، من خلال ربط ولاية المناصب وإعطاء المكاسب بالعلم أولاً لا بالولاء، وإن كان ولا بد من شرط الولاء -كضرورة عملية يقتضيها الانسجام بين المسيرين- فلا بد أن يكون بعد العلم لا قبله.

(ب) معالجة هيمنة التقليد

يجب أن يعلم المسلمون أن الإسلام في حقيقة الأمر هو دعوة مستمرة ودائمة للتحرر من التقليد بالتأصيل، وطريقها المراجعة الدائمة لخبراتها المتنوعة وخبرات الإنسانية بالوحي كتاباً وسنة؛ لأن الوحي من أهم عناصر تطهير البيئة الفكرية من التقليد، وما جاء الإسلام إلا من أجل تقديم البديل الحضاري المؤسس على الإقناع، والإقناع محرك أساسي للأداء الحضاري المنتظر لتجاوز التقليد بالأصل.

والتقليد بوصفه من أهم ملوثات البيئة الفكرية لا ينحصر أثره في جانب على حساب آخر، بل ينسحب على العقيدة بالدرجة نفسها التي ينسحب على المعرفة والسياسة، ولا يتوقف على إحياء أفكار الشرق القديم أو الحديث، بل يشمل أيضاً الدعوة إلى تقليد الآخر من خلال خلع صفات العلمية والحضارية على كل ما يأتينا من الغرب، بالحدائثون مثلاً بدعوى التجديد استبدلوا تقليداً بتقليد، وهم حين يفعلون ذلك يلوثون البيئة الفكرية بدعوى تطهيرها (رمتي بدائها وانسلت) من التقليد فيرتمون في تقليد أشنع.

وتجاوز التقليد حسب تقديرنا لا يكون إلا بإشاعة التعليم، وبيان أهمية المصادر الإسلامية في المراجعة الدائمة للتقليد المعرفي والسياسي والفكري بغرض التمهيد المستمر لخبراتنا - طبعاً من قبل أهل الاختصاص - والتأصيل لمواجهة التقليد.

قد نجد صعوبة في مواجهة التقليد لا تقل عن الصعوبة المنتظرة في مواجهة الجهل؛ لهذا يجب استصحاب متعلقات التقليد حين صياغة الخطاب العلمي والتوجيه الذي يصلح التقليد بالتأصيل، ولعل من متعلقاته الأسرة، والسياسة، والمنفعة المادية والمعنوية، والهوية الاجتماعية، ومن ثم كان الارتباط بهذه الأمور من ملونات البيئة الفكرية حال تمكنها الكلى من النفس والقلب، بحيث يصبح القول ما قال المقلد - بفتح اللام -، وما قال المقلد فصدوقه، ومن نافلة القول التأكيد على تجنب جعل المطارحة التربوية في التقليد مسألة يراد بها كسر شوكة فلان أو علان؛ لأنها لا تزيد المقلد إلا تشبهاً بأفكاره السابقة، فيفضى العمل التوجيهي حين فقده لتلك الشروط النفسية إلى نقيض المقصود، فيزداد التقليد شناعة دفاعاً عن مكتسب أو جلباً لمنفعة؛ لأن الدفاع عن التقليد ليس قضية معرفية بقدر ما هو قضية منفعية سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو فكرية.

(ج) تحرير العقل والقلب من المكبلات

يتجلى تحكّم المكبلات في القلب والنفس البشرية في عدة صور، أولها الاستخفاف المعرفي أو قبوله، وثانيهما أحادية المنهج المحكّمة في جميع العلوم:

• التجديد الدقيق للمصطلح،

يراد بالمكبلات: المعارف المسبقة التي تحول دون القراءة الموضوعية للأفكار القابلة والحاضرة، فتكون تلك المعارف بمثابة محدد لمنهج القراءة، بل قد تطلّ موضوع القراءة نفسه، فينظر إلى المعارف من منطلق المعارف السابقة، وفي كنفها؛ لأن المكبل بتلك المعارف يكون سقيّد الإرادة موجه الاهتمام، مثاله من يريد أن يفهم العالم من خلال قريته أو مجتمعه أو من يروم فهم عالم الأفكار من فكرة معينة يحكم إليها جميع المنتجات الفكرية، وهو بهذا لا يختلف عن من رأى فأراً ثم كف بصره فإذا سئل عن سور

الصين قال كم يعادل من فأر، ولهذا كانت المكبلات الإيديولوجية أو الفكرية ملوثة للبيئة الفكرية، يجب العمل على تطهير البيئة الفكرية منها بطريق تربوي راشد، ومواجهة هذا الأمر تقتضى قطع الطريق على كل ما من شأنه تطبيع هذا الأمر أو تذكيتها، فيعمل المثقفون على تكريس استهجان هذا المسلك فى الأوساط العلمية ثم الشعبية.

ومن مظاهر المكبلات الرواسب الفكرية المتلبسة بالاستخفاف المعرفى حيناً وأحادية المنهج فى تحصيل العلوم أو تليغها، من هذا المنطلق سنتناول عرض المسألتين فى سياق الحديث عن المكبلات.

• الاستخفاف المعرفى أوقبوله،

كثيراً ما يكون الاستخفاف بالآخر من متطلبات الحيلولة دون وصول الآخر إلى عمق الفكر الذى يراد فرضه على الساحة العلمية والحضارية، فىكون الضغط الأدبى سبباً فى إبعاد الناس عن المناقشة الموضوعية من خلال الاستخفاف بهم بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر، وبهذا يمكن تلويث البيئة الفكرية بوصفه مانعاً من القراءة الموضوعية للمسائل المعروضة للنقاش.

والاستخفاف ليس شنيعاً حالة صدوره عن الجهلة؛ لأنه ليس غريباً صدور مثل هذه الأفعال عنهم، ولكن شناعته تكمن فى صدور مثل هذه الأفعال عن أهل الفكر والثقافة والسياسة؛ لأنهم بصنيعهم هذا يسهمون فى تمكين الاستخفاف بالعلم والفكر من ضمير الأمة وبهذا يساعدون على تلويث البيئة الفكرية.

والاستخفاف آنف الذكر لا يقل شناعة عن قبول الاستخفاف المعرفى بوصفه استجابة إردية لمستخف؛ لأنه وسابقه يهين لتلويث البيئة الفكرية من خلال خلع نوع قداسة على أشخاص معينين، ولتجاوز هذا الداء يحسن أن لا يأخذنا فى المعرفة والفكر لوم لائم، فنبحث الأفكار والمسائل بكل موضوعية غير آبهين بمستخف أو قابل له، وبذلك نساهم فى تطهير البيئة الفكرية من هذه الأمراض الفتاكة، فنكون خير أنموذج

معبر عن بطلان أفكار المستخفين (مهما كانت مناصبهم ومكاسبهم) بالعلم والفكر، وأنموذجاً عملياً لتربية القابلين للاستخفاف بغرض إخراجهم مما هم فيه.

• أحادية المنهج:

يتصور بعض الباحثين أن اندراج مواضيع مختلفة تحت اسم العلم يقتضى اشتراكاً في منهج الدراسة، وقد تمثل هذا الرأي المعجبون بالفلسفة الوضعية رداً من الزمن، ورام تحقيق هذا المسلك رواد الفلسفة المادية، إذ حاولوا تحليل كل الظواهر الإنسانية والكونية في إطار هذه الرؤية الفلسفية، رغم علمنا يقيناً بأن تعدد موضوعات العلوم يقتضى تعدداً في مناهج تناولها، فلا يمكن تطبيق المناهج التجريبية على القضايا الغيبية؛ لأنها ليست من طبيعة مخبرية، أو تحكيم مناهج المحدثين في الخبرة الصوفية، أو تطبيق المنهج الصوفى في قبول التحديث أو رفضه، إن التعداد المنهجى في تناول العلوم ودراستها حقيقة واضحة حتى في الموضوع الواحد من العلوم، مثاله بحث مسائل الكلام على مشرب المعتزلة يختلف عن طريقة بحثه لدى الأشاعرة وهو بدوره متميز عن ما هو عند غيرهم كابن تيمية .. وهكذا في سائر مباحث المعرفة سواء في العلوم الإسلامية أو في غيرها.

وأظهر أنموذج في أحادية المنهج التي يراد فرضه في عالمنا الإسلامى تصوير البعض أن طريق الخروج من التخلف إلى التقدم هو الطريق الذى رسمه الغرب ممثلاً فى أمريكا مصدقين ما قاله أحدهم: "إن الأنموذج الأمريكى فى السياسة والحكم هو النهاية العظمى لما يمكن أن يبلغه الفكر، فهو بمثابة الأنموذج النهائى المطلق الذى يجب أن يقتدى به كل من أراد التنمية والانعقاد وحقوق الإنسان... إلى آخر الموشح".

وهذا ليس مستغرباً صدوره من مثل هذه القوى؛ لأنها بذلك تدافع عن مصالحها الحضارية والفكرية بواسطة تخلية الأفكار من عناصر المقاومة ثم تحليتها بالعناصر التى يراد تحليل تاريخ الإنسانية ومستقبلها فى كنفه؛ لهذا يجب العمل بجهد على تطعيم أبنائنا بالفكر والعلم لمواجهة مثل هذه الملوثات الفكرية بوصفها مانعاً قوياً - حين

التسليم بها- من التفكير الصحيح، وموجهاً للفكر نحو البحث في قضاياها والحيلولة دون بحث قضايا أخرى.

كما يجب العمل على منع قبول فرض هذا النموذج الفكرى على عالمنا الإسلامى؛ لأن تمكين هذا الداء من الأمة سيحول دون التفكير فى انطلاقة حضارية أصيلة لأنها ستأتى على عناصر المقاومة الفكرية من الأساس وفى ذلك أكبر الخطر على حاضر الأمة ومستقبلها.

(د) غياب النقد المقاصدى

يهيمن على عملنا النقدى فى ميادين الفكر والسياسة التعلق باستعراض القوة الخطائية حيناً والمادية حيناً آخر، فننقد للنقد استنصاراً للنفس ورغباتها ونزواتها (قد يصبح العمل النقدى أشبه بالعبث المختصر أساساً فى قتل أوقات الناس فيما لا طائل منه)؛ لهذا يغيب السؤال عن مقاصد النقد وأهدافه، لماذا النقد؟ وما هو موضوعه فى البناء الحضارى المنشود؟ وهل يحقق ما يهدف إلى تحقيقه؟

وتعود الغفلة عن الرؤية المقاصدية فى التحليل والنقد إلى عدة عوامل، يتلخص بعضها فى عناصر معرفية، ويعود البعض الآخر إلى عناصر نفسية، فالعناصر العلمية تختزل فى غياب المراقبة الذاتية بطريق التساؤل الموضوعى الذى يتوخى إعطاء الناس حقوقهم أو على الأقل عدم الوقوع فى ظلمهم معرفياً واجتماعياً (ولأن يخطأ أحدكم فى الصفح أحسن من أن يخطأ فى الظلم)، وهى بدورها تعود إلى إهمال القراءة الوظيفية المستمرة لجهود الآخر وفق ما يريد تصويره لا وفق فهمنا لجهوده، أى يجب موضوعياً استصحاب أجواء الحمل بالأفكار وظروف ولادتها؛ لأننا حين استصحاب ذلك سنلتمس العذر لأصحابها وإن خالفناهم فى تبنيها جملة وتفصيلاً، وفى ذلك أقصر طرق التواصل المعرفى المطهر للبيئة الفكرية من التشنج والنقد الانفعالى، والمؤسس للتواصل الاجتماعى والتعاون الحضارى.

ولتطهير البيئة من هذا الوباء، يحسن استحضار التساؤل عن المقاصد فى المراحل

التي يقطعها الفكر بدءاً بالإجابة الدقيقة عن سبب التطلع إلى النقد، ثم رسم خطة مضبوطة لتحقيق المراد المشروع من النقد، بشرط أن تتصف بالعلمية جميع المراحل التي يقطعها الفكر من المقدمات إلى النتائج، ولا شك أن ذلك سيحقق مجموعة لا يستهان بها من العناصر الضرورية التي تعد بمثابة تطعيم للنفس من مثل هذه الأدواء، فيهيئ هذا العمل لقبول الآخر من الناحية الفكرية، وهو المسلك الأول والأساسي لاستقطابه على مستوى الفعل الاجتماعي للمساهمة في البناء الحضارى المنشود.

إن النقد المقاصدى - حين الإجابة الموضوعية عنه - سيحرر النفس والعقل من كثير من الأمراض، ويحرر القلب من الانشداد إلى الدنيا والاستبداد وحب الرياسة والتطلع إلى غلبة النفس على حساب الحق والحقيقة. كما يحرر العقل من الأفكار المسبقة والأحكام الجاهزة، ويشجعه على البحث الفكرى الهادئ الهادف دون خوف أو وجل، يتوخى في كل ذلك مرضاة الله - سبحانه وتعالى - وفي ذلك أكبر ضامن للموضوعية المتباهى بها بين الأمم والشعوب؛ لهذا كانت التقوى فى جانبها المعرفى أحسن مظهر للبيئة الفكرية من مثل هذه الأوبئة.

٣- الإعداد النفسى

تعد العناصر النفسية من أهم المؤثرات على الأداء الفكرى؛ وذلك بسبب مساهمتها فى البيئة الفكرية سلبيًا وإيجابيًا، فقد تكون مطهرة كما يمكن أن تكون ملوثة، فالفكر وإن كان ثاقبًا لا يمكن أن يحقق مقاصده ما لم يكن وعاء الشعور (الوجدان) سليمًا معافى من أمراض تحول دون تحقيق الفكر لأهدافه وغاياته، فالعناصر النفسية تحدد من فاعلية الفكر بنفس القدر الذى تكون به سببًا فى انطلاقه، وهذا بقدر تحرر النفس من معوقات الإسهاد على الناس من الناحية المعرفية والحضارية والسياسية.

(أ) التعلق بالدنيا:

الصراع الحضارى والسياسى يستعمل الصراع الفكرى وسيلة لتحقيق المراد، وأساس الصراع الحضارى الرغبة فى الغلبة - دولة على دولة أو حزبًا على حزب أو

شخصاً على شخص.. - هو العمل على الاستحواذ على الدنيا وملذاتها، يفسر هذا الأمر الصراع القائم فى كثير من أصقاع العالم، كما يمكن أن يكون الصراع بسبب إرادة بسط نفوذ جماعة على حساب أخرى يغلب بقرض رأى على رأى بواسطة طالبى الدنيا.

لهذا عملت بعض السلط السياسية والثقافية على تمليك التوجيه الفكرى بقرارات رسمية لشخصيات مخصوصة إما لكفاءتها الأكاديمية أو لأقدمية اكتسبوها فى ميدان التعليم والبحث، ولعل من أشنع الصور أن يقع التوجيه فى أيدي غير أمينة مشهورة بالتقصير، إذ فيهم من لا يرد فى بلده يد لأمس فذهب إلى أوروبا وأمريكا فأخذ شهادة مزورة يظهر أنها كتبت له لا يدري خباياها وكان الغربيين بتواطؤ من المحليين حملوا الدكتوراه سفاهاً^(١).

ويظهر القصور فى الأعمال الفكرية لطلاب الدنيا من المناحي الآتية:

• إهمال الواجب التوجيهي:

حصر هذا النمط من المفكرين واجباتهم فى كلمات تؤدى بقصور أو وفاء، ثم يقعون فى بيوتهم بعد ذلك، لا ينصرون حقاً ولا ينشئون جيلاً^(٢)، تنازلوا عن دورهم فى صناعة المجتمع، بل راموا تلويت بيثته الفكرية بتمكين حب الدنيا وكراهية الموت.

• ممارستهم للتضليل:

يكره العقلاء مثل هذه الأعمال ويدعون إلى محاربتها، وفى ذلك أردد معنى قول أحد أعلام الدعوة^(٣): "إنى أكره الشيوخ والمفكرين الذين يسترضون الرؤساء بالفتاوى الجهلاء، وتوجيهاتهم الغبية، إنهم يدورون فى الساحة السياسية (البرلمانات ومجالس الحكومات.. وفى الجامعات والكليات) - بدمعهم كما يدور سائقو سيارات الأجرة بعرباتهم يتلفتون، هل من راكب، فبجهم الله وقبح من كلفهم، وقبل منهم"^(٤).

(١) "قصة حياة"، ص ١٦٦-١٦٧ (بصرف).

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

(٣) محمد الغزالي السقا - رحمه الله -، توفى بتاريخ ١٢ مارس ١٩٩٦ م.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٦.

• جعلوا الفكر معيباً بتصرفاتهم

استمد الذين اتهموا الفكر والمفكرين بعدم الفاعلية في التغيير من تصرفات أولئك الذين حملوا الفكر ما لا يطبق لا في بلاد العرب وحدها بل في أقطار أخرى، إنهم يستخرون رجال الفكر لهوى الرجال والنساء، واخترعوا أفكاراً -تزلماً وطلباً للدنيا- لا يقبلها من له ذرة عقل وشهامة، وما كسبوا بذلك إلا غضب الله - سبحانه وتعالى -، وكرهية الصالحين من عباده، وازدراء الجماهير المغلوبة على أمرها. ويحق في هؤلاء المفكرين قول أحمد محرم في بعض علماء الدين:

أرى علماء الدين لا يحفظونه	ولا يرفعون اليوم رأيتهم العليا
هم أتخذوا ما أحرزوا من علومه	سبيلاً إلى ما يبتغون من الدنيا
إذا ما أتاهم جاهل بضلالة	أتوه بألفى عالم يحمل الفتيا

• المساهمة في تفريق الأمة:

يعمل هذا الصنف من العلماء على شغل الناس بقضايا نظرية عفى عليها الزمن أو خلافات فرعية لا يجوز أن تصدع الشمل أو تمزق الأهل^(١).

ونظراً لما لتلك التصرفات من أثر جسيم على حاضر الأمة ومستقبلها محلياً ودولياً، عمل كثير من العلماء وألحوا على ضرورة إبعاد مثل هؤلاء المفكرين من ضمير الأمة، والسعى إلى حيلولة دون هيمنتهم على ميدان التوجيه، وبهذا الصدد يحسن إبعاد الأصناف الآتية:

* يقصى من ميدان الفكر العلماء الذين يحرقون البخور بين أيدي الساسة المنحرفين ويزينون لهم نكوصهم ومجونهم.

* يقصى من الميدان نفسه أيضاً الذين يشغلون الناس بقضايا نظرية ميتة عفى عنها الزمن، كما يلحق به النافخون في الخلافات الفرعية التي كان من المفروض أن لا تصدع الشمل أو تمزق الأهل.

(١) "علل وأدوية"، الفزالي، ص ١٠٨.

* يلحق بالقائمة السابقة العلماء والمفكرون الذين يظلمون الفكر بسوء الفهم، ويرونه في السياسة والحكم والمال ظهيراً للاستبداد والاستغلال وإضاعة الشعوب^(١)، بسبب تعلقهم بالدنيا ومطالبها، ومن تعلق بالدنيا فتن بها وأسرته، فلا يقرأ بموضوعية ولا يوجه بموضوعية؛ لأن موضوعيته نسبية تدور حيث تدور الغنيمة، وحيث تكون المطالب الدنيوية محققة في أكمل صورة فثم الموضوعية.

وأصدق علاج لها النسيج على وفق نسق التذكير القرآني الجامع بين مخاطبة الوجدان والعقل، أي التذكير العقلي المخاطب للفكر والقلب في اللحظة نفسها؛ لأن طالب الدنيا لا دواء لمرضه غير محاولة ربطها بهدف أخروي يوسع من الدنيا ويجعلها مسرحاً للاستكثار من الخير ودافعاً - بالنظر إلى زوالها المرتقب - لاستثمارها في الخيرات بغرض طرد خوف الفناء بطلب البقاء عند الله - تعالى -، فما قدم لله تعالى بقي وما قدم لغيره فني، إنك يا طالب الدنيا بالفكر قد أسرت تفكيرك وعرضته للبيع بأبخس الأثمان، فكان الأصل أن يكون تفكيرك وسيلة لتحريرك وتحرير غيرك فكيف تجعله مطية لأسر نفسك وفكرك وغيرك؟

(ب) دواء الاستبداد وقبوله:

الاستبداد الفكري ظهير الاستبداد السياسي والاجتماعي، بل يعد الاستبداد السياسي والفكري توأمان كل واحد منها يعد طريقاً للآخر، وكلاهما يحمى بالتنظيمات القانونية والسياسية..؛ ولهذا فالاستبداد خطير بصفة عامة، ولكنه يزداد شناعة حال تلبسه بالدين، لصعوبة تحرير النفوس منه؛ لأنهم يتصورون تحرير الأنفس منه عملاً على تحريرها من الالتزامات الشرعية.

لهذا يعمل فقهاء السلاطين على ترسيخ القول بأن لا فائدة مرجوة من الحرية والمساواة؛ لأنها - حسب تقديرهم - نقض للمحرمات الرسمية (ليست الشرعية) وتشكيك في التقاليد ومساواة بين علية القوم وسفلتهم.. وهكذا تصور الدعوة إلى

(١) 'معموم داعية'، الفزالي، ص ١٠٨ وما بعدها.

الحرية دعوة إلى الفوضى، حتى ليغدوا الاستبداد في صورته السياسية والفكرية أرحم على الأمة، بل وقد يكون في تصريحات المتزلفين ما يدل على أن الاستبداد أكثر انسجاماً مع الطباع البشرية، رغم علم كل العقلاء أن الحرية من لوازم الإنسانية ومن أسس التشريع وأساس التكليف^(١).

وحال الاستبداد الفكرى لا يختلف حسب تقديرنا عن قبوله؛ لأن المطيع للمستبد لا يقل جرماً عن المستبد نفسه، وما استبد من استبد إلا بمساعدة وتشجيع مباشر وغير مباشر من قبل القابلين لأفكاره وتوجيهاته.

ولتجاوز هذين المرضين الخطيرين يجب ترويض النفس على التزام الرؤية الموضوعية المبنية أساساً على تقوى الله - تعالى - وطاعته، ولا يتأتى لها تحقيق مقاصدها بغير معاندة الهوى واجتناب الشبهات والتورع عن المآثم صغيرها وكبيرها، حتى يحصل الباحث المسلم على ملكة التقوى والعدالة^(٢)، وتجتمع فيه الأوصاف التي قررها الشارع الحكيم، وأقرب ما يحقق به تجاوز الدائين التذكر الدائم للتكريم الإلهي مع كونك مخلوقاً تابعاً لخالقك في أصل خلقك وبقائك ومصيرك، إذ بالشق الأول يطرد قبول الاستبداد من النفس، وبالثاني يمنع الاستبداد، وأحسن ما يبلغ به هذا المضمون العقدي الجمع بين مخاطبة العقل والقلب في ذات الوقت.

(ج) طرد روح التسليم

التسليم المطلق للغالب السياسى أو الفكرى أو الحضارى من بنيات قبول الاستبداد بجميع أشكاله وأنماطه، والتسليم بالتسليم محاولة لتطبيع الوضع غير العادى بواسطة تكرار الأمور بغرض إقرارها والتسليم بها ولها، حتى يصبح التفكير بتغيير الوضع غير العادى فعلاً غير عادى، هذا مجرد التفكير أما مباشرة ذلك فيعد لدى البعض من أشنع المنكرات.

ونظراً لتطبيع الوضع غير العادى يصبح العمل على تنقية البيئة من هذا المرض من

(١) انظر: توفيق سيف، مرجع سابق، ص ٢٧٥-٢٧٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥٩.

أصعب الصعوبات، إذ كلما رام المفكرون تجاوز هذا الداء واجهتهم عقبة كأداء أقام أركانها المستفيدون من الوضع غير العادى.

تبدأ عملية إصلاح الوضع لتجاوز هذا الملوث يبعث المسألة الموضوعية عن أصل المسائل المسلم بها ومقصد التسليم بها، هل يعود إلى الإكراهات الواقعية أم يعود إلى محاولة إخراج بعض القضايا من دائرة الحوار إلى دائرة المحظور الذى يحرم بحثه والتفتيش فى أصله؟

ويحسن حين عرض المسألة تجاوز طرح القضية فى جو التشنجات والانفعالية، بل يجب تهيئة الجو الهادئ والظروف العادية التى لا يحس فيها المحاور (بفتح الواو) بأنها قضية شخصية عرضها تجاوز طرح القضية فى جو التشنجات والانفعالية، بل يجب تهيئة الجو الهادئ والظروف العادية التى لا يحس المحاور (بفتح الواو) بأنها قضية شخصية عرضها إثبات عجزه وقلة حيلته، بل يجب أن يعمل على إقناعه بأن من مصلحته بسط البحث فى القضية بشكل موضوعى، وليكن الغرض المنبنى -على الأقل من الناحية النظرية- من الحوار أن يقنع أحد الطرفين الآخر؛ لأنه بهذا يدرك بأنه دخل ومحاورة ميدان النقاش على قدم المساواة، وهى أقصر طرق تهيئة النفوس للحوار الهادف الهادئ.

٤- اكتساب عناصر التربية الفكرية

تكتسب عناصر التربية الفكرية بالتعلم والتذكير التربوى والتعليمى، وتنقسم هذه العناصر إلى غمطين أولهما يشمل العناصر النفسية فى التربية الفكرية، ويضم الثانى العناصر المعرفية فى التربية الفكرية:

(أ) العناصر النفسية:

تبليغ المعرفة أو تعلمها يفرض توفر شروط تعد بمثابة بث الاستعداد النفسى للتعلم والتبليغ، وفقد هذا الاستعداد من أبرز موانع تحقيق المقصد من العلم والتفكير.

يُخلَق الإنسان مزوداً بهذه العناصر النفسية إذ هى كامنة فى النفس الإنسانية، فإما

أن تنميها التربية الفكرية والمنظومات الاجتماعية والقانونية، فتخرجها من طور القوة إلى الفعل أو تفجرها فتقضى عليها في مرحلة التعليم الابتدائي، ويرسخ الحكم عليها سائر مراحل التعليم، وما دام أمرها كذلك فيجب العمل على مساعدة الإنسان على اكتشاف نفسه من خلال إخراج استعداداته النفسية من طور القوة الكامنة إلى القوة الحية الفاعلة، وطريق ذلك تذكيره بقوته من خلال ترسيخ فكرة التكريم الإلهي المربوط أساساً بكرم الله تعالى على الإنسان.

أيها الإنسان، لقد خلقك الله -تعالى- حرّاً بالتكليف فأكسبك قدرة وإرادة ورغبة، فإذا أردت الحفاظ على قوتك وإرادتك فيجب التحكم في رغبتك.

إن أول مراحل التغيير النفسى العمل على أن تكون الرغبة على وفق مراد الخالق عز وجل، وإذا تحقق هذا المقصد سهل بعدها استعمال الإرادة فيما تشتهي النفس، كما يسهل في ذات الوقت إعمال القدرة في سبيل ما رسمته لنفسك حين حررت رغبتك من وأدها العملى.

إن أول ما يظهر البيئة الفكرية تحضير الشروط النفسية المتحكّمة في الإنسان من الداخل سلبيًا وإيجابيًا، فإذا اكتشفها الإنسان وأعملها فيما جعلها خالقها له حققت مقاصدها أو قربت منها على الأقل؛ لهذا نعمل على تذكير الناس بقدراتهم الكامنة التي خُلِقوا مُزوَّدين بها لغرض وظيفى منسجم مع ماهية الإنسان ووظيفته الاجتماعية ورسالته الحضارية.

(ب) العناصر المعرفية من التربية الفكرية

لا يمكن أن تحقق العملية الفكرية نتائجها المنتظرة بسلامة الإعداد النفسى البحت، إذ يجب مع ذلك توفر شروط معرفية لا تقل أهمية عن العناصر المشار إليها أعلاه، فحتى وإن اكتشف المسلم قوته الكامنة من الناحية النفسية فهذا لا يغير من المسألة شيئاً، إلا إذا واکب هذا الإحساس موقف عملى لتحقيق المرغوب الموافق للإرادة، فهل يتحقق المرغوب بسلامة الشروط النفسية وحدها؟

والأصل أن يترجم اكتشاف الاستعدادات النفسية في التربية الفكرية إلى موقف عملي يترجمه التزود بالمعرفة وتبليغها ومناهج دراستها، من هذا المنطلق تنصب جهود الباحثين والمفكرين على إشباع حاجة الإنسان إلى المعرفة الوظيفية، ولا يتأتى تحقيق المراد من المعارف المكتسبة إلا إذا أحاط المفكر بمسالك تبليغها وقبل ذلك يجب أن يدخل تلك العلوم من أبوابها من خلال قراءتها المنهجية المنسجمة مع طبيعة ذلك العلم، وبهذا تشمل التربية الفكرية القضايا الآتية:

• العناصر المتعلقة بموضوعات العلوم

يجب على من يتصدى للدراسات الفكرية أن يحيط بمواضيع المناقشة تفوق إحاطة أهلها أو تساويها على الأقل؛ لأن المفكر الرسالي يربى من خلال الحوار والتربية، وهذا يقتضى العلم والصبر على البحث والمناقشة، فلا يجوز شرعاً وعتلاً الحكم على قضايا ومسائل لا سابق علم لنا بها، إذ يعد هذا العمل ملوثاً للبيئة الفكرية، ومانعاً قوياً من الاستفادة مما يقول فضلاً عن كونه من أهم عناصر الإقناع بتقيض المقصود، فمن رام الإقناع بالحوار الفكرى فلا يتحدث فيما لا يعرف.

وهذا انصدد كثيراً ما يلوث البيئة الفكرية من خلال الحوض بجهل فى قضايا فى منتهى التعقيد، فنجد أحدهم ينقد السياسة والتربية والتعليم والاجتماع مع علمنا بيقين بأنه لم يقرأ كتاباً واحداً فى الباب، بل نقد أحدهم كتاباً لم يقرأ منه سطرأ واحداً، وقصارى ما قرأه نتف نقلت منه فى جريدة أو سمع عنها تعليقاً فى إذاعة أو تلفاز، وهكذا يكون عدم المعرفة بمواضيع العلوم ملوثاً قوياً للبيئة، ولتجاوز ذلك يجب بعث المطالعة الواعية فى المجتمع سواء كانت فى وعاء مكتوب أو مسموع أو مرئى، المهم أن تشيع فى الأمة القراءة الهادفة، وبذلك نشارك كل أفراد الأمة فى عملية المقاومة الفكرية، وبالتالي يشترك الجميع فى الذود عن ميراثنا الثقافى والحضارى، فىكون جميع أفراد الأمة فى الصفوف الأولى للمقاومة الفكرية التى هى أساس المقاومة الاقتصادية والاجتماعية والحضارية.

• العناصر المتعلقة بالمناهج

فقد مناهج الدراسة الموضوعية ملوث للبيئة الفكرية، إذ يفضى إلى دخول مبادئ العلوم من غير أبوابها، فيكون الحوار في مثل هذا الجو أشبه بحوار الطرشان، من هذا المنطلق ينبغي أن يكون الحرص على التمكّن المنهجي بنفس درجة الحرص على تحصيل العلوم على الأقل.

وتحقيق هذا الهدف يوجب التفريق الدقيق بين ميادين العلوم من خلال التمييز بينها من جهة المناهج، فتتبع مواضيع العلوم يقتضى تنوعاً في مناهج دراستها، ويحسن في هذا السياق دراسة هذه المناهج من خلال مؤلفات أهلها لا بالواسطة كما هو شأن كثير من المتطفلين على عالم الفكر، وبهذا الصدد يعد التمرّس بالمناهج من أنفع طرق استثمار المعارف في الحوار والمطارحات الفكرية، إذ يكسب الاشتغال به التعامل المنهجي مع العلوم ثم بطول التمرس يصبح ملكة لا يمكن الانفكاك منها حتى في الأوضاع العادية.

• العناصر المتعلقة بالأسلوب

يقوم الأسلوب الفكرى الفاعل على الحوار كمبدأ لا يمكن تجاوزه أو التنازل عنه، فالحوار طريق تحصيل القناعة الذاتية المرئكة على الحجّة والبرهان^(١)، وهو طريق إيصال الأقوال الفاسدة والأحكام الخاطئة ثم تصحيحها، ولتحقيق هذه المقاصد ينبغي السعى إلى توفير شروط موضوعية في الحوار أسلوبياً وموضوعاً. وينبغي في المتحاورين التحرر الكلى من الأحكام المسبقة والضغط النفسى؛ لأنه بمثابة توفير الأجواء الضرورية للتفكير المستقل^(٢). وتحقيق هذا الهدف يفرض توفر عناصر تكميلية منها على سبيل المثال لا الحصر:

(١) انظر: "الحوار في القرآن"، محمد حسين فضل الله، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٣،

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٣١.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤.

* مخاطبة الناس بما يفهمون، فقد نجد المفكر يتباهى بعدم قدرة الناس على فهمه، رغم أن هذا العرض دليل على عدم فهم المبلِّغ، وليس دليلاً على قصور في المبلِّغ.

* الحوار بالتي هي أحسن ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾؛ لأن المجادلة بالتي هي أحسن دليل الاستبداد الفكرى من جهة، وهو نوع من الضغط المفقد للحرية كشرط أساسى فى البحث الفكرى الجاد.

* المسألة الفكرية ليست من قبيل المسائل العقلية الصرف، بل يجتمع فيها العنصر المعرفى بالعناصر النفسية بحيث يصعب التفريق بينهما من الناحية العملية (وإن كنا نستطيع التمييز بينهما من الناحية النظرية)، من هذا المنطلق سيشطر الباحث الرسالى إلى التذكير وفق أسلوب القرآن الجامع بين إقناع العقل وإخضاع القلب، وبذلك تظهر البيئة الفكرية فى عناصرها الداخلية والخارجية من الملوثات.

خاتمة

حاول الباحث تقصي ملوثات البيئة الفكرية في إطار التصور التوحيدي الشامل، فالتوحيد هو أساس التصورات الإسلامية، وهو قوتها الدافعة الفاعلة في ضبط علاقة الإنسان بخالقه أولاً والكون ثانياً، وعلاقته بأخيه الإنسان ثالثاً، وكان ذلك مطية لإثبات فاعلية التوحيد في صلاح البيئة الفكرية، انتقلت بعدها إلى حصر الملوثات المتعلقة بالمعرفة ولخصتها في الجهل والتقليد والرواسب الفكرية المتمثلة في الاستخفاف المعرفي أو قبوله في بعض الأحيان، وأحادية المنهج أحياناً أخرى، كما تفسد البيئة بغياب النقد المقاصدي.

واقضى عرض تلك الملوثات بيان المفسدات النفسية للبيئة الفكرية، فكان من أهمها التعلق بالدنيا، والاستبداد وقبوله وهيمنة روح التسلي، وفقدان عناصر التربية الفكرية في جانبها النفسى والمعرفي، وختمت المداخلة بالحديث عن الإعداد الفكرى لمواجهة الملوثات، وقسمتها على وفق ما سبق تقريره.. وكل ذلك من أجل تقديم تشخيص موضوعى لملوثات البيئة الفكرية، ثم تقرير الدواء حسب ما بلغه اجتهادنا، وانتهينا بعد البحث إلى النتائج الآتية:

الإنسان هو أهم عناصر البيئة الفكرية، ففساده الذاتى إفساد للبيئة الفكرية، ومن ثم يجب العمل على عدم تلوث بيئته الذاتية الأصلية، وإذا ما لطخت بمثل هذه الأمراض فيجب العمل على بعث تطعيمه الفكرى من جديد، وطريقة ترسيخ فاعلية التصور التوحيدي في تطهير البيئة الفكرية، ثم العمل بعد ذلك على تحقيق الإعداد المعرفى الجاد، فيجابه الجهل بالعلم، والتقليد بالتأصيل، والتحرر من هيمنة المكبلات بالتذكير العلمى وبذلك نجاوز عقليتى الاستخفاف وقبوله، ومن ثم تطلق أحادية المنهج الدالة على قلة العلم والحيلة، ويحضر النقد المقاصدى، ولا يتأنى لتلك العناصر أن تؤتى أكلها ما لم يكن الإنسان مستعداً نفسياً للتعلم والتبليغ

الهادفين، فتكون تلك الغاية من أهم عناصر الإعداد المحررة من الدنيا كغاية نهائية للوجود الإنساني، وإذا تحرر الإنسان منها قام بالواجب، ولا يمكنه الدوام على ذلك إلا إذا جمع إلى الفكر الذكر، وطريقة اكتساب عناصر التربية الفكرية في شقيها النفسى والمعرفى بما يوجب المراقبة والتكوين المستمرين فى العلوم والمناهج وأساليب عرضها.

obeikandi.com

الماء

أهميته والتحديات التي تواجهه ووسائل وطرق المحافظة عليه

(رؤية إسلامية حضارية)

بقلم: أ / أحمد على سليمان (*)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه أفضل سلام وصلوة، وأشهد أن لا إله إلا الله، سبحانه، يعلم مناقيل الجبال، ومكاويل البحار، وعدد ورق الأشجار، وعدد حبات الرمال، وعدد ما أظلم عليه الليل وما أشرق عليه النهار، سبحانه مزل الأمطار.. وبعد:

فى ظل التزايد السكانى الرهيب للعالم الذى يقتضى زراعة مساحات كبيرة من الأراضى؛ لمجابهة احتياجات هذه الكثرة من السكان للغذاء، وفى ظل الارتفاع الكبير للمستوى المعيشى، وفى ظل كثرة الصناعات التى تعتمد بشكل كبير على استهلاك واستنزاف كسبات كبيرة من المياه، وفى ظل حوادث ناقلات البترول المستمرة يوماً بعد الآخر، الأمر الذى يسبب العديد من الكوارث البيئية المتعلقة بتلوث المياه، والإضرار البالغ بها وبالأحياء التى تعيش فيها، والتى يعتمد الإنسان على معظمها فى الغذاء.. وفى ظل محدودية المياه الصالحة للاستعمال على الكرة الأرضية.. وفى ظل عدم انتشار 'الوعى المائى' لدى الناس.. وفى ظل عدم تركيز العالم على إبراز خطورة هذه القضية التى لم تحظ باهتمام لاتق على كافة الأصعدة.. فى هذه الظلال جميعها كان لابد من تحرك المؤسسات المعنية فى العالم الإسلامى لشرح أبعاد هذه القضية فى ضمير المسلم المعاصر قبل أن تتفاقم الأمور، ومن هنا تحركت رابطة الجامعات الإسلامية - باعتبارها بيت خبرة للجامعات والمؤسسات والمراكز العلمية فى العالم الإسلامى، تمدها بما تحتاج إليه من أطروحات وأفكار وتوصيات فى القضايا التى تهم الأمة الإسلامية -، بالتعاون

(*) باحث برابطة الجامعات الإسلامية.

مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، وجامعة اليرموك، لما تتمتع به هذه الجامعة العتيقة من مكانة مرموقة بين جامعات الأمة الإسلامية، وذلك لعقد مؤتمر علمي كبير عن (الاجتهاد في قضايا الصحة والبيئة والعمران)، يضم كوكبة من الأساتذة والخبراء المتخصصين في هذه المجالات في العالم الإسلامي^(*)؛ لمناقشة التحديات والأخطار التي تواجه قضايا البيئة المختلفة والعمران، والعمل على إقامة حائط صد منيع لمواجهة هذه التحديات من خلال الرؤية الإسلامية الصحيحة.

ولمّا كان الماء هو أساس الحياة والأحياء على وجه الأرض، ومصدرها، ووسيلة من وسائل استمرارها، فهو من أهم الموارد الضرورية للحياة، لا يستطيع أحد أن يعيش بدونه أكثر من أيام قليلة، حيث جعل الله منه كل شيء حياً، ويؤلف ثلثي خلايا البدن، وتسعين بالمائة من سوائله، كما يسهم في تنظيم حرارة الجسم... إلخ.

ومن هنا أردت الكتابة في هذا الموضوع للتنبية على أهمية الماء كعنصر يجب المحافظة عليه بخصائصه التي خلقها الله عليها، وشرح أبعاد أزمة ندرة المياه، وبيان أهم ملوثاتها للعمل على بلورة أطر نظرية تسهم في الحد منها، وإيضاح طرق ووسائل وآليات المحافظة على الماء، وعرض الرؤية الإسلامية لترشيد استخدام الماء والمحافظة عليه.

(*) شرفت بالمشاركة في هذا المؤتمر، الذي عقد في رحاب جامعة اليرموك بمدينة إربد الأردنية، وذلك في الفترة من ٣-٥ يونيو ٢٠٠٣م، وقدمت هذا البحث في المؤتمر.

المبحث الأول أهمية الماء في حياة الإنسان والكائنات الحية

إن المتبع لحركة الإنسان منذ بدء الخليقة وحتى الآن، يجد أن الموارد المائية هي نقطة الالتقاء والتجمع؛ لما لها من أهمية قصوى في حياة الكائنات الحية، من حيث كونها مصدراً أساسياً من مصادر استمرار الحياة، ومن حيث الوظائف التي تضطلع بها في المجالات المختلفة للبيئة التي يعيش فيها الكائن الحي، مثل: الزراعة، والصناعة، والإسكان، والشرب، أضف إلى ذلك أن المياه هي أحد عوامل نشأة حضارة الإنسان وتطورها؛ فحضارات السومريين والبابليين، والآشوريين، والفينيقين، والفراعنة، نشأت في أحواض الأنهار، كذلك فإن مدن التاريخ الكبرى نشأت على ضفاف الأنهار، فبغداد، ودمشق، والقاهرة، ولندن، وباريس، وبرلين، بنيت على ضفاف دجلة، والفرات، والنيل، وبردي، والتميس، والسين، والراين على التوالي.. وهكذا في كل مدينة أو نقطة حضارية كان الماء هو المورد الأساسي لهذه التجمعات أو الحضارات، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].^(١)

وهكذا نشأت الحياة على الأرض منذ بدء الخليقة، وستبقى - إلى أن يأتي أمر الله - مرتبطة بالماء، فالماء هو النعمة المهداة من الخالق العظيم - عز وجل - إلى مخلوقاته كي تستمر في العيش إلى ما شاء الله.

وقد ورد ذكر الماء في القرآن الكريم ثلاثاً وستين مرة^(٢)؛ للتأكيد على أهميته كعنصر يجب الحفاظ على بقائه بخصائصه التي خلقه الله تعالى عليها، لاستمرار الحياة والأحياء التي تعتمد في وجودها على بقائه بخصائصه، وإذا انعدم أو وهن انعكس هذا على الحياة والأحياء بالعدم والفناء^(٣).

(١) المياه وأوراق اللعبة السياسية في الشرق الأوسط، فتحي على حسين، الناشر: مكتبة مدبولي، سنة ١٩٩٧، ص ٧.

(٢) "الإسلام والحفاظ على البيئة"، تأليف محمود محمد حبيب، محروس الشرقاوي، طبعة وزارة الأوقاف، سنة ١٩٩٩م، ص ٦٧.

(٣) "المياه والحياة بين الوفرة والندرة"، د. أحمد محمد عمر، سلسلة قضايا إسلامية، العدد ٦٦، سنة ٢٠٠٠م، يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانباء: ٣٠]. وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ [النور: ٤٥].

والله -تبارك وتعالى- يريد أن يلفت أنظارنا لهذا المصدر الحيوى المهم وهو الماء؛ حتى نحافظ فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

لذلك فإننا نجد أن معظم المواضع التى ورد فيها ذكر الماء فى القرآن الكريم يكون الماء فيها مربوطاً بالأرض، وهى إما ميةة أو هامدة أو خاشعة، فينزل عليها الماء فتتهز وتربو، وتنبت كل ما هو مخضر بهيج، فكأن الماء هنا بمثابة الروح للجسد يحيا عندما تنفخ فيه الروح، ويموت عند مفارقتها له^(١)، هذا بالإضافة إلى أن الله -تعالى- قد جعل منه السائل الوحيد للإرواء الأدمى والحيوانى والنباتى، حيث قضى الخالق العظيم أن يكون فيه سر الحياة على الأرض، فكوب الماء العذب للظمان فى الصحراء لا يعدهل ثمن لأن فيه بقاءه، كما أنه السائل الوحيد اللازم لإزابة العناصر الغذائية الداخلة إلى الأجسام الحية، واستخراج العناصر الغير مرغوب بقاءها فيها، وهو أفضل بيئة لحياة الكائنات الدقيقة، وانتشار الرطوبة فى الجو يزيد سرعة نموها، وقتنها يبطى نموها.^(٢)

والماء ضرورى كذلك لوضوء الإنسان واطساله ونظافة بدنه، قال تعالى: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [الانفال: ١١]. وهو ضرورى كذلك لنظافة مسكنه وحوائجه، كما لا غنى عنه للصناعة ولا للزراعة.^(٣)

ولاهمية الماء البالغة، جعل الله -عز وجل- الناس شركاء فيه، وبالتالى لا يجوز لأحد أن يحتكر مصادره، أو يمنع من يحتاج إليه، وقد أكد النبى ﷺ هذا المعنى بقوله: «المسلمون شركاء فى ثلاث: فى الكلا والماء والنار» (رواه أبو داود).

(١) الإسلام والحفاظ على البيئة، مرجع سابق، ص ٦٢.

(٢) الماء والحياة، د. محمد أحمد عمر، مرجع سابق، ص ٦٤.

(٣) الماء والإصحاح فى الإسلام، د. عبد الفتاح الحسينى الشيخ، بتصرف ط منظمة الصحة العالمية، سنة ١٩٨٨م، ضمن سلسلة الهدى الصحى ٢.

أولاً: خصائص الماء

الماء سائل لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة، وهو يتكون من اتحاد عنصرين هما: الهيدروجين، والأكسجين، وتركيبه الكيميائي كما هو معروف (يد ١٢)، أى ذرتان من الهيدروجين وذرة من الأكسجين. (١)

وفيه تجرى جميع التفاعلات الحيوية فى البدن، ويسهم فى تنظيم حرارة الجسم بالتعرق.

فالجسم يطرح كل يوم ما بين لترين وثلاثة لترات من الماء، فى الكليتين (١٤٠٠ جم)، والجلد (٨٥٠ جم)، والرئتين (٨٠٠ جم)، والأمعاء (بضعة جرامات)، ويعوضها بالماء الذى يتناوله الإنسان فى طعامه وشرابه. (٢)

وللماء حرارة نوعية، وبذلك يعد وسطاً ممتازاً لانتقال الطاقة الحرارية، ومن ثم فإنه يقوم بدور مهم ورئيسى فى ضبط حرارة الجسم بالنسبة للإنسان، وغيره من الأحياء. والماء أيضاً مذيب لكثير من المواد والمركبات الكيميائية. (٣)

وعلى الرغم من التقدم العلمى والتقنى الذى تشهده البشرية إلا أنها لم تتوصل إلى بديل صناعى آخر يمكن أن يحل محل الماء.

ثانياً: أنواع الماء

الماء إما يكون مالحاً وإما أن يكون عذّباً، وسنركز حديثنا عن المياه العذبة؛ نظراً لأهميتها القصوى بالنسبة للإنسان.

يتنوع الماء العذب إلى ثلاثة أنواع هى: المياه الجوفية، والمياه السطحية، والمياه الغائرة أو الجوفية.

(١) 'الإسلام والحفاظ على البيئة'، مرجع سابق، ص ٦٢.

(٢) 'الماء والإصحاح فى الإسلام'، د. عبد الفتاح الشيخ، مرجع سابق، ص ١ بتصرف.

(٣) 'الإسلام والحفاظ على البيئة'، مرجع سابق، ص ٦٢.

فالمياه الجوية؛ هي كل ما أمطرته السماء من مطر وثلج وبرد، وهي من أنقى أنواع المياه في طبيعتها؛ لأنها مياه مقطرة، ولكن هذه المياه قد تلوث قليلاً أو كثيراً بما تجرّفه أثناء نزولها من غبار الهواء وأقذاره، لاسيما في بدء المطر أو في الأمطار الأولى خاصة.

والمياه السطحية؛ هي المياه الموجودة على سطح الأرض، وتكون إما جارية كالأودية والأنهار، أو راكدة كالبحيرات. والمياه السطحية تجرف معها ما تقدر على حمله من الأجسام والمواد المختلفة من أنقاض نباتية وحيوانية وجراثيم وذرات ترابية ومعدنية، ولذلك تكون المياه السطحية ملوثة، ولكنها قد تصفو من تلقاء نفسها بأن يتسرب ما في الماء من العوالق وغيرها في القاع، لاسيما إذا جرى الماء جرياناً طويلاً، وتصفو كذلك بفعل الشمس والهواء اللذين يقتلان الجراثيم السطحية، وأيضاً بالفعل الحيوى لبعض الجراثيم التى تفكك المواد العضوية وتمنع نمو بعض الجراثيم الأخرى، كذلك بمرور ماء جديد، وكذلك بالحيوانات والنباتات المائية التى تمتص الأقدار وتتغذى بها كالبط والأوز والسماك والطحالب وغيرها.

أما المياه الجوفية؛ فهى مياه تفيض فى التربة التى يكون فيها ما يساعد على نفوذ المياه. قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وهذه المياه تنفذ فى الأرض، وتسيل منحدره حتى تصادف طبقة كثيفة لا تسمح بتخطيها والنفوذ منها، كطبقة صخرية أو غضارية، فتتقف فوقها وتتراكم، وتشكل المياه الغائرة السطحية، وقد تجد هذه المياه منفذاً لها من تحت الوادى فتخرج فى شكل عين أو ينبوع، أو تجد لها منفذاً فيما تحت الوديان فتغور بعدها حتى تصل إلى طبقة كثيفة ثانية، وتشكل المياه الغائرة العميقة^(١).

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وهذه المياه تنفذ فى الأرض، وتسيل منحدره حتى تصادف طبقة كثيفة لا تسمح بتخطيها والنفوذ منها، كطبقة صخرية أو غضارية، فتتقف فوقها وتتراكم، وتشكل المياه الغائرة السطحية، وقد تجد هذه المياه منفذاً لها من تحت الوادى فتخرج فى شكل عين أو ينبوع، أو تجد لها منفذاً فيما تحت الوديان فتغور بعدها حتى تصل إلى طبقة كثيفة ثانية، وتشكل المياه الغائرة العميقة^(١).

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

(١) 'الماء والإصحاح فى الإسلام'، د. عبد الفتاح الشيخ، مرجع سابق، ص ٢-٣ بتصرف.

والمياه الجوفية تخرج إما عن طريق الينابيع أو عن طريق الآبار، والينابيع على شكلين:

الأول، حقيقى: وهو مخرج المياه الغائرة العميقة، وتكون مياهه ثابتة المقدار والحرارة، ولا تؤثر فيها كثرة الأمطار ولا برودة سطح الماء أو سخونته وتكون نقية.

والثانى، غير حقيقى: وهو الينبوع الذى تؤثر فيه كثرة الأمطار، وتكون حرارته غير ثابتة، ولا يؤمن نقاء مياهه لقرب اتصالها بسطح الأرض.

والآبار نوعان:

١- آبار عادية: يحتفرها الإنسان فى الأرض حتى تصل إلى طبقة المياه الغائرة، ثم يستخرج ماءها بأساليب مختلفة.

٢- آبار ارتوازية: يخرج ماؤها من تلقاء نفسه لكونه فى باطن الأرض أعلى من فوهة البئر. (١)

وجدير بالذكر أن المياه الجوفية تشكل حوالى ٢٤٪ من إجمالى المياه العذبة، وما يقرب من ٦ و ٠٪ من حجم المياه الموجودة على الكرة الأرضية، كما تعتبر المياه الجوفية المورد الوحيد للمياه فى الكثير من بلدان العالم الصحراوية، والتي تفتقر إلى الأنهار.

(١) الماء والإصحاح فى الإسلام، المرجع سابق، ص ٣-٤ بتصرف.

المبحث الثاني

أهم التحديات التي تواجه المياه في القرن الحادى والعشرين

هناك العديد من التحديات التي تواجه المياه في القرن الحادى والعشرين، الذي يصفه المحللون بأنه عصر مشكلات الطاقة والغذاء، بسبب اطراد التطور وزيادة السكان، لذلك فإن الأمن المائى فى هذا القرن سيكون عنصراً أساسياً فى تحديد مسار الأمن السياسى لكثير من الدول، وخاصة فى منطقة الشرق الأوسط، وذلك للحاجة الماسة للماء فى الشرب، والرعى، وصناعة الغذاء، وتوليد الطاقة التحويلية والكيميائية التي تحتاج إلى كميات كبيرة من المياه، وكذلك فإن تطوير نظم تكنولوجيا جديدة للحصول على وقود من الفحم والخشب والصخر الزيتى، يحتاج إلى كميات هائلة من الماء، وهو الأمر الذي دفع البعض إلى القول بأن الأزمات المقبلة -سياسياً وعسكرياً- فى منطقة الشرق الأوسط وغيرها ستكون بسبب الماء، وأن المنطقة مقبلة على مرحلة من الصراعات والحروب بشأن المياه، وخاصة مع دول الجوار الإقليمى للوطن العربى، التي تمتلك منابع الأنهار الكبرى، أو التي تتحكم فى مسارها.^(١)

وسنركز على أهم التحديات التي تواجه المياه المتمثلة فى ندرتها وتناقصها، واتجاه الدول الغنية إلى عوالة الماء العذب، فضلاً عن التلوث الشديد الذي تعاني منه المياه فى العالم يوماً بعد يوم.

أولاً: ندرة المياه وتناقصها

فعلى الرغم من أن المياه تغطى ٧١٪ من الكرة الأرضية، و٢٩٪ يمثل اليابس، إلا أن الإنسان لا يستخدم من هذه الكمية الكبيرة جداً من المياه على هذا الكون إلا ١٪؛ لأن ٩٧٪ من كمية المياه على هذا الكوكب مياهاً مالحة، و٢٪ المتبقية عبارة عن مياه مجبوسة فى شكل ثلوج على القطبين وعلى قمم الجبال.

وثمة مشكلات تواجه ١٪ والتي تتمثل فى المياه العذبة التي يستخدمها الإنسان والحيوان والنبات، تتمثل فى تناقصها وانخفاضها الأمر الذي يؤدي ببعض المناطق إلى التصحر، والمشكلة أكبر من هذا بكثير، فقد ثبت أن نصف أنهار العالم تقريباً تعاني تلوثاً شديداً وانخفاضاً كبيراً فى مستوى مياهها، كذلك ثبت أن بعض بلدان الشرق الأوسط

(١) المياه وأوراق اللعبة السياسية فى الشرق الأوسط، فتحى على حسين، مرجع سابق، ص ٧.

ومناطق مختلفة من الهند والصين وآسيا الغربية والاتحاد السوفيتي سابقاً تعاني من تناقص مستوى المياه الجوفية بمعدلات عالية، وقد أكدت بعض الدراسات العلمية أنه بحلول عام ٢٠٢٥ م سوف يعاني فردان من كل ثلاثة من قصور شديد في المياه. (١)

وما ينبغي الإشارة إليه أن قضية ندرة المياه لا تتعارض مع ما أوجبه الله - عز وجل - على نفسه بأن تكفل لكل كائن حي برزقه من المأكل والمشرب... إلخ، يقول تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]؛ لأنه من عظيم نعم الله على عباده أن ينزل الماء من السماء بقدر معلوم، بحيث يستجيب لحاجات البشر ومطالبهم، وإن هم أحسنوا الإفادة منه وحالوا دون أن يُلوث أو يهدر أو يصب في مياه البحار والمحيطات... إلخ. أما إذا لم يستجب الإنسان لدعوة الله تعالى، ولم يحافظ على الماء وصلاحيته وحمايته من التلوث، فإنه حيثئذ يكون قد كفر بنعمة الله، وتصرف تصرف غير الشاكرين لأنعمه، ومن ثم يكون نزول الماء بقدر لا يتحقق الغرض منه؛ لأن الإنسان قد تعدى وظلم. (٢)

ثانياً: تلوث المياه

تعد مشكلة تلوث المياه من أهم المشكلات العالمية التي تواجه معظم بلدان العالم، وتؤرق المسؤولين وعامة الناس، حتى يكاد الإنسان لا يهنا بشربة ماء نقية (٣)، وأصبحنا الآن نأكل اللقمة المغموسة في السم دون أن ندري، لدرجة أننا إذا شربنا شربة ماء نقية خالية من التلوث نشعر بأن طعامها غير مستساغ...!! (٤).

وتلوث البيئة المائية وفسادها يتسبب فيه عوامل أهمها: التقدم التكنولوجي والصناعي الهائل الذي شهده هذا العصر، والذي أدى إلى تغير ملحوظ في درجة حرارة المياه وكثافته الضوئية ودرجة ملوحته ومحتواه الأوكسجيني والنيتروجيني، وهذا ما جعل الماء مصدراً حقيقياً أو محتملاً للمضايقة والضرر لمختلف الكائنات الحية في البيئة، كما أن الماء العذب على ندرته وأهميته لم يسلم من ذلك التلوث. (٥)

(١) إشكالية البيئة والتنمية في العالم الإسلامي، رؤية اجتماعية، أ.د نبيل السالموطي، بحث مقدم إلى مؤتمر 'الاجتهاد في قضايا الصحة والبيئة والعمران، الأردن ٣-٥ بونية ٢٠٠٣ م، ص ٣ بتصرف.

(٢) 'مستقبل الأمن المائي العربي في عصر العولمة': رؤية إسلامية حضارية، أحمد علي سليمان، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - سلسلة قضايا إسلامية، العدد ١١٦ شوال ١٤٢٥ هـ، نوفمبر ٢٠٠٤ م، ص ٢٥.

(٣) 'وسائل وطرق وآليات المحافظة على الماء'، أحمد علي سليمان، بحث منشور في كتاب 'الدعوة والإعلام وقضايا البيئة'، حلقة نقاشية نظمتها وزارة الأوقاف المصرية سنة ٢٠٠٠.

(٤) نحو بيئة أفضل' للدكتور زين العابدين متولي، سلسلة 'قضايا إسلامية رقم ٤٣'، يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٨، ص ١٠٣-١٠٧ بتصرف.

(٥) مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة'، أ.د ضياء الدين محمد عطية، ط رابطة الجامعات الإسلامية، ب، ص ٩٣ بتصرف.

ويعرف تلوث الماء؛ بأنه إحداث تلف أو إفساد المياه، مما يؤدي إلى وقوع خلل في نظامها الإيكولوجي بصورة أو بأخرى، مما يقلل من قدرتها على أداء دورها الطبيعي، بل إنها تصبح ضارة عند استخدامها أو تفقد الكثير من قيمتها الاقتصادية وبصفة خاصة مواردها السمكية وغيرها من الأحياء المائية.^(١)

وثمة تعريف آخر يعرف تلوث الماء بأنه: تدنيس مجارى الماء من أنهار وبحار ومحيطات وأمطار وآبار جوفية، مما يجعل هذه المياه غير صالحة للإنسان أو الحيوان أو النبات أو الأحياء التي تعيش في المسطحات المائية.^(٢)

ويقسم الباحثون تلوث الماء إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي:

(أ) التلوث الكيميائي بأن يصبح في الماء مواد كيميائية سامة كمركبات الرصاص والزرنيق وغيرها.

(ب) التلوث البيولوجي بوجود طبقات وميكروبات تؤثر في سلامة استخدامها.^(٣)

(ج) التلوث الفيزيائي ويكون عن طريق التلوث الحرارى وذلك بأن ترتفع درجة حرارة مياه النهر أو البحيرة عن درجتها الطبيعية الملائمة للأحياء التي تعيش فيها أو عن طريق التلوث الإشعاعي.

ونعرض لكل على حده ثم نذكر طرق الوقاية والعلاج.

(أ) الملوثات الكيميائية للماء

* يتلوث الماء بالملوثات الكيميائية عن طريق:

١- الفلزات الثقيلة:

مثل: الزئبق، الرصاص، الزنك، الكادميوم، الزرنيخ، النيكل. ويتلوث الماء عن

(١) "الإسلام والبيئة" رؤية إسلامية حضارية للدكتور بركات محمد مراد، ط دار القاهرة، ص ٨٦.

(٢) 'التلوث البيئي'، رؤية من خلال الأحاديث النبوية للدكتور محمد بن عبدالرحمن العمير، بحث مقدم للتدوة

الدولية حول الشريعة الإسلامية وقضايا المجتمع المعاصر بالرباط، المغرب ٢٠٠١م، ص ١٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠ بتصرف.

طريق إلقاء هذه الفلزات الثقيلة في الماء ضمن مخلفات بعض المصانع، حيث لوحظ انتشار حوادث تلوث الماء به في أماكن كثيرة من العالم، مما ترتب عليه العديدين من الأضرار للكائنات الحية.^(١)

والخطورة في هذه المركبات السامة تكمن في انتقالها إلى الإنسان عن طريق السلاسل الغذائية، ولعل أخطر هذه الملوثات هي مركبات الرثيق، والتي يؤدي وجودها في جسم الإنسان ولو بتركيزات قليلة إلى ارتخاء تدريجي في العضلات، وفقد البصر، وتلف في المخ وأعضاء الجسم الأخرى، وقد تسببه حالات من النسيان والغبسوبة أو الموت، كما أنها تحدث تغييرات في الجينات (المورثات) في خلايا الإنسان، وقد تؤثر على الجنين في رحم أمه فيولد الطفل وهو مصاب بتخلف عقلي.^(٢)

ونظراً للأضرار البالغة التي تلحق بالجسم نتيجة التركيزات الضئيلة للزئبق، فإن منظمة الصحة العالمية تؤكد على ضرورة عدم تجاوز كمية الزئبق التي تدخل الجسم عن ٣,٠٪ مجسم أسبوعياً.^(٣)

٢- الأفلزات:

مثل: الكلور، الكبريت، الفلور، البروم. وتسرّب إلى الماء ضمن مياه الصرف الصناعي التي تحتوي على مركبات ثنائي الفينيل عديد الكلور Polychlorinated Biphenyls المعروف بـ (P.C.B)، ويستخدم في صناعة المحولات والمكثفات وتلوين اللدائن. وتؤثر بعض العناصر اللافلزية كالكلور أو الكبريت تأثيراً بالغاً في الكائنات الحية، حيث يؤدي تلوث الماء بها إلى حدوث تسمم الإنسان والحيوان وهلاك وموت النبات.^(٤)

(١) 'مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة'، أ.د. ضياء الدين محمد عطية، ص ٩٤ بتصرف.

(٢) 'الإسلام والبيئة' رؤية إسلامية حضارية للدكتور بركات محمد مراد، ط دار القاهرة، ص ٦٨.

(٣) 'مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة'، مرجع سابق، ص ٩٤ بتصرف.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص ٩٥ بتصرف.

٢- المنظفات الصناعية،

ومن أهم الملوثات الكيميائية للماء: المنظفات الصناعية التي يستخدمها الإنسان في حياته اليومية، وهذه المنظفات لها أضرار كثيرة على الحيوانات المائية إذا اختلطت بمياه الأنهار أو البحيرات أو المحيطات. وأخطر هذه الأضرار يكون نتيجة لتكوينها طبقة رغوة تعزل الماء عن الهواء الجوي، مما يترتب عليه نقص في المحتوى الأكسجيني للماء، وموت العديد من الأسماك والكائنات التي تعيش في الماء، كما يتسبب الفوسفور المضاف إلى المنظفات الصناعية -لزيادة قدرتها على التنظيف- يتسبب في تعجيل حدوث الإثراء أو التثبيغ الغذائي لماء النهر، فتزيد معدلات تكاثر البكتيريا والطحالب ويتحول المجرى المائي أو البحيرة إلى مستنقع^(١)

٤- المخلفات النفطية:

ولعل من أخطر الملوثات الكيميائية للمياه: الزيت المتسرب من عملية التنقيب عن البترول تحت سطح مياه البحر، وكذلك حوادث الناقلات الضخمة، وكذلك من ملحقات السفن التي تفرغ حمولتها ومباهها الملوثة في البحار أو المحيطات، وهذه الملوثات تسبب أضراراً بالغة بالماء والهواء على حد سواء.^(٢)

٥- الأسمدة الزراعية:

لا شك أن الإسراف في استخدام المخصبات الزراعية يؤدي في النهاية إلى تلوث ماء النهر عن طريق مياه الصرف الزراعي التي تصل النهر بطريق أو بآخر، ووجه الضرر في هذه الأسمدة أنها في الغالب تتكون من الفوسفات أو مركبات النترات التي تتحول فيما بعد إلى مواد سامة تلحق أضراراً بالغة بالإنسان مثل: الأورام الخبيثة، والسرطان، ورفع ضغط الدم... إلخ؛ لذلك قام العلماء بمحاولة لتنقية مياه الشرب من هذه المركبات عن طريق الاستعانة ببعض أنواع من البكتيريا التي تحول أملاح النترات إلى نيتروجين.^(٣)

(١) مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة، مرجع سابق، ص ٩٥-٩٦ بتصرف.

(٢) وسائل وطرق وآليات للحفاظ على الماء، أحمد على سليمان، مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٣) مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة، مرجع سابق، ص ٩٨ بتصرف.

٦- المبيدات الحشرية والعشبية:

حذرت كل الأبحاث من مخاطر المبيدات الحشرية المتعددة؛ لأنها تتسرب إلى مياه الصرف أو عن طريق غسل معدات الرش في مياه الترغ والقنوات فتلوثها، كما حذرت من المبيدات العشبية وهي مركبات شديدة السمية في إبادة الأعشاب، وتسبب مخاطر بالغة للإنسان والحيوان على حد سواء.

٧- المخلفات الأدمية (النفايات العضوية): تعد النفايات الأدمية والفضلات وروث الأنعام وبقايا الحيوانات والنباتات التي تلقى في الماء العذب من أخطر الملوثات العضوية له، حيث تجمع بين طياتها مواداً ضارة تلوث الماء وتجعله غير صالح للاستعمال أو لحياة العديد من الكائنات الحية، ونظراً لخطورة هذا النوع من الملوثات، فتوصى الأبحاث الحديثة بضرورة تخفيض إلقاء هذه المخلفات في المياه الصالحة إلى أقصى حد ممكن، مع مراعاة معالجة المياه الملوثة قبل إلقائها في المياه^(١)، أو صرفها في البحار والمحيطات بعيداً عن الشواطئ بواسطة أنابيب تمتد لمسافات كبيرة تصل إلى عشرة كيلومترات على الأقل ويعمق لا يقل عن خمسين متراً تحت سطح الماء، وذلك لإتاحة فرصة كافية لتحلل النفايات بعيداً عن الشواطئ^(٢).

(ب) الملوثات البيولوجية للماء

يتلوث الماء عن طريق العديد من الملوثات البيولوجية وأهمها:

١- الميكروبات والتطفيليات:

عندما يتلوث الماء الصالح للشرب بإلقاء مخلفات الصرف الصحي فيه، يكون الماء حينئذٍ مرتعاً لنمو الميكروبات (فيروسات، بكتيريا، بروتوزوا) وهذه الميكروبات تسبب العديد من الأمراض الوبائية الخطيرة كالقوليرا، والتيفود، والزمار الأميبي.

(١) "وسائل وطرق وآليات المحافظة على الماء"، أحمد علي سليمان، مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٢) "مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة"، مرجع سابق، ص ٩٩-١٠٠ بتصرف.

وتكمن خطورة مخلفات الصرف الصحي في احتوائها على كميات ليست بقليلة من المخلفات البرازية التي تحتوي على أعداد ضخمة من بكتيريا القولون (E.coli)، والتي تضم بعض الأجناس لعائلة الفيروس المسبب لمرض شلل الأطفال، ونظراً لتزايد احتمالية إصابة الأطفال بمرض شلل الأطفال نتيجة لزيادة عدد وحدات بكتيريا القولون في المياه المستعملة للشرب، تقرر منظمة الصحة العالمية أن الماء الصالح للشرب يجب ألا يزيد عن وحدات بكتيريا القولون به عن عشر وحدات في اللتر الواحد.

كما يتلوث الماء بالعديد من الطفيليات الحيوانية التي تنتمي إلى فصائل متنوعة وتسبب أضراراً بالغة بالإنسان والحيوان.

٢- النباتات المائية

وهذه النباتات إما أن تكون مغمورة تحت سطح الماء، وإما أن تكون طافية فوق سطحه، والكثير منها يسبب تلوث الماء نتيجة لتحللها أو استهلاكها لكميات كبيرة من الأكسجين العذب في الماء، مما يؤثر على حياة الكائنات الحية داخل الماء.

والبعض الآخر من هذه النباتات يستنزف كميات كبيرة جداً من المياه ويلوث بعضها، ومن أهم هذه النباتات ورد النيل، الذي يساعد على نمو وتكاثر بعض الحشرات الضارة، ويعوق عمليات الملاحة النهرية وتوليد الكهرباء، ويقلل فرص الاستفادة من المياه في الأغراض المنزلية، كما تسبب المبيدات المستخدمة لمقاومته في إحداث أضرار بيئية عديدة.

وعلى الصعيد المصري فقد بذلت الحكومة المصرية جهوداً مضمينة في فترة الثمانينات وأوائل التسعينات من القرن العشرين لإزالة ورد النيل، ونجحت نجاحاً ملحوظاً في القضاء على هذه الظاهرة الخطيرة.

(ج) الملوثات الفيزيائية للماء

يتلوث الماء فيزيائياً عن طريق ما يلي:

١- ملوثات إشعاعية

يحذر العلماء من أخطار التلوث الإشعاعي للماء، الناتج عن الاستخدام في تبريد

الأجهزة التي تحوى المواد المشعة، كما تسهم الأمطار الملوثة بالغبار الذرى، والتي تساقط على المسطحات المائية فى زيادة خطورة التلوث الإشعاعى للماء.

وتكمن خطورة هذا النوع من أنواع الملوثات فى إحداث الكثير من الأضرار للكائنات الحية، وذلك نتيجة انتقال تلك الملوثات الإشعاعية من الماء إلى الإنسان عبر سلاسل الغذاء، وتزايد تدريجياً خطورة تلك الملوثات مهما انخفضت الكميات الملوثة منها للماء، وذلك نتيجة تجمعها وتركيزها داخل أجسام الكائنات الحية على طول السلسلة الغذائية، وهذا ما يعرف بظاهرة التراكم البيولوجى (Bioaccumulation).

٢- ملوثات حرارية

تنشأ ظاهرة التلوث الحرارى للماء عندما يوجد فرق ملحوظ فى درجة حرارته بين عمقين مختلفين أو بين منطقة وأخرى، وهذا الاختلاف الحرارى يعزى إلى صرف الماء المستخدم لتبريد المحركات الميكانيكية بالمنشآت الصناعية ومحطات توليد الطاقة فى المسطحات المائية كالبهار والأنهار، مما ينشأ عنه ارتفاع ملحوظ فى متوسط درجة حرارة المجرى المائى فى منطقة عن منطقة أخرى، ويترتب على هذا الكثير من الأضرار أهمها:

* نقص فى المحتوى الأوكسجنى للماء.

* تنشيط التفاعلات الكيميائية داخل الخلايا الحية.

* تهجر الأسماك المجرى المائى إذا ما ارتفع متوسط درجة حرارته ارتفاعاً ملحوظاً

* موت وتحلل العديد من الكائنات الحية نتيجة للتغير الحرارى الطارىء ببيئتها.

* تزايد صعوبة عمليات تجهيز مياه الشرب من المجرى الملوثة حرارياً.

* تنقرض بعض أنواع النباتات، مما ينشأ عنه اختلال فى توازن النظام البيئى بالمجرى.

ونظراً لصعوبة الاستغناء عن استخدام الماء فى عمليات التبريد الصناعى، وحرصاً

على تجنب العديد من الأضرار الناتجة عن التلوث الحرارى للماء، فقد أكد العلماء على

ضرورة مراعاة ما يلى:

* خفض درجة حرارة الماء المستعمل فى عمليات التبريد الصناعى، وذلك بإنشاء أبراج ضخمة لتبريد المياه قبل إلقتها فى المجارى المائية.

* استخدام المياه العميقة فى عمليات التبريد لانخفاض درجة حرارتها عن درجة حرارة المياه السطحية.. وهكذا يمكن تحقيق التباين الحرارى بين درجتى حرارة المياه المستعملة والمياه السطحية.

وقد نصح العلماء فى استغلال تلك المياه الملوثة حرارياً، وخاصة التى تم سحبها من المياه العميقة فى أغراض نافعة، وذلك بإلقتها فى أحواض المزارع السمكية حيث يودى توافر الغذاء بها، والمدى الحرارى الملائم، إلى نشاط ملحوظ لمعدلات نمو الذريعة السمكية. (٣٧)

(٣) "مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة، مرجع سابق، ص ١٠٢-١٠٤ بتصرف.

المبحث الثالث وسائل وطرق وآليات المحافظة على الماء

وبعد أن عرضنا للتحديات التي تواجه الماء، والأخطار التي تحدد بكل الكائنات الحية التي تعيش على الكرة الأرضية نتيجة ندرة المياه الصالحة للاستعمال وتلوثها، فأصبح لزاماً على كل المؤسسات البحثية والجامعات ورجال الدين، ووسائل الإعلام أن تدق أجراس الخطر بقوة؛ لأن القضية تتعلق بنقطة الماء التي تمثل حياتنا وحياة زرعنا وضرعنا، وذلك لاتخاذ التدابير اللازمة للمحافظة على المياه الصالحة، وترشيد استخدامها، والكف الفعلي والفوري عن تلوثها، ومراعاة قدسية الماء، وإلا تعرضنا جميعاً لسوء العاقبة - والعياذ بالله -!

فعلى الرغم من أن حكمة الله - عز وجل - اقتضت أن يخلق الماء ويجعل معه ما يحفظه، حيث حفظ مياه البحار والمحيطات بإضافة الأملاح لها التي تعد بمثابة المادة الحافظة لها من الفساد^(١). كما حفظ الماء العذب أيضاً من الفساد بأن جعله جارياً وهذه الحركة لا تنقطع سواء كان معلقاً في السحاب، أو صاعداً من الأرض إلى السماء في صورة بخار، أو نازلاً ثانية من السماء إلى الأرض في صورة أمطار، أو منساباً على سطح الأرض في صورة أنهار، أو عندما يصل جريانه إلى الأعماق ليسلك الطريق المنظم في جوف الأرض، كل هذه الحركة تمنع فساده وتجدد طهارته، ولا شك أن هذا إعجاز عظيم في الكون^(٢)، إلا أن الإنسان يأتي ليهدر بعض الماء ويفسد البعض الآخر مع أنه سر الحياة..!

ومن هنا يجب أن تتضافر كافة جهود المؤسسات العلمية والبحثية والتشريعية والدينية والإعلامية والتنفيذية للعمل على مواجهة ظاهرة ندرة المياه وتلوثها، وذلك على النحو التالي:

(١) الماء والحياة بين الوفرة والندرة، أحمد محمد عمر، ص ٢٥ بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢-٢٤ بتصرف.

- ١- الاعتراف بالشح المتزايد للمياه عالمياً وإقليمياً، وتوعية الجماهير بهذا الخطر حتى يكون الإنسان هو العنصر الفاصل في تقرير مستقبل استخدام المياه وليس العكس.
- ٢- عقد ندوات ومؤتمرات بصفة دورية لدراسة تحديات المياه وطرح الرؤى والأفكار لبلورة أطر نظرية وتقديمها للمسئولين للسير في هداها لمعالجة هذه المشكلة تطبيقياً.
- ٣- سن القوانين المناسبة التي تجرّم تلويث المياه، والتي تعمل على المحافظة عليها، وتطوير أدوات المؤسسات المعنية لاستثمار الإمكانيات المتاحة من المياه على أفضل وجه.
- ٤- تكثيف الحملة الإعلامية في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية وعبر الإنترنت؛ لتوعية الناس بخطورة ندرة المياه وتلويثها، وتدرّس مقررات دراسية للمحافظة على البيئة وتوعية الأجيال بأهمية الماء، وبث الوعي المائي الذي يضع استخدام الناس للماء في إطار الرشد الحضارى.
- ٥- مشاركة رجال الدين في توعية الجماهير بخطورة هذه المشكلة وحثهم على الالتزام بتعاليم الدين التي تدعو إلى ترشيد استهلاك الماء وعدم تلويثه.
- ٦- معالجة مياه الصرف الصحى قبل تصريفها فى المسطحات المائية؛ لأن تصريف هذه المياه الصالحة لا يؤدي إلى تلوث المياه بالطفيليات والروائح الكريهة فحسب، بل يتسبب فى استهلاك الأوكسجين المذاب فى الماء، وهو من أهم العوامل التى تساعد على الحفاظ على جودة المياه، ونقصانه يؤثر فى حياة الكائنات التى تعيش فيه.
- ولذلك أخذت كثير من المجتمعات الصناعية تعالج مياه الصرف الصحى مرة ثانية بأساليب علمية حديثة وإعادة استخدامها للاستفادة منها، لاسيما بعد أن أصبحت ندرة الماء العذب تشكل مشكلة جديدة من المشاكل التى تواجه البشرية الآن.^(١)
- ٧- إلزام السفن المحملة بالمواد النفطية باستعمال تركيبات خاصة للحيلولة دون تسرب الزيت إلى مياه البحار؛ لأن مشكلة تسرب الزيت إلى المسطحات المائية معقدة جداً،

(١) "الإسلام والبيئة" رؤية إسلامية حضارية للدكتور بركات محمد مراد، مرجع سابق، ص ٧٢.

ونظراً للتزايد المستمر في معدلات تلوث البحار والمحيطات بتلك المخلفات النفطية فقد حاول العلماء التغلب على هذه المشكلة باتباع أساليب عديدة، إلا أنها لم تؤثر الثمار المطلوبة، بل خلّفت آثاراً سيئة، ومن أهم الأساليب في معالجة المياه الملوثة بالمخلفات النفطية ما يلي:

* استحداث بعض أنواع من البكتيريا التي لها القدرة على تحليل جزئيات الهيدروكربونات صعبة الذوبان، ولها أيضاً قدرة على المعيشة في ماء البحر، وذلك عن طريق نقل بعض الجينات من بكتيريا التربة إلى البرنامج الوراثي لبعض البكتيريا التي تعيش في ماء البحر، ونجحت عملية النقل بالفعل إلا أن معدل تحلل المخلفات بفعل هذا النوع المستحدث كان بطيئاً جداً.

* إشعال طبقة الزيت التي تطفو على السطح، إلا أن هذا الأسلوب لم يكن فعالاً في تخلص الماء من الملوثات البعيدة عن السطح، بالإضافة إلى ما ترتب على ذلك من مشكلات تلوث الهواء بالعديد من الغازات والأبخرة الناتجة من احتراق تلك الملوثات.

* استخدام المنظفات الصناعية التي تُكوّن مع زيت البترول مستحلباً يتشرب في الماء، وبذلك تختفي بقعة الزيت بعد فترة قصيرة، إلا أن هذا الأسلوب يحتاج إلى كميات كبيرة من المنظفات التي تعد هي الأخرى من الملوثات، بالإضافة إلى أن المستحلب المتكون يحتاج إلى فترة طويلة كي يتحلل.

* استخدام بعض المذيبات الكيميائية، إلا أن تلك المذيبات كان لها آثاراً سامة لمعظم الأحياء البحرية.

* استخدام حواجز طافية لحصر زيت البترول وإغراقه بإضافة مساحيق خاصة أو رمال ناعمة تؤدي إلى رسوبه في القاع، إلا أن هذا الأسلوب كان له تأثير بالغ الضرر على الكائنات البحرية التي تعيش في الأعماق^(١) إذن فالوقاية خير من العلاج.

- ٨- تحديد مواقع بعيدة جداً عن الشواطئ في أعماق المحيطات للتجارب النووية.
- ٩- اختيار المكان المناسب لأخذ مياه الشرب بعيداً عن مصادر التلوث، وتمرير هذه المياه في أحواض للترسيب، وإضافة نسب معينة من الكلور والشبّة (كبريتات الألومنيوم) في الماء والتي تلتصق بها المواد العالقة والبكتيريا في فترة قصيرة، واستعمال الأشعة فوق البنفسجية لتطهير المياه.
- ١٠- ترشيد الاستهلاك وعدم التبذير في استعمال الماء، وهذا العنصر يركز على مطلبين هما:

(أ) ترشيد الاستهلاك الشخصي للمياه: من خلال عدم الإفراط وتجاوز الحد اللائق في النظافة، حتى ولو كان ذلك في الوضوء أو الطهارة من الحدث الأكبر، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ يسأله عن الوضوء، فأراه ثلاثاً ثلاثاً، قال هذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم» (٢).

(ب) متعلق بترشيد المياه المستخدمة في الزراعة عن طريق:

- * معالجة مياه الصرف الزراعي بالتقنيات الحديثة وإعادة استخدامها في الزراعة.
- * تقليل الفواقد المائية باستخدام أساليب الري الحديثة والتوسع فيها.
- * تطوير وتحديث طرق مقاومة الحشائش بالمجاري المائية لرفع كفاءة النقل وتقليل فواقد البخر (٣).
- * إعادة رسم الخريطة الزراعية وتنظيم زراعة المحاصيل التي تعتمد على كميات كبيرة من الماء مثل الأرز والقصب.

(١) "مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة"، د. ضياء الدين محمد عطية، مرجع سابق، ص ١٠١-١٠٢ بتصرف.

(٢) مسند الإمام أحمد، كتاب "مسند المكثرين من الصحابة"، باب عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) "الماء والحياة"، د. أحمد محمد عمر، ص ٨٨ بتصرف.

* استنباط أنواع من المحاصيل الزراعية تعطى إنتاجية عالية وتستهلك كميات قليلة من الماء، وتعميم هذه الفكرة.

١١ - استخدام الأقمار الصناعية وأجهزة الاستشعار عن بعد للكشف عن المياه الجوفية. وثمة دراسات حديثة تؤكد أن منطقة الوطن العربي في أقاليمها المختلفة تدرج بمخزن كبير من المياه الجوفية، تتجمع في عدة أحواض جوفية، ومن ثم فلا بد من تنمية مصادر المياه الجوفية، واستغلالها للاستخدامات المختلفة بأقل تكلفة ممكنة إلى جانب تجنب الآثار البيئية الضارة؛ لأن ترك المياه الجوفية بدون استخدام يؤدي إلى مشاكل صرف، واستخدام المياه الجوفية بصورة زائدة أيضاً يؤدي إلى قلتها، فمن الممكن أن تقوم الخزانات الجوفية بدور هام من حيث استخدامها كأوعية موسمية لتخزين المياه على مدار العام.^(١)

١٢ - الدعوة إلى الاتجاه إلى البحر، ففي ظل محدودية المياه وتلوثها، وفي ظل مشكلة التصحر التي تؤرق العديد من بلدان العالم، وفي ظل تزايد عدد سكان العالم الذي يزيد بمعدل ٧٥ مليون نسمة سنوياً، وفي ظل افتقار أكثر من ٤٦٠ مليوناً من البشر في الدول النامية إلى الوجبات الكافية والملائمة، في هذه الظلال جميعها نعتقد أن الرقعة الزراعية ومساحات المراعي في العالم لن تستطيع - مهما توافرت إزاءها إمكانات الاستغلال الأمثل - أن تفي بحاجات هذا الازدحام الرهيب من الأفواه المطالبة بالغذاء، والمتزايدة كالطوفان عاماً بعد عام، وليس أمامنا إلا البحر نأخذ منه، فرياح الأمل تهب من البحار، فالبحر مخزن عظيم لأنواع الطعام المختلفة، فبالرغم من أن الدراسات الحديثة أثبتت أن البحر في حالته الطبيعية ينتج في كل جزئية منه بقدر ما تتجهه اليابسة، إلا أن الإنسان لا يأخذ من مصادر المياه المالحة سوى واحد

(١) الآثار البيئية المترتبة على الاستغلال غير الأمثل للمياه الجوفية في المنطقة من العريش إلى الشيخ زويد ورنج بمحافظة شمال سيناء، د. عطية عبدالوهاب السيبي، منشور ضمن البحوث البيئية بجامعة قناة السويس، الجزء الأول، يناير ٢٠٠١م، ص ٨٨، بتصرف.

في المائة تقريباً من حاجاته الغذائية، فلم لا نحاول بكل طاقاتنا وإمكاناتنا أن نتجه إلى البحر، ونعامله بالأساليب الحديثة كمزرعة عظيمة تعطى الأمل الكبير في انفراج أزمة المياه، وتنسعد ملايين الجوعى والمحرومين في العالم^(١).

إن الخالق العظيم يرشدنا إلى ما وهبه وحباه لنا من النعم الجليلة والخيرات العظيمة في البحار. فيقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَآخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

ومما هو جدير بالذكر هنا أن المياه المالحة على هذا الكوكب -والتي تمثل ٩٧٪ من إجمالي كمية المياه على الأرض- تعد مخزون استراتيجي للمياه، بها نسبة من الملح مقدارها ٥، ٣٪، مع الأخذ في الاعتبار أن هذا الملح ليس نقمة بل هو نعمة من الله -عز وجل-؛ لأنه مادة حافظة تمنع فساد هذه الكميات الضخمة من المياه^(٢)، ومن هنا ندعو إلى الاستفادة من هذه الثروة الكبيرة من المياه عن طريق التوسع في برامج تحلية هذه المياه عن طريق:

- * الاستفادة من دول جنوب شرق آسيا واليابان وغيرها من الدول الرائدة في هذا المجال.
- * استخدام أحدث الأجهزة والتقنيات في هذه العملية.
- * استنباط واستحداث أصناف من الزراعات تعتمد على هذه المياه المحلاة.
- * توجيه الأبحاث والدراسات للعناية بهذه الأطروحات.

(١) "البحر كنوز وأسرار"، ص ٦٢.

(٢) "الماء والحياة"، د. أحمد محمد عمر، مرجع سابق، ص ٣٠ بتصرف.

المبحث الرابع هدى الإسلام في المحافظة على الماء

أولى الإسلام الماء اهتماماً كبيراً لم له من أهمية بالغة في حياة الكائنات الحية عامة، والإنسان خاصة، حيث جعل الله منه كل شيء حياً، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠]. لذلك جعلت الشريعة الإسلامية الغراء حق الانتفاع بالماء مكفولاً للجميع بلا احتكار حيث يقول النبي ﷺ: «المسلمون شركاء في ثلاث: في الكلا والماء والنار» (رواه أبو داود).

وإذا كان الله -تعالى- قد جعل من الماء كل شيء حياً، سواء كان إنساناً أم حيواناً أم نباتاً أم غيره، فإن ذلك أدعى إلى أن نحافظ عليه؛ لأنه النعمة المهداة من الله عز وجل إلى جميع مخلوقاته حتى تستمر في العيش إلى ما شاء الله.

والناظر في الشريعة الإسلامية الغراء يجد أن نصوصها قد تضافرت للحث على المحافظة على موارد المياه، وحمايتها من كل العوامل التي تسبب فسادها، ومن ثم فقد نهت الشريعة عن الإسراف في الماء، أو استعماله في غير موقعه، أو تجاوز الحد اللائق في استعماله حتى ولو كان بغرض الطهارة من الحدث الأكبر أو الأصغر، وكان النبي ﷺ القدوة الحسنة في ذلك، فقد روى الإمام مسلم من حديث أنس -رضي الله عنه-: «كان النبي ﷺ يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد» (رواه مسلم)، وجاءه أعرابي يسأله عن الوضوء (فأراه ثلاثاً ثلاثاً، قال هذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم) (رواه أحمد). وتحفل الشريعة الإسلامية كذلك بالعديد من النصوص التي تحث على حماية الماء من التلوث، فمن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب»، فقالوا يا أبا هريرة كيف يفعل؟ قال: يتناوله تناوياً» (رواه مسلم)، وعن جابر -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ «أنهى أن يبال في الماء الراكد» (رواه مسلم والنسائي وابن ماجه)، كما نهى عن التبرز فيه، فعن أبي سعيد

الخميري عن ماذ بن جبل - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل» (رواه أبو داود).

كما نهى أيضاً عن ترك الإناء بدون غطاء أو ترك السقاء بدون رابط حتى لا يتلوث ما بداخله، فعن جابر - رضى الله عنه - أنه سمع النبي ﷺ يقول: «غطوا الإناء وأوكؤا السقاء»^(١) فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء» (رواه مسلم).

ويتجلى حرص الرسول ﷺ في المحافظة على نقاء الماء في قوله ﷺ: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده حتى يغسلها ثلاثاً، فإنه لا يدرى أين باتت يده» (رواه مسلم)، وسبب الحديث كما قال العلماء هو أن أهل الحجاز كانوا يستنجون بالحجارة وبلادهم حارة، فإذا نام أحدهم عرق فلا يأمن النائم أن تقع يده على ذلك الموضع النجس أو على قدر غير ذلك^(٢).

فهذه الأحاديث جميعاً تنهى عن تلويث الماء بالبول والبراز؛ لأن هذا الصنيع مع قذارته وتقذذ النفوس منه، يولد أمراضاً وبائية، فهذا بول فيه بلهارسيا، وهذا فيه سكر، وهذا فيه حمى صفراء، وآخر فيه صديد، إلى غير ذلك من الأمراض التي تظهر في البول. وهذا هو السر في كثرة المصابين بهذه الأمراض من أبناء الريف الذي لا يتحرز أهله عن هذا الصنيع.

من هنا يتبين سر نهى الرسول ﷺ عن التبول والتبرز في الطريق والظل والماء سواء كان جارياً أم راكداً؛ لأن الماء الجارى يحتاجه الناس في شربهم ومأكلهم ونظافتهم، فإذا كان ملوثاً بشيء مما ذكرنا، وكان هذا الشيء لإنسان مريض فلا شك في انتقال المرض إلى من استعمل ذلك الماء الملوث. وفي حالة الماء الراكد تزداد المخاطر؛ لأن الماء الراكد بطبيعته مكان للميكروبات والذباب، اللذين يسببان أمراضاً خطيرة للإنسان.

فأى نظافة وأى وقاية وأى سلوك صحى أرقى من هذا الذى طلبه الرسول ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان.^(٣)

(١) أى غطوا الطعام واربطوا قرب الماء.

(٢) 'اهتمام الإسلام بالماء والنظافة'، د. عدالفتاح الشيخ، ص ٢٦.

(٣) المرجع السابق.

الخاتمة

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفى وبخاصة النبي المصطفى ﷺ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

أما وأن لكل شيء بداية فإن لكل شيء كذلك نهاية، فسبحان من لا بداية له ولا نهاية... وبعد:

فلقد انتهيت من هذا البحث بعون الله ومدده وتوفيقه، داعياً الله -عز وجل- أن نجد الأفكار والبرامج والإستراتيجيات والتحذيرات والنداءات المطروحة في هذا البحث أذاتاً صاغية وقلوباً واعية، حتى تستطيع مواجهة التحديات والأخطار المتعلقة بالمياه والمحدقة بنا، والتي تهددنا وتهدد زرعنا وضرعنا، وحتى يكون الإنسان هو العنصر الفاصل في تقرير مستقبل المياه وليس العكس، ولن يتأتى ذلك إلا بالرجوع إلى النبع الصافي: القرآن الكريم والسنة المطهرة، فالناظر فيهما يلحظ أن نصوصهما قد تضافرت للحث على المحافظة على موارد المياه، وعلى حمايتها من كل العوامل التي تسبب فسادها.

أدعو الله -عز وجل- أن يجعلنا على قدر مسئولية استخلافتنا في الأرض، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وبالله -تعالى- التوفيق،،،



obeikandi.com

الوثائق

obeikandi.com

الميثاق الإسلامي للبيئة

الصادر عن المؤتمر العام السابع لرابطة الجامعات الإسلامية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد..

فإن البيئية هي الموئل الذي يعيش فيه الإنسان، فهي تشمل الأرض التي يحيا عليها، والهواء الذي يستنشقه، والماء الذي يشربه، كما تشمل كل ما يوجد على الأرض من الأحياء "النبات والحيوان والطيور".

وقد خلق الله هذا الكون متكاملًا ومتوازنًا، لا قصور فيه ولا نقص، يقول تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [المالك: ٣]، وخلق الإنسان في أحسن تقويم وفي أجمل صورة . قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وخلق للإنسان ما في هذه الأرض يقول سبحانه وتعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

إن هذا الكون العظيم الذي سخر لنفع الإنسان ينبغي أن يحافظ عليه وأن لا يفرط فيه أو يشيع فيه الفساد والشر .

وإذا كانت الدول والمنظمات الدولية قد حرصت على العناية بالبيئة وأصدرت العديد من الإعلانات والمواثيق التي توضح دواعي الاهتمام بها وضرورة تنميتها وحمايتها ووقايتها من صور التلوث والأضرار المختلفة التي قد تحدث لها بفعل الإنسان غالباً، وبفعل عوامل طبيعية أحياناً أخرى، فإن الأمة الإسلامية يجب أن تهتم بالبيئة، وأن تظهر للناس المبادئ والقيم الإسلامية التي تحافظ عليها .

ورابطة الجامعات الإسلامية، وهي المنظمة الإسلامية الدولية التي تضطلع بأمانة تطوير مناهج الدراسات الإسلامية وتعميق المفاهيم الإسلامية في مختلف القضايا التي تهم الشعوب الإسلامية، تجدد نفسها في محل التكليف بالنسبة لتوضيح قضية البيئة، وإبراز المبادئ الإسلامية فيها.

لذلك عقدت في مقر جامعة اليرموك مؤتمراً عن (الاجتهاد في قضايا البيئة والصحة والعمران)، وتناول الباحثون في هذا المؤتمر مختلف قضايا البيئة، ووسائل الحفاظ عليها. وانطلاقاً من الأهمية المتجددة لحماية البيئة ورغبة من رابطة الجامعات الإسلامية في أن تظهر المبادئ والقيم الإسلامية التي تتصل بالبيئة وحمايتها فإن مؤتمرها السابع يقرر ما يلي:

أولاً: يجب على الإنسان أن يعمر الأرض ويستثمرها وينميها ويستخرج ثرواتها ويجعل ما فيها من موارد لخدمة الجنس البشري في كل مكان، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشَوْا فِي مَتَابِعِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]

ويجب على المسلمين على وجه الخصوص أن يبذلوا أقصى الجهد والطاقة والعمل لاستثمار موارد الثروة التي حبا الله بها بلادهم، وأن يأخذوا بالأسباب التي تمكنهم من التقدم والرقى، نيلاً لثواب الله، وإصلاحاً للأرض، وقضاء على المشكلات التي تحيط بهم، كالبطالة والتضخم والانكماش، بعد أن تأخروا كثيراً في هذا الميدان.

ثانياً: ينبغي أن يقوم الاستثمار والتنمية على التوسط وعدم الغلو في إنهاك الأرض، وإجهادها حتى تستفيد منها الأجيال المتلاحقة.

ثالثاً: يقر الإسلام بحق الناس في أن تكون البيئة التي يعيش فيها الإنسان بيئة صحية مناسبة، صالحة لحياته، مجيبة لمتطلباته، خالية من العوامل التي تؤثر على صحته، وتقلل من قدراته، وتحد من نشاطاته.

رابعاً: إن حق الإنسان في العيش في بيئة صحية مناسبة لا يكتمل إلا من خلال تعاون دولي تسهم فيه مختلف الدول، تحترم المواثيق الدولية التي صدرت من خلال مؤتمرات استهدفت حماية البيئة ووقايتها من التلوث، ومنع أي أضرار بها، ومن الواجب على الجامعات الإسلامية أن تتعاون في تحقيق ذلك باعتباره من التعاون على البر، يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]

خامساً: يجب الاهتمام بالمياه باعتبارها إحدى ضرورات الحياة على الأرض، وتهيب الجامعات الإسلامية بمختلف الهيئات المسؤولة في الدول الإسلامية للحفاظ عليها ومنع تلويثها وترشيد استخدامها، والبحث عن مظانها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

سادساً: مصادر الطاقة والثروات الطبيعية من نعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان، ويجب العمل على الاستفادة منها لصالح الأجيال الحالية والقادمة، كما يجب أن يعم النفع بها كافة البشر بصرف النظر عن الجنس واللون، عملاً بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والكلاء والنار". (رواه أبو داود).

سابعاً: يجب أن يتم التعامل مع البيئة وفقاً للمنهج العلمي الذي يوجه الإنسان إلى الاستفادة المثلى منها، ويجب بذل الجهود في الدول الإسلامية لتشجيع البحوث والدراسات المتصلة بالبيئة ووضع أفضل الأساليب لتنميتها والحفاظ عليها.

ثامناً: الاهتمام بالدراسات الإسلامية المتصلة بالبيئة، واستخدامات المياه لصالح الإنسان والحيوان، ويذكر المؤتمر بالآيات والأحاديث التي تركز على الجانب البيئي، وكيف طبق في حياة المسلمين، كما يذكر بالقواعد الفقهية التي تحكم حياة المسلمين، ومنها: رعاية المصالح، والتيسير على الناس، ومنع الضرر، والأمر إذا ضاق اتسع، ودرء المفسد أولى من جلب المصالح، وغير ذلك من القواعد.

تاسعاً: مناقشة وسائل الإعلام المختلفة القيام بعمل فعال في تنمية الوعي البيئي، وذلك بتقديم برامج مفيدة تراعي جمهور المستقبلين، وأن تتجنب الإساءة إلى البيئة الثقافية والفكرية للأمة الإسلامية بما تنشره من إسفاف يؤثر على عقول الناس وأفئدتهم، وأن تلتزم فيما تقدمه بالقيم والمبادئ الأخلاقية والدينية النابعة من رسالات الله للبشر، مع استبعاد الصور السلبية التي تضر بالبيئة بكافة الوسائل المادية والمعنوية.

عاشراً؛ ضرورة تطوير الخطاب الديني، وذلك بالحرص على مخاطبة الناس بقضايا عصرهم، وأن تأخذ موضوعات البيئة في تكاملها وحمايتها الأهمية التي تستحقها في هذا الخطاب.

ومراعاة ذلك في دراسات كليات الدعوة والإعلام وأصول الدين والدراسات الإسلامية والشريعة، وعقد دورات تدريبية متخصصة للأئمة والدعاة في مختلف قضايا البيئة وحمايتها.

حادي عشر؛ الاهتمام بوقاية البيئة بمختلف عناصرها من المياه والأرض والبحر والهواء، والاستفادة مما كتبه علماء المسلمين إلى جانب ما يقدمه العلم الحديث في هذا المجال، فالإسلام يوجب وقاية البيئة من كافة الشرور والعدوان والتلوث الذي يحدثه الإنسان، ويؤكد المؤتمر موقف الشريعة الإسلامية من عدم السماح للملوثات والغازات والأبخرة بالتأثير على طبقة الأوزون التي تحمي الكرة الأرضية من الأشعة البنفسجية، فذلك من قبيل الضرر الماحق بالإنسان وبيئته، وهو ما تمنعه الشريعة الإسلامية.

وفي الدراسات العميقة في مختلف كتب الفقه الإسلامي عن أهمية جودة المياه وضرورة الحرص على طهارتها ونقاؤها وعدم قبول العبادة الأساسية للمسلمين وهي الصلاة بغير ماء طهور، ما يفيد في مجال التشريعات والدراسات البيئية، إضافة إلى ما في كتب التراث في هذه المجالات، وخاصة كتب العمران والأبنية والحفاظ على الطرق وثروة المجتمع الإسلامي المادية والمعنوية.

ويدعو المؤتمر الجامعات الإسلامية والمعاهد المتخصصة في الدراسات البيئية إلى إبراز هذه الكنوز والاستفادة منها في معالجة القضايا المعاصرة للبيئة.

ثاني عشر؛ أهمية اعتبار سلامة البيئة من عناصر الأمن العام الضروري لسلامة الفرد وصحته، لأنه لا يمكن فصل الأمن البيئي عن الأمن والنظام العام.

ثالث عشر؛ أهمية تقدير مسئولية الدولة والأفراد ومختلف الشعوب عن الحفاظ على البيئة وسلامتها، باعتبار ذلك رسالة أخلاقية تدعو إليها مختلف الرسالات، مع مراعاة

أن الإسلام يجعل الجزاء على العدوان على البيئة مزدوجاً في الدنيا والآخرة، ومع ذلك فالإضرار بالبيئة في أي عنصر من عناصرها يمثل جرائم تستوجب العقاب المناسب لזجر المخالفين، وردع الآخرين، عن الاعتداء على البيئة.

رابع عشر: أهمية تخصيص صندوق للأمن البيئي توضع فيه المبالغ التي تحصل نتيجة المسؤولية البيئية لإصلاح البيئة والحفاظ عليها وتشجيع السلوكيات الحسنة والموافقة لمقتضيات سلامتها.

خامس عشر: أهمية واجب الدول في حماية البيئة، وضرورة تبني التشريعات واللوائح والقرارات التنفيذية التي تكفل الحماية المستدامة للبيئة على ضوء التغيرات والتطورات التي تحدث في المجتمعات الإنسانية.

سادس عشر: أهمية دور المنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية في هذا المجال، وضرورة الاستفادة من التشريع الإسلامي في مجال البيئة وحمايتها في هذه المؤسسات، وإسماع صوت الإسلام عالياً في هذه المجالات، وأهمية ما يمكن أن تقوم به في هذا المجال مؤسسات حماية البيئة ومختلف هيئات المجتمع المدني، انطلاقاً من المصادر الشرعية الإسلامية.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

صدر في بيروت

في يوم ٢ من ربيع الأول ١٤٢٥هـ

٢٢ من إبريل ٢٠٠٤م

obeikandi.com

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	* تقديم الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية * حق الإنسان فى بيئة صحية مناسبة
٧	أ.د. / جعفر عبد السلام * المفهوم الإسلامى للبيئة وتلوثها
٢٧	أ.د. / على إبراهيم الزيات * واجب الحماية الدولية للبيئة الطبيعية
٧١	أ.د. / محمود داود * قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد وتطبيقها فى المجال البيئى
١٠١	أ.د. / على بن عبد الله عسىرى * إشكالية البيئة والتنمية فى العالم الإسلامى (رؤية اجتماعية)
١١٧	أ.د. / نبيل السمانوطى

تابع الضهرس

الصفحة	الموضوع
١٣٥	* تنمية البيئة وحمايتها من منظور إسلامي تربوي أ.د / مصطفى محمد رجب
١٦٩	* مبادرات البيئة الفكرية (رؤية إسلامية) أ.د / عمار جيدل
٢١٥	* الماء : أهميته والتحديات التي تواجهه ووسائل وطرق المحافظة عليه (رؤية إسلامية حضارية) أ / أحمد على سليمان
٢٤١	* الوثائق
٢٤٣	الميثاق الإسلامى للبيئة

obeikandi.com

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٢٣٣٦١

المركز العلمي للطباعة والكمبيوتر
نسخة كمبيوتر - طباعة (أوفست - ماسترا)
ياسر التراث

كل ما يخص الطباعة تجده بين يديك

الإدارة: ٢٠ ش ترعة الجراد - القمصين الزاوية الحمراء

المطابع: ٤ ش محمود الفار من المتواوي ١١٢/٢٥١.٩١١ - زاوية الحمراء

محمول: ٠١٢٣٤٥٩٣٠

٤٧٤-٤٦٥